عبد الفتاح عبد الخالق سمك

أهل بدر

موسوعة تاريخية ثقافية أدبية

الجزء الثاني

يطلب من
مكتبة وهبة
١٤ شارع الجمهورية - عابدين
القاهرة - تليفون ٣٩١٧٤٧٠

الطبعة الأولى

١٤١٨ هـ - ١٩٩٧ م

الإهــــــداء

أيها الباحثون عن المثل العليا..

يا من تنشدون الكمال البشريّ..

دونكم أهل بدر..

كأن اللــه قد اطلع عليهم ثم قال لهم..

إعملوا ماشئتم فقد غفرت لكم.

بسم الله الرحمن الرحيم

تقـــــديم

الحمد لله الذي اطلع على أهل بدر، ووضع عنهم كل وزر، وادخر لهـــم عظيـــم الأجر.

والصلاة والسلام على سيدنا محمد أول بدري وضع الله عنه وزره، وشرح صدره، ورفع ذكره... وبعد..

قلت في مقدمة الجزء الأول مايلي:

استغرق الإعداد لهذه الموسوعة ثلاثة عشر عامًا، وتـــم تحرير هذا الجزء منها في عام كامل.

وأهل بدر جديرون ببذل العمر كله من أجلهم، حيث كانوا هم حماة الدين، الذين قدموا أنفسهم يبذلونها للدفاع عنه على غير أهبة واستعداد، فحقق اللـــه لهـــم النصـــر، وحفظ لهم أرواحهم، وبشرهم بالمغفرة وإن فعلوا ما يشاءون.

على أن أهل بدر وإن كانوا في البشرى سواء، فإنهم يتفاوتون في الشهرة، حيث إن اللـــه رزق بعضهم الشهرة، فَعَرَفَ اسمه القاصي والداني، وأكثرهم قد تقـــرأ عشـــرات المراجع فلا تعرف عنه إلا اسمه، فأخذت على نفسي أن أنقب ـــ قدر طاقتي ـــ عن غـــير المشهورين منهم أولاً، عسى اللـــه أن يأجرني بذكرهم فيذكرني ـــ إن شـــاء اللـــــه ـــ عنده.

ولكنك ستجد في الكتاب مناقشة لقضايا معاصرة أثار الكـــلام عنـــها مواقـــف البدريين، فلا يأخذك العجب إذا استغرق الكلام عن هذه القضايا بالقدر الـــذي يوضـــح فكرتها ومرماها.

وإنك لواجد نتفًا من التاريخ، ومواقف لغير البدريين يقتضي المقام ذكرها، يخـــرج لك في النهاية ـــ بإذن اللـــه ـــ كتابًا مكتملاً من المعرفة بمعناها الموسوعي تدعو الحاجـــة إليه للمثقفين بمثل ما تدعو الحاجة إلى إبراز نماذج إنسانية ترسم مثلاً عليا للشباب بعد أن كثرت تراجم أهل اللـــهو، وتقلص في وسائل الإعلام ما يذكر بأمثلة الرجولة الكاملـــة، وحتى المرأة الكاملة.

وإنك لواجد بعد ذلك عبارة لـــم أتكلف في الارتفاع بها، ولـــم أتكلف كذلـــك في تيسيرها، وتركتها على السجية حتى لا أنشغل بها عن فكرة أو حدث.

إنني من المحبين للغة العربية، الحريصين عليها، الواثقين في قدرتها على حمل أي مفهوم، وأي عبارة، وأي اتجاه، وأي مصطلح، وأنا من المؤمنين كذلك ببقائها وحفظها بحفظ الله الذي حفظ الذكر، وهي وعاؤه، ولا يحفظ القرآن إلا بحفظ لغته.

يبعد المسلمون عن اللغة أو يقتربون، يستلذون الفصاحة أو يستعذبون الركاكة، أو يجنحون إلى الجزالة، لكنهم في كل حين مشغولون بلغتهم، والعمل الذي يكتب له البقاء في لغتنا هو الذي كتب بها بلسان عربي مبين.

وأقول هنا إنني في هذه الموسوعة لا أكتب سيرة لمن أترجم له، ولا أرسم له صورة، وإنما قصدت إلى أن أكتب السيرة في إطار صورة.

إن سفر الإسلام عظيم، وإن سلطان الإسلام قاهر بإذن الله، وما فلان وفلان من أصحاب النبي ﷺ، ولا فلان وفلان من خلفهم والعاملين للإسلام في كافة عصوره إلا أسطرًا أو جملاً أو مفردات في هذا السفر العظيم، جاءتهم العزة من عزته، وكان لهم الشموخ من شموخه، حتى قال قائلهم، وهو ينطق بلسانهم ولسان الحق والمنطق! أنا بالله عزيز.

ولقد شهد التاريخ رجالاً كالصديق في الورع والحزم وجيشان العاطفة وقوة القلب، ولكنه لم يشهد رجلاً كالصديق تفرد في هذه الصفات، وذلك لأن صفات الصديق كانت تستمد حيويتها ومضاءها وبهاءها من حيوية الإسلام ومضائه وبهائه، وأقل دليل على ذلك أنه لم يكن ورعًا ولا حازمًا لكي يُقال عنه إنه متصف بهذه الصفة أو تلك.

ويُقال مثل ذلك عن عظمة عمر، وفروسية عليّ، وفدائية عثمان، وقيادة خالد.

تحتفظ ذاكرة التاريخ بخطط عسكرية، وقيادات حربية أسهمت في تغيير خريطة العالم على قدر ثقلها وإحكام تخطيطها، ولكن قيادة خالد بن الوليد تبقى متميزة، وسيفه يظل متفردًا، ولم يكن ذلك لبلائه في الصراع مع الفرس والروم، ولا لمجرد فعاليته في إخماد حريق الردة، وإنما لسيطرته على نفسه قدرته على قيادتها، ومعرفته اليقينية بأن الإسلام هو الذي صنعه وسوّاه، حتى إذا عُزل عن القيادة لم يظهر حرصه عليها، وإذْ عرف أنه لن يحرم من الجهاد فقد طابت نفسه وسلم الراية لأبي عبيدة، وأسلم نفسه لقيادته، فكان سيف الله على أعدائه، وسيف الله على هوى النفس ووسوسة الشيطان.

وما يُقال عن خالد يمكن أن يُقال مثله عن عياض بن غنم، وعتبة بن غزوان، وأبي سبرة بن أبي رهم، وسالم وغيرهم.

ألم يكونوا بشرًا؟ ألم تكن لهم حظوظهم من الدنيا؟

بلى كانوا بشرًا، وتلك ميزقم، لأنهم يدركون أن بشريتهم لـــن ترقـــى بهـــم إلى الكمال إلا إذا عاشوا في أحسن تقويم، و لم يردوا أسفل سافلين، والتقويم الأحسن للبشـــر أن يسير على منهج صانعه، وأن يتوجه بتوجيهاته، وأن يتحلى بآدابه.

التقويم الأحسن الذي يبعد الإنسان عن الخسر هو، أن يدرك أن الإســـلام ديـــن طقوس وشعائر، ونظام حياة، ونسق علاقات تنبع من عقيدة يربطها بالله خالق الأكـــوان أوثق رباط، فيه الخضوع والخنوع له، وفيه العزة والشموخ في مواجهة الحياة، وفيه الذلـــة والرحمة وخفض الجناح والصبر والغفران بين السلمين ذوي الرحم الواحد بنسب الإسلام الذي جمعهم إخوة تسود بينهم المودة والرحمة، وفيه البراء و الفصام من الكفر وما يقرب إليه. أعزاء على الكفار رحماء بينهم، وأذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين، يجاهدون في سبيل الله ولا يخافون لومة لائم.

ينكرون ذواقم ليظهر دينهم، ويبذلون أنفسهم وأموالهم ابتغاء وجه ربهم، هم أشد حبًا لله، وأكثر ولاء للمسلمين، وأخلص عملاً للدين، لا يتباهون بمكانة، ولا يطمعون في منصب، ولا يسعون إلى حظ من الدنيا غير نصرة الله والدين.

ومن أجل ذلك فنحن لا نترجم لهم، وإنما نترجم للدين الذي هم لبناته وأســـطره وجمله ومفرداته.

نكتب عن السياق العام للإسلام، ثم نوضح دور كل واحد منهم في هذا الســـياق مربوطًا به رباط اللحمة بالسدي، ورباط النفس بالروح، ورباط القلب بالوجدان، ورباط العقل بالفكرة والخاطرة.

وثم ربط آخر لا طاقة لنا على إغفاله لأنه لا بديل لنا عنه، وهو يستتبع الأول، وهو الربط بين ما عاشوا به وما نحن عليه، فليست قراءة التاريخ للاستمتاع والتسلية، وإنما لالتمـــاس الدروس والاستفادة من العبر، والداعية المسلم - وكل مسلم داعية بعلمـــه أو بعملـــه - مأمور باستقراء التاريخ واستنطاق أحداثه بما يعتدل به الصف وتنتظم به المسيرة، ويستقيم النهج. وإذا كان القرآن الكريم هو آيات الله التي تُتلى وتُستخلص منها القوانين والشرائع، فإن النبي ﷺ هو آية الله التي تمثلت آياته وبينت للناس ما يُتلى عليهم من الذكر الحكيـــم، وعبر التاريخ هي آيات الله التي تمثل العمل بالمنهج وما يترتب عليه من صـــلاح وفـــلاح، والبعد عن المنهج وما يترتب عليه من ضلال وخسران.

في هذا الإطار يُفهم الأمر الإلهي بالسير في الأرض لتقصي أنباء السابقين، من التزام بالمنهج ففاز وأفلح، ومن انحرف عنه فحقت عليه كلمـــة العـــذاب، ويُفـــهم لـــوم الله للمشركين بأنهم لم يسيروا فينظروا، أو أنهم ساروا فلم يتفكروا، ﴿وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْـــهِمْ مُصْبِحِينَ ۝ وَبِاللَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ (الصافات ١٣٧-١٣٨).

والقول بأن التاريخ يعيد نفسه قول صحيح لأنه يتفق مع سنن الله في خلقه، فمتى وجدت شرائط السنة تحققت، ومن السنن الربانية إن العلاقة بين الإيمان والكفر هي علاقة دفع وصراع، وأن الكفار لن يكفوا عن المسلمين إلا إذا كانت الدائرة للمسلمين، كف الخوف والتربص، لا كف الصلح والسلام.

وقد حفلت الآيات القرآنية بالحديث عنهم فقال: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً، وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الأَنْهَارُ، وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجَ مِنْهُ الْمَاءُ، وإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللهِ وَمَا اللهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ (البقرة ٧٤)، ﴿وَقَالُواْ قُلُوبُنَا غُلْف، بَل لَّعَنَهُمُ اللهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلاً مَّا يُؤْمِنُونَ﴾ (البقرة ٨٨)، ﴿أَوَ كُلَّمَا عَاهَدُواْ عَهْدًا نَّبَذَهُ فَرِيقٌ مِّنْهُم، بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ﴾ (البقرة ١٠٠)، ﴿مَّا يَوَدُّ الَّذِين كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلاَ الْمُشْرِكِينَ أن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْ، وَاللهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ، وَاللهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ (البقرة ١٠٥)، ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّن بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أنفُسِهِم مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ﴾ (البقرة ١٠٩)، ﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُواْ كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لا يَسْمَعُ إلا دُعَاءً وَنِدَاءً، صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لا يَعْقِلُونَ﴾ (البقرة ١٧١)، ﴿سَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ كَمْ آتَيْنَاهُم مِّنْ آيَةٍ بَيِّنَةٍ، وَمَنْ يُبَدِّلْ نِعْمَةَ اللهِ مِن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُ فَإِنَّ اللهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ (البقرة ٢١١)، ﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِن بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ، ذَلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ ۞ كَانُواْ لا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ، لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ۞ تَرَى كَثِيرًا مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا، لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُم أَن سَخِطَ اللهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُون﴾ (المائدة ٧٨-٨٠)، ﴿بَرَاءَةٌ مِّنَ اللهِ وَرَسُولِهِ إلى الَّذِينَ عَاهَدتُّم مِّنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ (التوبة ١).

إن من واجبات دعاة المسلمين ــ والمسلمون كلهم دعاة ــ التذكير بهذه السنن الربانية، وما يكتنفها من توجيهات تفضح سرائر أعداء المسلمين، وتبصر أهل الإيمان بعدم الخضوع والولاء والمودة لأعدائهم، وبأن سبيلهم إلى العزة هو الاعتصام بحبل الله المتين، والاستمساك بالعروة الوثقى لا انفصام لها.

من واجبات دعاة المسلمين كذلك ــ والمسلمون كلهم دعاة ــ قراءة التاريخ وعرضه واستخراج السنن الربانية منه، والإشارة إلى مواقعها في أحداثه لعل أهل الإيمان يستيقظون من سباتهم، ويعرفون موقعهم على الأرض وفي الكون، الذي هو موقف القيادة والإقدام والأسوة، لأن القيادة إذا كانت للإسلام نعم في ظله غير المسلمين، وكم نعم غير المسلمين في ظل المسلمين ما كانت لهم القيادة، وكم عانى المسلمون في ظل أعداء الإسلام إذا تمكنوا منهم، فالمسلمون تملأ الرحمة قلوبهم، ويرون أن في كل ذات كبد رطبة أجرًا، وغير المسلمين تملأ قلوبهم الأحقاد والضغائن والقسوة، فهي كالحجارة أو أشد قسوة.

إن الله عز وجل أرسل محمدًا ﷺ رحمة للعالمين، فأشربت قلوب أتباعه الرحمة، فأن تكون الغلبة لهم فذلك في صالح سعادة البشرية وأمنها، وعلى الداعية المسلم أن يلتمس الأدلة على ذلك من أقوال التاريخ، وذلك هو الربط بين الماضي والحاضر والمستقبل، وهو ما نفعله ونحن نتحدث عن أهل بدر ﷺ.

وقد فطن إلى ذلك قرّاء الجزء الأول، واحتفلوا به احتفالاً نشكر الله عليه، ففضلاً عما شعرت به من الفرح أن ذلك الجهد قد وجد صدى يوازيه، داخلني كبير الأمل بأن هذه الأمة مركوز فيها الخير إلى يوم القيامة، وأن ما يبدو على سطح الأمة من سفاهة وفجاجة إنما هو الرغوة التي يطمئن تحتها اللبن الفصيح.

ولقد طالبني هؤلاء القراء بالتريث في سرد أحداث التاريخ بمثل هذه القراءة التي تستنطق وتحلل وتعلل، فإن كتابة السيرة في إطار الصورة تكون أشد تأثيرًا في النفس، وإفهامًا للأحداث إذا أتيح لها بعض التفصيل، وقد أخذت برأيهم وشكرت لهم، ومن أجل ذلك فسوف تجد — بإذن الله — في هذا الجزء وما ييسر الله بعده من أجزاء قليلاً من الأشخاص، وكثيرًا من الأحداث، بحيث تعرف دقائق السيرة وأنت تتلمس ملامح الصورة التي نترجم لها.

وطالبني بعض من هم في مقام الأستاذية بوضع فهارس للقضايا التي يناقشها الكتاب، لما لها من أهمية قصوى للباحثين، ومعاجم للأشخاص والأحداث، وقد وعدتهم بأن أقوم من ذلك بقدر استطاعتي لضيق الوقت وكثرة الأعمال. غير أني أنوه إلى ملاحظاتهم حتى تكون ذكرى لي إن أتيح لي من الوقت ما يمكنني من الوفاء بها، أو دعوة لمن وفقهم الله لسلوك طريق العلم إن وجد في الكتاب ما يشجعه على القيام بهذا العبء.

طالبني فريق من القراء كذلك بإثبات المراجع، وقد فكرت في ذلك طويلا في الجزء الأول ثم عدلت عنه فخرج دون إثبات المراجع، لأن ما رجعت إليه أكثر مما استطيع إثباته، بالإضافة إلى الرصيد الذاتي بفعل التراكم الكمي والنوعي.

غير أنني نزولا على مطالب الأصدقاء والأساتذة قد عدلت عن هذا العدول، وسوف تجد ثبتا بالمراجع في هذا الجزء، وليست هي كل ما رجعت إليه، لكن ما بين يدي منها.

اللــــهم علمنا ما جهلنا، وانفعنا بما علمتنا

عبدالفتاح سمك



عبدالله بن حذافة

قرشي من بني سهم، أسلم قديمًا مع أخوة له، هم قيس بن حذافة، وأبوالأخنس بن حذافة، وخنيس بن حذافة الذي كان زوج أم المؤمنين حفصة بنت الفاروق، ثم تزوجـــها النبي ﷺ بعد أن رزق زوجها الشهادة.

نال عبدالله من الأذى ما نال غيره من المسلمين، وقد كان بنو سهم من أكثر بطون قريش بطشًا بمن يسلم منهم، مما ألجأه إلى الهجرة الثانية للحبشة مع أخيه قيس.

اكتسب عبدالله من قسوة قومه عليه جلدًا وصبرًا، كما اكتسب إيمانًا عميقًا يجعل دينه أحب إليه من نفسه، وآخرته أبقى له من دنياه، وعزة المسلمين آثر لديه من أي متاع في الدنيا وإن كثُر، وأي غواية فيها ولو عظمت، ولكن هذه القوة النفسية والوجدانيـــة لم تقض على دعابة نشأ عليها، وبقيت معه يروح بها عن نفسه، وينشر بها البشاشة فيمـــن حوله لتضاف إلى اليقين الإيماني العميق في شحذ العزيمة على تحمل هم الدعوة، والنهوض بأعبائها ، والاستهانة بالعراقيل التي توضع في طريق نشر نور الله وإعلاء كلمته.

يقول أبو سعيد الخدري: عبدالله بن حذافة من أهل بدر، وكانت فيه دعابة.

وقد وصفه النبي ﷺ بأنه كانت فيه دعابة تدخل الأنس على أصحابـــه، وتؤلـــف قلوبهم: ألم يكن يداعب الصحابي الصغير الذي كان يلعب بطائر له فيسأله: ياأباعمير، ما بال النغير؟ ألم يبشر المرأة بأن الجنة لا يدخلها عجوز؟ وأخبر الرجل بأنه سيحمله على ابن البعير، حيث أن كل بعير هو ابن بعير؟ وداعب صاحبه البدوي زاهر بن حرام فجاءه مـــن خلفه في السوق وأحاطه بذراعيه وقال: من يشتري العبد؟ فقال له زاهر: إذن يارسول الله تجدني كاسدًا، فقال له: ولكنك عند الله عظيم.

هذا رسول الله ﷺ الذي يداعب أصحابه، وكان متواصل الأحزان،نظـــره عـــبر، وصمته فكر، ونطقه ذكر.

كذلك وصف أمير المؤمنين علي بالدعابة، وهو الذي كان يقوم الليل وقد غـــارت نجومه يتبرأ من الدنيا، ويقول لها، يادنيا غري غيري، فقد باينتك ثلاثًا لا رجعة فيها.

وقد داعب عبدالله بن حذافة رسول الله ﷺ حتى حل له حزام راحلتــه في بعــض أسفاره حتى كاد يقع، يقول ابن وهب، فقلت لليث راوي الحديث، ليضحكــــه؟ قــال الليث: نعم، كانت فيه دعابة. وبعثه النبي ﷺ في سرية، وكانت ليلة شديدة البرد فأمرهم أن يوقدوا نارا يستدفئون بها، فلما أوقدوا النار تدافعوا عليها، واقتربوا منها كثيرًا، فقــال لهم: ألست أميركم، قالوا: بلى، قال فإني آمركم أن تقحموا أنفسكم في النــار، فــأبوا، وتراجعوا بعيدًا عنها، فقال لهم: ألم يأمركم رسول الله ﷺ بطاعتي، وقال: مــن أطــاع أميري فقد أطاعني؟ قالوا: بلى، قال: فإني آمركم بأن تلقوا بأنفسكم إلى النار، قالوا: مــا آمنا بالله واتبعنا رسوله إلا لننجو من النار، فسكت عنهم، وقد أبعدهم عن النــار مخافــة الأخطار المحدقة بهم من شدة اقترابهم منها، مع ما يكون في جو الصحراء من ريح تحمل الشرر فتصيب به من يشاء الله، وعندما رجعوا إلى المدينة شكــوه إلى رســول الله ﷺ، فصَوَّب رسول الله ﷺ فعلهم، وقال: لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق، قال تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ﴾ (النساء ٢٩)، ثم عقب فقال: والله لو دخلوها ما خرجوا منها.

وفي القصة دروس ينتفع بها الحاكم والرعية، فهذا أحد قواد المسلمين يخرج برجاله في مهمة عسكرية بأمر قائده الأعلى.

يرى القائد برودة الجو ويخشى على جنوده فيأمرهم أن يجمعوا حطبا ويشعلوا نارا يستدفئون بها.

الجنود يمتثلون فيجمعون الحطب ويشعلون النار، وإذ سمح لهم بأن يستدفئوا بها فإنهم تجاهلوا انضباط الجندية فشرعوا يتدافعون على النار لينالوا من دفئها.

مرة أخرى يخشى القائد على جنوده، ولكنه لم يشأ أن يستخدم صرامة القائد في تنبيههم، وإنما استجاب لفطرته، وأسعفته دعابته، فأصدر أمرا يستحيل قبوله بــأن يلقــوا بأنفسهم في النار.

الجنود يفاجأون بالأمر فيتباعدون عن النار حتى لا يرغمهم القائد والحذر من سمات الجندي ليعطي نفسه قدرا من المراوغة، ثم يعلنون رفضهم لقراره.

القائد يذكرهم بأمر القائد الأعلى بأن من أطاع أميره فقد أطاعه. الجنود يــبررون رفضهم للأمر بأنهم لم يؤمنوا بالله ورسوله إلا لكي يزحزحوا عن النار، فكيف يأمرهم هو بأن يلقوا بأيديهم إلى التهلكة ويقتلوا أنفسهم.

يسكت القائد بعد أن اطمأن إلى زوال مظنة الخطر عن جنوده، ويقبل عدم طاعتهم له، فهو لم يأمرهم لكي يطيعوا، وإنما لكي يبعدهم عن خطر غلب على ظنه أنه محيق بهم، واطمأن على سلامة تفكيرهم وحسن فهمهم لما يطيعون، وما يعصون من الأوامر.

الجنود لا يخرجون عن طاعة قائدهم في غير هذا الأمر، فنجحوا في مهمتهم، وأنجزوا ما عهد إليهم.

الجنود يشكون قائدهم بعد العود إلى القائد الأعلى، وهو في الوقت نفسه مصدر التشريع، وهو النبي ﷺ.

القائد الأعلى لا يوبخ مرءوسه، ولا يعيب عليه لأنه يعرف دعابته، ويرى أنها فعلت مع جنوده مالا يفعله التحذير من النار في مواجهة هذا البرد القارس. لكنه ينتهز الفرصة للتأكيد على حدود طاعة الرعية لولي الأمر، وضابطها قاعدتان عظيمتان:

- ولا تقتلوا أنفسكم.
- لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق.

ثم عقب ببيان أن الرعية لو أطاعت ولي الأمر في المعصية، أو أقرته عليها، فإن مآلها مثل مآله في النار. أما إنهم لو دخلوها ما خرجوا منها.

ويزعم البعض أن طاعة ولي الأمر واجبة، ولا يجوز الخروج عليه وإن ظلم وضرب الأبشار، وأكل الحقوق.

ونقول: نعم إلى هذا الحد مع وجوب تقديم النصح له بكل وسيلة ممكنة، ولكن إذا تخطى ذلك إلى تعدي حدود الله، والخروج عن منهجه، واتخاذ غير المؤمنين أولياء، فإن الواجب معصيته لا طاعته، لأنه لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق.

لكن دعابة عبدالله لم تكن لتحجب صفاته الأخرى، التي فطر على بعضها، واكتسب بعضها الآخر مما مر به من تجارب، وألهمه الله عز وجل بعضها بطول صحبته له، وقربه منه، وتحببه إليه بالصالحات، واستعانته به، ورضاه بحكمه، وثقته في نبيه ﷺ.

بعد هجرته إلى المدينة، وكان تكيفه مع الحياة الجديدة لا يخلو من مشقة، وكان في المدينة منافقون، وكان في المسلمين من يقل إيمانهم حينا ويزداد حينا آخر، وقد يختلف عبدالله مع بعضهم، فيغمزونه في نسبه، ويزعمون أن أباه قد يكون رجلا آخر لاختلاف شكله عن إخوته، وكان يترعج لذلك ولكن يصبر، ويشكو بثه وحزنه إلى الله.

ذات يوم أثار المنافقون شيئا من الاضطراب بين صفوف المؤمنين، وهم المروجون للفتن والمثيرون لها، فكأنما أحس النبي ﷺ أن تأثيرهم قد يصل إلى زلزلة عقيدة الناس، فخرج من بيته غاضبا وصعد المنبر ليثبت لهم أنه عبدالله ورسوله، وأن ربه علمه ما لم يكن يعلم، فقال: سلوني ماشئتم، فوالله ما سألتموني عن شيء في مقامي هذا إلى يوم القيامة إلا نبأتكم به، فرأى عبدالله أن هذه فرصته ليريح الخفاء، وتنجلي الشكوك حول نسبه، ويزول الريب من قلبه، فجاء في وسط الناس، ونادي! يارسول الله، من أبي؟ فقال له:

أبوك حذافة بن قيس.

برد قلب عبدالله بن حذافة لما سمع، وعندما بلغ الخبر أمه قالت له: ما سمعت بابن أعق منك، أأمنت أن تكن أمك قارفت ما تقارف نساء أهل الجاهلية فتفضحها على أعين الناس، فقال: والله لو ألحقني بعبد أسود للحقت به.

إذا كانت إجابة النبي ﷺ قطعت ألسنة المشككين والمسترييين، وأسعدت أمه إذ أكدت طهارتها، فإن رد عبدالله على أمه أبرز عمق إيمانه بصدق النبي ﷺ، وأنه معتبر عنده وأحب من أبيه وأمه ونفسه التي بين جنبيه، فلو ألحقه بعبد أسود للحق به.

في سنة سبع من الهجرة، بعد صلح الحديبية، أراد النبي ﷺ أن يصدع بدعوته إلى الناس كافة بعد أن صدع بها في جزيرة العرب، وهو الذي أرسل للناس كافة بشيرا ونذيرا، فاختار ستة من أصحابه ليرسلهم برسائله إلى ملوك الأرض وحكامه في ذلك الزمان، فكان منهم عبدالله بن حذافة، وأرسله إلى كسرى ملك الفرس، فانطلق عبدالله بكتاب النبي ﷺ، وطلب الإذن بالدخول لتسليم الرسالة، فاتخذ كسرى أهبته وجلس على نمارقه بين حاشيته وملائه ليدخل الرهبة في قلب زائره، وهذا هو شأن الجبابرة. يشعر الجبار بضآلته وخوائه فيحيط نفسه بحاشية من فقاقيع الهواء مثله يكثر بهم، ويداري ضآلته فيهم، ويستكثر من المال يمتص به دماء العباد ليعز به، ويعلو فوق البشر، وما كانت الكثرة لتهب منعة، ولا كان المال ليكسب عزا إلا في نسق قيم الجاهلية. هكذا كان فرعون في ملكه، وكان فخره بأن له ملك مصر وهذه الأنهار تجري من تحته، وكانت عزة قارون الذي كثرت كنوزه، و لم يكن يخرج في قومه إلا في زينته حتى يقول الذين يريدون الحياة الدنيا ياليت لنا مثل ما أوتي قارون، ويأتي رد أصحاب المنهج ويلكم ثواب الله خير، ولكن الجبار بسوء عطنه، وضيق أفقه، وفراغ عقله، غافل عن هذه الغاية فلا يسمو إليها، ويعاند الفطرة بالقهر على من يحاول أن يذكره بها، فشأنهم شأن المرأة التي روى النبي ﷺ قصتها، فقد أخرج الإمام أحمد في مسنده عن أبي سعيد الخدري عن النبي ﷺ قال: كان في بني إسرائيل امرأة قصيرة لا تعرف، وامرأتان طويلتان تعرفان، فصنعت القصيرة رجلين من خشب، فكانت تسير بين امرأتين قصيرتين، واتخذت خاتما من ذهب، وحشت تحت فصه أطيب الطيب: المسك، فكانت إذا مرت بالمجلس حركته فنفخ ريحه (وفي رواية): وجعلت له غلقا، فإذا مرت بالملإ أو بالمجلس قالت به ففتحته، ففاح ريحه.

دخل أبوحذافة ــ وهذا هو لقب عبدالله ــ على كسرى فلم تخدعه هذه الأبهة، و لم يرهبه هذا الزيف، ورفض أن يسلم الرسالة إلا لكسرى نفسه، وتلك جرأة لم يعهدها كسرى في العرب إذ شأنهم الذلة أمام الفرس يرضون بها ويسعون إليها من أجل كسرات من الخبز أو قطرات من الخمر، وأمر كسرى ترجمانه أن يقرأ له الرسالة وفيها: (بسم الله

الرحمن الرحيم، من محمد رسول الله إلى كسرى عظيم فارس، سلام على من اتبع الهدى وآمن بالله ورسوله، وشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمدا عبده ورسوله، وإني أدعوك بدعاء الله، وإني رسول الله إلى الناس كافة لأنذر من كان حيا ويحق القول على الكافرين، فأسلم تسلم، وإن توليت فإن إثم المجوس عليك).

أخذت عزة الإثم كسرى فمزق الرسالة، وكاد يقتل عبدالله، وقال: يكتب بهذا إلى وهو عبدي.

ولما بلغ النبي ﷺ أن كسرى مزق رسالته دعا عليه فقال: اللهم مزق ملكه ومزق الله ملكه.

وبعث كسرى إلى باذان عامله على اليمن وهي أقرب أملاك كسرى من المدينة أن ابعث إلى هذا الرجل الذي بالحجاز رجلين من عندك جلدين فليأتياني به، فبعث باذان رجلا اسمه بابويه وكان كاتبا حاسبا، ورجلا آخر اسمه خرخسرة، وأمرهما أن يأتياه بخبر النبي ﷺ أو يأتياه به، وسمعت قريش بمسير الرجلين إلى المدينة ففرحوا فرحا شديدا، وقالوا: أبشروا، فقد نصب له كسرى ملك الملوك، فقد كفيتم الرجل.

قدم الرجلان إلى المدينة وقد حلقا لحاهما، وأعفيا شواربهما، فكره النظر إليهما، وقال: ويلكما من أمركما بهذا، قالا: ربنا — يعنيان كسرى — فقال: لكن ربي أمرني أن أعفي لحيتي وأقص شاربي، فأعلماه بما قدما له، وقالا: إن فعلت كتب باذان فيك إلى كسرى، وإن أبيت فهو يهلكك ويهلك قومك، فقال لهما رسول الله ﷺ: إرجعا حتى تأتياني غدا، وأتى رسول الله ﷺ الخبر من السماء أن الله قد سلط على كسرى ابنه شيرويه فقتله في ليلة كذا، فدعاهما النبي ﷺ وأخبرهما بقتل كسرى، وقال لهما: قولا له: إن ديني وسلطاني سيبلغ ملك كسرى وينتهي منتهى الخف والحافر، وأمرهما أن يقولا لباذان: أسلم فإن أسلم أقره على ما تحت يده، وأملكه على قومه، وأعطى خرخسرة منطقة ذهب وفضة أهداها له بعض الملوك، وخرجا فقدما على باذان، وأخبراه الخبر، فقال: والله ما هذا كلام ملك، وإني لأراه نبيا، ولننظرن فإن كان ما قال حقا فإنه لنبي مرسل، وإن لم يكن فنرى فيه رأينا، فلم يلبث باذان أن قدم عليه كتاب شيرويه يخبره بقتل كسرى، وأنه قتله غضبا للفرس لما استحل من قتل أشرافهم، ويأمره بأخذ الطاعة له باليمن.

فلما قرأ باذان كتاب شيرويه أسلم وأسلم معه أبناء من فارس، وكانت حمير تسمي خرخسرة صاحب المعجزة، والمعجزة بلغة حمير تعني: المنطقة.

وكما كان لأبي حذافة بلاء مع الفرس، فإن الروم لم يعدموا بلاءه، ولم يعدم هو عزة المسلم أمامهم، ولم نعدم نحن أسوة حسنة نلتمسها أو نبصر بقلوبنا بهاءها ووضاءتها،

بل إنه بلاء لا تخطئه الأبصار، ولا تخفى عظمته على البصائر.

في سنة تسع عشرة من الهجرة، وكانت المواجهة في ذروتها بين المسلمين، وبين جبابرة العالم في الفرس والروم، وبينما كانت بنود الحق تعلو على مدن الروم مدينة في إثر أخرى، واتت الفرصة لقراصنة الروم فأسروا عبدالله بن حذافة في سبعين مجاهدا مسلما.

راقب الروم أسراهم فوجدوهم يعظمون عبدالله ويجلونه، ويقدمونه، ووجدوه حريصا على إخوانه يحيطهم برعايته، ويتكلم باسمهم، ويطلب لهم، ويحامي عنهم، وحدثوا بذلك كبيرهم فطمع في أن يفيد منه لعله يتقوى به على هزائمه المتوالية طبقا لمنهجهم في فهم الحياة، وهم لا يعلمون إلا ظاهرا منها، وهم عن الآخرة هم غافلون.

عرض على عبدالله أن يرتد نصرانيا وسوف يعطيه من المال ما يطلبه، وعرض عليه أن يشركه في ملكه وأن يزوجه ابنته الوحيدة، فأجابه عبدالله بأن ملكه يلفظ أنفاسه الأخيرة، وأن كلمة الله ستكون العليا في بلاده، وأن الملك والمال والنساء أعراض زائلة شأنها شأن الجاه والحسب، وإذا نفخ في الصور فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون.

اشتد إعجاب كبير الروم بابن حذافة، واشتد غضبه عليه، واشتدت رغبته في اصطناعه. وإذ لم يغن إغراؤه بفتنة المال والنساء فليكن القهر والحرمان، فأمر بعزله، وحرمانه من الماء والطعام حتى لم يبق من أنفاسه إلا حشاشة قربوا له خمرا ولحم خنزير، فقال لهم: ألا فلتعلموا أنه أحل لي في هذا الاضطرار، ولكنني لن أشمتكم في مسلم، وللموت أحب إلي مما جئتم به، فأمر كبيرهم بإطعامه ما يحل له وتقديم الماء له، ثم أمر بمرجل يوقد تحته النار حتى فار الماء، ثم جيء باثنين من الأسرى المسلمين، فرفع كل منهما على حدة ثم ألقى في الماء المغلي فكانت تتميز عظامه عن لحمه من شدة الحرارة، ثم قال له: هذا مصيرك إن لم تقبل ما نعرضه عليك، فشمخ بعزة المسلم، وكره أن يعود إلى الكفر بعد إذ نجاه الله منه كما يكره أن يقذف به في النار.

أمر كبير الروم بإلقاء عبدالله في مرجل الماء الفائر، ولما رفع بكى فقال: أنزلوه، ثم قال له: الآن بكيت، وإذ خفت فسوف تقبل أن تكون لنا، جفف عبدالله دمعه وقال: ما بكيت خوفا منكم فإن خوف الله لم يترك في قلب المسلم مكانا للخوف من أحد غيره، وما شغلني أمر الحر في ناركم فنار جهنم أشد حرا لو كانوا يفقهون، ولئن صبرت على ناركم فإنني آمل أن ينجيني الله بها من نار جهنم، وإنما كان بكائي لأنني نفس واحدة تجاهدكم في الله، ولكم أتمنى أن تكون لي أنفس بعدد خلق الله فأجاهدكم بها.

ألجمت الدهشة لسان شيطان الروم، وراعه أن يوجد من الناس من يفتدي عقيدته بنفسه، ومن يثبت عليها، ويستلذ الجوع والعطش من أجلها، ويلتذ الموت حتى ليتمنى أن تكون له أنفس بعدد الخلائق تقاسي ما قاسى، وما قاساه ليس باليسير.

لقد وجد نفسه ضئيلا وهو المدجج بالسلاح، الممنوع بالأعوان، ووجـد حجـم عبدالله أكبر من حجمه، ونفسه أعز من نفسه، والحصن الذي اكتنفه فيه دينه أكثر منعـة من قلاعه وحصونه وأعوانه، لقد كان عبدالله الذي يتعهد برعايته من يخلص له العبـادة، فيسيغ له الغصص مهما زادت مرارتها، ويجعل الحزن له سهلا مهما اشتـدت وعورتـه، ويجعل النار عليه بردا وسلاما، فإذا هو راغب في اقتحام الصعاب في ذات الله، سـابق إلى تجرع كؤوس الموت لكي يلقى الأحبة محمدا وصحبه، وله أسوة في أصحاب الأخـدود، وقد انتاب إحداهن خاطر وهن من أجل رضيعها، فأنطقه الله الذي أنطق كل شيء لكي يحفظ لها شهادتها. فإذا كانت رحمتها به كادت تهوي بها إلى الضلال، فإن بره بها رفعـها إلى أفق الشهداء البررة، وقال: لا تضعفي ياأمي فأنت على الحق، فقذفت بـه، ثم ألقـت بنفسها من بعده.

إن العظمة لا تأتي صدفة ولا عشوائية، وإنما هي اصطفاء من الله عز وجل خلق لها خلقا، و لم تغفل عينه عن رعايتهم، و لم يتخلف دعمه لهم، ولا تأييدهم بنصره، كمـا أن الإعجاب بالعظمة جبلة في النفس الإنسانية، لا تقدر على كتمانها ولو كان العظيم خصمه اللدود، الذي يتمنى هلاكه، ولكنه يشخص إلى آفاقه منتشيا بعظمته، وإن عظـم حقـده عليه.

لم يستطع كبير الروم أن يداري إعجابه بهذا الشموخ، ولكنه ـــ وإن لم يكن قادرا علـى مطاولته ـــ يريد أن يطامن منه لكي يخادع نفسه، ويخدع من معه بأنه نال منـه، فقـال لعبدالله إنه يمكنه أن يطلقه إن هو قبل رأسه، فاتجهت مشاعر عبدالله إلى أصحابه، وقال: أقبل رأسك إذا أطلقت معي أصحابي، فلم يتردد في الموافقة، وقبل عبدالله رأسـه وأخـذ أصحابه وانصرف.

هل أخطأ عبدالله بن حذافة إذ قبل رأس كافر لينقذ عشرات النفوس المؤمنة يستطيعون أن ينصروا الله في مواطن كثيرة؟ ألا يمكن أن تكون هذه معركة قد الهزم فيها، قـد تعقبـها مواقع يحقق فيها النصر؟

في المدينة المنورة، وأمام أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، وعلى مسمع ومشهد مـن أهل الحل والعقد من المسلمين راح ابن حذافة يقص حكايته، ويعتذر عمـا بـدر منـه، والخليفة ينصت باهتمام، ويتابع بشغف، ولكن لا يبدو عليه رضا أو غضب مما يسـمع، ودرته في يده ينكث بها في الأرض، فإذا ما انتهى عبدالله من روايته نحى عمر درته الـتي طالما خفق بها على الرؤوس حتى يظل الناس على المحجة البيضاء، لا يحيـدون عنـها إلى السبل التي تفرق عن سبيل الله، ووقف عمر على مرأى من الحاضرين، واقترب من عبدالله ثم انحنى على رأس عبدالله فقبلها ثم قال: حق على كل من سمع هذه القصة أن يقبـل رأس

عبدالله.

شعر عبدالله بالعزة، وأثلج الرضا قلبه، ولم يزل ينصر الله حتى رفع إليه في خلافة عثمان، وشرف تراب مصر باحتواء جثمانه الطهور.



أوس بن الصامت

أنصاري من بني عوف بن الخزرج.

من السابقين إلى الإسلام ومن المجاهدين في الله فصدق فيهم قوله ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ (العنكبوت ٦٩).

شهد بدرًا وأحدًا والخندق والمشاهد كلها.

والمستقرئ لكتّاب السير أنهم يخصون غزوات باسمها مثل بدر وأحد والخندق وبيعة الرضوان في الحديبية وربما حنين، ثم يعممون فيقولون والمشاهد كلها.

والمتفحص في هذه الغزوات المخصوصة باسمها يرى أن الثبات فيها دليل الصدق في الإسلام، والثبات على الرشد لما فيها من تمحيص للإيمان، وصبر في المواجهة، وصدق في لقاء الأعداء، ومن ثم فهي المشاهد التي أفرد الله لها آيات يتعبد بها في كتابه العزيز.

فبدر هو يوم الفرقان، يوم التقى الجمعان.

وأحد هي يوم مسّهم القرح وأراد المولى أن يتخذ فيها من المسلمين شهداء.

واختص الله غزوة الخندق، وهي غزوة الزلزلة بسورة الأحزاب، وذكر فيها أن المؤمنين زلزلوا زلزالاً شديدًا، وأن القلوب بلغت الحناجر، ولكن الثقة في نصر الله لم تهتز قيد أنملة، وإنما قالوا ﴿هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا﴾ (الأحزاب ٢٢).

أما في الحديبية فقد رضي الله عن الذين بايعوا نبيه تحت الشجرة، وعلم ما في قلوبهم، وأنزل السكينة عليهم، وأثابهم فتحا قريبا، ومغانم كثيرة يأخذونها، وبشرهم أنهم ببيعتهم أياه فإنما يبايعون الله، يد الله فوق أيديهم.

وفي غزوة حنين حين أعجب الناس كثرتهم فلم تغن عنهم شيئا، وضاقت عليهم الأرض بما رحبت ثم ولوا مدبرين، ولكن السكينة أنزلها الله على رسوله وعلى المؤمنين الذين ثبتوا معه فدارت الدائرة على المشركين، وجعل الله كلمته العليا، وكلمة الذين كفروا السفلى.

فالذين ثبتوا في هذه المشاهد هم الذين يمتلكون الفرقان الذي يحقق لهم الثبات على الرشد، وقد علم الله إيمانهم ورضي عنه وبايعهم فوفوا ببيعهم فكانت لهم البشرى بـــالفوز العظيم، وقد تحقق لأوس بن الصامت كل هذه البشريات، وحصل على كل هذا التكريم.

يبذل أوس كل هذا الجهد على كبر في السن، وضعف في البصر، وابتلاءات بالمرض تعاوده بين الحين والحين، فتسبب له الضجر فتضيق أخلاقه على زوجه وابنة عمه خولـــة بنت ثعلبة، لكن خولة امرأة مسلمة مؤمنة، تعرف المقدار الجليل الذي رفع الله عز وجـــل زوجها إليه، ثم إنها رحمه وأم أبنائه، فهي تتحمل بالصبر عليه إذا ضاق خلقه، لأنها تنال من عطفه وبره إذا اعتدلت صحته.

لكن صبر خولة يصل يوما إلى وقفة لابد فيها من الرجوع إلى رحمة النبي ﷺ.

دخل أوس إلى بيته وهو في بعض غمراته، ودار جدال بينه وبين خولة فراجعتـــــه، فقال لها: أنت علي كظهر أمي.

منذ دخل الإسلام صدر أوس وهو لم يسمع هذه الكلمة من أحد من المســـــلمين، ولكنها صدرت عنه نفسه.

بلغ الحرج غايته على نفس أوس، وبلغ الهلع غايته عند خولة، فساد صمت ثقيـــل شديد الوطأة لم يجد أوس معه بدا من مغادرة البيت.

جلس أوس في نادي قومه منفردا ولكن الضجة تملأ فكره، والذهول يشغله ويصيبه ويعجزه حتى عن أن يحسن النظر في أمره.

إن الظهار أو المظاهرة تقليد جاهلي تعارفوا عليه وتعارفوا على أن الرجل إذا قـــال ذلك فإنه يحرم زوجته عليه حرمة أبدية أكبر من حرمة الطلاق، إذ أن للطلاق رجعة، أما الظهار فلا رجعة له.

أي ذنب تقترفه ياأوس، أتراك تعود جاهليا وأنت رجل بدر وأحد والمشاهد.

ماذا دهاك حتى تعود القهقرى وينطق لسانك بما لم ينطق به وأنت مغموس في عفن الجاهلية وظلامها، فلما هداك الله إلى الإسلام وجملك بالبطولة، وأفاء عليك بنعمة الرضـــا والرضوان تنتكس على وجهك، وتوشك أن تسوء خاتمتك.

يقر أوس بأنه أخطأ، لكنه مطمئن النفس بأن الله عز وجل لن يغضب عليه بعد أن رضي عنه، ثم إن أمر الجاهلية قد ولى إلى غير رجعة، والظهار من أعرافها الـــتي هدمـــها الإسلام، ثم هو مطمئن كذلك إلى أن زوجته لن تحرم عليه، لأن الله عز وجل أكرم من أن يبتليه بفراقها أو أن يبتليها بفراقه، ففي الأمر حكمة لابد ستنجلي، ولكنها لـــن تكـــون بفراقه زوجته.

مما أكد استشراف أوس لحكمة يتوخاها الله في ملمته هذه أنه منذ ولد في الإسلام لم يقارف أفعال الجاهلية، و لم يستخدم معجم ألفاظها، ثم كأنما ألقيت هذه الكلمة علـــى لسانه إلقاء فقذف بها لعله يتخلص منها، خاصة وهي كلمة لم تتردد على لسان أحد من الذين ولدوا من جديد مثله بعد أن أخرجهم الله من الظلمات إلى النور، ولذلـــك قيـــل [أوس بن الصامت أول من ظاهر في الإسلام].

أراد أوس أن يقنع نفسه بحجته، وأن يبعد عن وساوسه ريبة الجاهليـــة ففكـــر في مخالفته، فانسل من نادي قومه راجعا إلى بيته، وأمسك بزوجته يريدها لنفسه، ولعلـــه لا يقصد من وراء ذلك قضاء شهوة، وإنما ليقنع نفسه بأنه لا يقصد بما قـــال لا لفظـــه ولا معناه، ولكن خولة ذات الحس الإيماني والورع الشديد تمتنع عليه وما كانت تفعل ذلك.

ويحك ياخولة! وأنت المؤمنة التقية، مالك تمتنعين عن زوجك، وأنت تدركين عظم ذلك الجرم؟! أتودين أن تلعنك الملائكة؟ أو تتنكرين لدينك الذي يأبى عليك أن تمتنعي إذا أرادك زوجك؟ بل وتلحين في مدافعته حين واثبك ليحملك على الامتثال له حتى تغلبيه بما تغلب به المرأة الشيخ الضعيف فيلقى على الفراش.

إن خولة تمتنع لنفس السبب الذي كان أوس حريصا من أجله على أن ينالها، وقـــد جهرت بذلك له فقالت: والذي نفس خويلة بيده لا تخلص إلي، وقد قلت ما قلت حـــتى يحكم الله ورسوله فينا بحكمه.

تقول خولة ـــ التي نطقت اسمها مصغرا (خويلة) تحقيرا لشأنها أمام عزة المولى عـــز وجل في موقف تضرع وتذلل ورجاء ـــ ثم خرجت إلى أحدى جاراتي فاستعرت منـــها ثيابها، ثم خرجت حتى جئت رسول الله ﷺ في بيت عائشة، فانتحيت به جانبا وجلست بين يديه وساررته وذكرت له مالقيت منه، وجعلت أشكو إليه ما ألقي من سوء خلقـــه، فجعل رسول الله ﷺ يقول: ياخويلة، ابن عمك شيخ كبير، فاتقي الله فيه.

قالت: فقلت يارسول الله، إنه تزوجني وأنا ذات مال وأهل، فلما أكل مالي وذهب شبابي، ونفضت له بطني، وتفرق أهلي ظاهر مني، فقال لها: ما أمرنا بشيء من أمرك، ما أراك إلا وقد حرمت عليه، فقالت أشكو إلى الله فاقتي وتركي إلى غير أحد، وقد كبر سني ودق عظمي.

أشكو إلى الله شدة وحدتي وما شق على من فراقه، وما نزل بي ومصيبتي.

ثم بكت وصاحت فسمعها من في البيت ـــ وكانوا لم يسمعوا شيئا ممـــا قـــالت وشكت ـــ أشكو إلى الله فقري ووحدتي وصبية صغارا إن ضممتهم إليـــه ضـــاعوا، وإن ضممتهم إلي جاعوا.

قالت عائشة رضي الله عنها، فلقد بكيت وبكى من في البيت رحمة لها ورقة عليها.

ثم قالت لها عائشة وراءك فتنحت، وأخذت عائشة ترجل شعر النبي صلى الله علية وسلم، وخولة ما تبرح ترفع رأسها إلى السماء، فلما فرغت من شق رأسه وأخذت في الشق الآخر تغشاه ما يتغشاه للوحي، فلما سرّي عنة قال: يا عائشة، أين المرأة؟ قالت: هاهي ذي، فتبسم وقال: لها ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ۝ الَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْكُمْ مِنْ نِسَائِهِمْ مَا هُنَّ أُمَّهَاتِهِمْ إِنْ أُمَّهَاتُهُمْ إِلَّا اللَّائِي وَلَدْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنْكَرًا مِنَ الْقَوْلِ وَزُورًا وَإِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ۝ وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَّا ذَلِكُمْ تُوعَظُونَ به والله بما تعملون خبير ۝ فمن لم يجد فصيام شهرين متتابعين من قبل أن يتماسا فمن لم يستطع فإطعام ستين مسكينا ذلك لتؤمنوا بالله ورسوله وتلك حدود الله وللكافرين عذاب أليم﴾ (المجادلة ١-٤).

ثم قال ياخولة، مريه فليحرر رقبة، فقالت: والله ماله خادم غيري، قال: مريه فليصم شهرين متتابعين، فقالت: والله إنه إن لم يأكل في اليوم مرتين يندر بصره، قال: فليطعم ستين مسكينا، فقالت: والله مالنا اليوم أوقية، قال: أنا سأعينه بفرق من تمر، فبكت وقالت: وأنا يارسول الله سأعينه بفرق آخر، قال: أصبت وأحسنت، فاذهبي، فتصدقي به عنه، ثم استوصي بابن عمك خيرا. وفي رواية أنه قال لها: اذهبي فائتني به، وكلمه في الكفارة حتى قال له: أطعم ستين مسكينا، فقال أوس: على أفقر مني؟ فقال له: أطعمه أهلك.

عند ذلك تبدى ما كان من الحكمة خافيا، وصدق حدس أوس، إذ إن الله عز وجل وقد تعهد له بمتاع الآخرة كيف يحرمه من خير متاع الدنيا وهو هذه المرأة المؤمنة.

لقد أكل مالها، وأذهب شبابها حتى إنها استعارت أثوابا من جارتها يوم جادلت في زوجها وشكت إلى الله، وما أثقل عليها حين توهم الفراق إلا وجدها عليه وشفقتها به، فمن يأخذ بيده وهو ضعيف البصر، ومن يحتمل ضيق خلقه إذا ضاق، ومن يخدمه غيرها، (ليس له خادم غيري) إنها لتعلن بأوضح بيان أن خدمتها له شرف لا تحب أن ينتزع منها.

لم تلتفت خولة إلى أنه شيخ كبير قد يثقل عليها القيام بأمره، وأنه فقير لا يمتلك أوقية، ولم يحضر لها ثوبا تقضي فيه حوائجها خارج البيت، ولم تطالب بمالها الذي أكله، فتلك شهوات بنات الدنيا، وهي من بنات الآخرة الذين يرون الحياة مكابدة ﴿لقد خلقنا الإنسان في كبد﴾ (البلد٤)، وترى الإكرام والتنعم في الدنيا يتساويان مع الشدة والعسر فيها في كونهما ابتلاء من خالق الأرض والسماء، وأنه بحكمته وعدله وموازينه القسط يضع كل إنسان في الموضع الذي ارتضاه لنفسه بالصورة التي استقبل بها بلاء الله إن كان بالصبر

على الضراء، أو الشكر على السراء.

ولعل من المفيد هنا أن نشير إلى ما اختص الله عز وجل به أهل بدر من الكرامة حيث جعلهم محلا لتشريعات الرحمة والتيسير، فلا عجب أن ارتبط تشريع اللعان باسم رجل بدر هلال بن أمية بما فيه من رفع الحرج عن الأزواج، وغلق لكثير من أبواب الشر التي كان يمكن أن تنفتح حين يكتشف الزوج أو يرى بعينه خيانة زوجته، ويعالجه بما يوسوس إليه الشيطان به أو يدفعه إليه هوى النفس. وارتبط تشريع حد القذف بمسطح بن أثاثة، وقد روى بلسانه حديث الإفك وهو يحسبه هينا وهو عند الله عظيم.

وارتبط تشريع الظهار بأوس بن الصامت ليرفع حرجا آخر عن الزوج حين يتملكه الغضب فيلقي الشيطان على لسانه مالا يريده الزوج بقصد هدم بيت مسلم، وتشريد أسرة آمنة.

وهناك كثير غيرهم من أهل بدر، ارتبطت بهم تشريعات تحمل الرحمة ورفع الحرج عن المسلمين كأنما يربط الله عز وجل مظاهر رحمته بأسباب رحمته، ولا شك أن وجود الصالحين بين الناس من دواعي رحمة الله عز وجل بعباده **﴿وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون﴾** (الأنفال ٣٣).

مر عمر ﷺ بخولة بنت ثعلبة امرأة أوس في أيام خلافته، فقالت له: قف ياعمر، فوقف لها، ودنا منها، وأصغى إليها، وأطالت الوقوف وأغلظت له في القول.

قالت: هيهات ياعمر، عهدتك وأنت تسمى عميرا، وأنت في سوق عكاظ ترعى القيان بعصاك، فلم تذهب الأيام حتى سميت عمر، ثم لم تذهب الأيام حتى سميت أمير المؤمنين، فاتق الله في الرعية، واعلم أنه من خاف الوعيد قرب عليه البعيد، ومن خاف الموت خشي الفوت. فقال لها الجارود: لقد أكثرت أيتها المرأة على أمير المؤمنين. فقال عمر ﷺ: دعها، وبقي يستمع إليها، فقال له قائل: حبست الناس لأجل هذه العجوز.

قال: ويحك! وتدري من هذه؟ قال: لا.

قال: هذه امرأة سمع الله شكواها من فوق سبع سموات، هذه خولة بنت ثعلبة، والله لو لم تنصرف عني إلى الليل، ما انصرفت حتى تقضي حاجتها.

قال ابن سعد: أوس بن الصامت أول من ظاهر في الإسلام وبقي بعد النبي ﷺ دهرا، وذكر أنه أدرك خلافة عثمان ﷺ.





هند بن أبي هالة

وأي الرجال مثل هند؟!.

بل: أي الناس رضع من ثديي مثل الثدي الذي رضع منه؟ وتربى في حجر مثل الحجر الذي رباه؟ ودرج مع إخوة مثل إخوته، وعاش في ظل بيت هنئ مثل البيت الذي آواه.

من مثل هند: أمه خديجة، وكافله النبي محمد ﷺ، وأخواته فاطمة الزهراء وزينب ورقية وأم كلثوم؟

أما كافله فكفى أن الله شرح له صدره، ووضع عنه وزره، ورفع له ذكره، وختم به النبوة، وفتح به آذانا صما، وأعينا عميا، وقلوبا غلفا.

وأما أمه فأنعم وأكرم وأعظم.

لقد حفظ التاريخ من طهر النساء وورعهن أسماء يتعبد المسلمون بذكرهن، ولكن لمثل خديجة بنت خويلد ما حفظ، عفة ورقة، وعقلا ودينا.

شهد القرآن على مريم المحررة لله الخالصة لعبادته، جليسة الملائكة، وأم المسيح عليه السلام، أنها حين حز بها الأمر تمنت لو أنها ماتت قبل هذا وكانت نسيا منسيا.

وشهد على امرأة فرعون إذ ضاقت بالحياة من جبروت زوجها فقالت: رب ابن لي عندك بيتا في الجنة، ونجني من فرعون وعمله.

لكن التاريخ يحفظ لخديجة أنها سعت إلى أن تجاهد في الله، وتتحمل نصيبها الوافر في سبيل دعوته، وهي الموسرة المنعمة التاجرة، وكأنها فهمت للتجارة معنى أكبر من تقليب المال بين البضائع والأسواق.

ورثت عن أبيها خويلد بن أسد الأسدي شمما ومجادلة وبيانا، فهو الذي تصدى للملك تبع اليماني حين أراد أن يحمل الحجر الأسود من الكعبة إلى اليمن ليحول تجارة العرب إلى هناك، ولينتقل تعظيم العرب إلى اليمن، وأقبل تسبقه الأخبار عن جبروته وظلمه، فقام إليه خويلد وقام معه بعض العرب يجادلونه، حتى رأى رؤيا أفزعته فترك

الحجر في مكانه وانصرف.

وتزوجت مرتين، فكان كل زوج منهما يموت ويترك لها ثروة كبيرة كانت تعمل على استثمارها.

وتواترت الأخبار عن تصونها وشرفها فأطلقت قريش عليها لقب [الطاهرة] وشاع هذا اللقب حتى أصبح علما عليها لا يتحدث عنها أحد إلا به.

وتهافت الناس على ثرواتها المتعددة كل يرغب في أن يصيب منها.

فثروة الخلال المحمودة تدفع طالبي العمل أن يقصدوها لما عرف من سماحتها وجودها.

والتجار يقصدونها ليستعينوا بمالها في تجارتهم ثم يقتسموا معها ربح التجارة.

وأشراف العرب يرغبون في الزواج منها ليرتفع رصيد شرفهم حين تضمها بيوتهم.

وخديجة تتصرف في كل ذلك بوحي فطرة حفظ الله لها نقاءها وحفظ عليها نور بصيرتها.

وعندما أشار أبوطالب على النبي ﷺ أن يقصد بيت خديجة ليتاجر لها، فإن فطرتها دفعت إليه بمالها — وهو الذي لم يعرف عنه التجارة من قبل — وأرسلت غلامها ميسرة عونا له، وعينا عليه ينبئها بحاله.

وذكر ابن اسحق أن خديجة لما بلغها عن رسول الله ﷺ ما بلغها من صدق حديثه، وعظم أمانته، وكرم أخلاقه بعثت إليه وعرضت عليه أن يخرج في مالها إلى الشام تاجرا، وتعطيه أفضل ما كانت تعطي غيره من التجار، مع غلام لها يقال له ميسرة، فقبله منها، وخرج في مالها حتى قدم الشام فنزل في ظل شجرة قريبا من صومعة راهب، فاطلع الراهب إلى ميسرة فقال: من هذا الرجل الذي نزل تحت هذه الشجرة؟ قال: هذا رجل من قريش من أهل الحرم.

قال الراهب: ما نزل تحت هذه الشجرة قط إلا نبي.

ثم باع النبي ﷺ سلعته التي خرج بها، واشترى ما أراد، ثم أقبل عائدا إلى مكة.

فلما قدم على خديجة بمالها باعت ما جاء به فأضعف أو قريبا، وحدثها ميسرة من قول الراهب.

وكانت خديجة امرأة حازمة لبيبة شريفة، فذكرت ذلك لابن عمها ورقة بن نوفل، فقال لها: لئن كان هذا حقا ياخديجة لمحمد نبي هذه الأمة الذي أطل زمانه ثم أنشد:

لججت وكنت في الذكرى لجوجا   لهم طالما بعث النشيجا

ووصف من خديجة بعد وصف ... فقد طال انتظاري ياخديجا
ببطن المكتين على رجائي ... حديثك أن أرى منه خروجا
بما خبرتنا من قول قس ... من الرهبان أكره أن يعوجا
بأن محمدا سيسود قوما ... ويخصم من يكون له حجيجا
ويظهر في البلاد ضياء نور ... يقوم به البرية أن تموجا
فيلقى من يحاربه خسارا ... ويلقى من يسالمه فلوجا
فياليتي إذا ما كان ذاكم ... شهدت وكنت أولهم ولوجا
ولوجا في الذي كرهت قريش ... ولو عجت بمكتها عجيجا
أرجي بالذي كرهوا جميعا ... إلى ذي العرش إن سفلوا عروجا
وهل أمر السفالة غير كفر ... بمن يختار من سمك البروجا
فإن يبقوا وأبق يكن أمور ... يضج الكافرون لها ضجيجا
وإن أهلك فكل فتى سيلقى ... من الأقدار متلفة خروجا

لقد كان الخبر عن قرب ظهور نبي آخر الزمان متواترا بين العرب، يعرفونه من اليهود الذين يجدونه مكتوبا عندهم في التوراة، ويستفتحون به على العرب بأنهم سينتصرون به عليهم، ولكن العرب لم يشغلهم هذا الأمر إذ يعتبرونه نبيا لليهود شأنه شأن أنبيائهم الآخرين الذين ما يفتئون يتحدثون عنهم.

فإن الحواجز النفسية بين العرب واليهود كانت سميكة بالقدر الذي يجعل كل واحد منهم يعتز بما عنده ويرفض ما عند الآخر. فاليهود يرون أنفسهم أبناء الله وأحباءه، اصطفاهم من دون الناس وفضلهم على العالمين بالأنبياء، وكل جنس من البشر هو دونهم، ومحتقر في ملتهم.

والعرب — وقد تغلب عليهم جهلهم — خلطوا بين الكبرياء والمكابرة، وبين الإباء والعناد، بمثل ما خلطوا بين الشجاعة والظلم، والشمم والعصيان، وينتهي فخرهم عند أنهم بغاة ظالمون وسوف يظلون كذلك، وأنهم لا يخضعون لملك، ولا ينقادون لأمير.

وأيام لنا غر طوال ... عصينا الملك فيها أن ندينا

وهم سواء في مكة — خاصة — لا يحفلون بنبوءات اليهود، ولا يأبهون بعقيدتهم، بل إن الصلحاء منهم إذا تساموا عن عبادة الأصنام فإنهم يبحثون عن دين عربي يدينون به ومن ثم كانت ظاهرة التحنف، وهو التعبد على ما بقي من دين إبراهيم إلا ما كان من أمر فرد أو أكثر.

وإذا كان الله تعالى قد نجى إسماعيل من الذبح وفداه بذبح عظيم، فإن العرب أجمعوا

على منع عبدالمطلب من ذبح عبدالله حتى لا يسن في العرب سنة غير حميدة بـــالتقرب إلى الآلهة بذبح أبنائهم.

وقف العرب في وجه عبدالمطلب حتى استشار كاهنة خيبر التي ضربت الأقداح فلم تخرج على الإبل إلا بعد أن بلغت مائة كاملة، وفدي عبدالله بالإبل المائة، ولكنه لم يلبث أن مات بعد شهر واحد، فكان العجب في ضخامة الفداء وقصر عمره بعد ذلك.

وأما الذي كان يتردد في مجتمعات النساء، وبعضها قريب من خديجة، فإن أباه بعد أن نحر له الإبل، أخذه إلى بيت وهب الزهري ليزوجه من ابنته آمنة.

مر عبدالله وهو مع أبيه على أم قتال ابنة نوفل أخت ورقة بن نوفـــل وابنـــة عـــم خديجة، فنظرت إلى وجهه ثم قالت له: إين تذهب ياعبدالله؟ قال: مع أبي، قـــالت: لـــك عندي من الإبل مثل الذي نحر عنك أبوك إذا جئتني الآن فجلست مني مجلس الرجل مـــن امرأته، فقال: إن معي أبي لا أستطيع فراقه ولا خلافه، فخرج به عبدالمطلب حـــتى أتـــى وهب بن عبد مناف فزوجه من ابنته آمنة، وبات معها ليلته، وفي اليوم التالي مر في طريقه بأم قتال، فلم تدعه إلى نفسها مثلما فعلت بالأمس، فقال لها: مالك لا تعرضين علي مـــا كنت عرضت بالأمس؟ فقالت: فارقك النور الذي كان معك بالأمس، فلم تعد لي بـــك حاجة. وقد كانت تسمع من أخيها ورقة إنه كائن لهذه الأمة نبي من بني إسماعيل.

سمعت خديجة كذلك في مجتمعات النساء حديث الكاهنة الخثعمية المتهودة فاطمـــة بنت مرة فعرضت عليه مثل ما عرضت أم قتال، فقال لها:

أمـــا الحـــرام فالممـــــات دونـــــه ... والحـــــل لا حـــــل فأســــــتبينه
فكيـــف بـــالأمر الـــذي تبغينـــــه ... يحمـــي الكـــريم عرضـــه ودينـــــه

ثم مر عليها بعد أن دخل بآمنة، فلم تعرض عليه ما كانت تعرضه بـــالأمس، ولمـــا سألها قالت: يافتى، ما أنا بصاحبة ريبة، ولكني رأيت في وجهك نورا، فأردت أن يكـــون لي فأبى الله إلا أن يجعله حيث أراد، فماذا صنعت بعدي؟ فقال: زوجني أبي آمنـــة بنـــت وهب، فقالت فاطمة بنت مر:

إني رأيــــت مخيلـــــة لمعـــــــت ... فتــــلألأت بحنــــائم القطـــــــر
فســـماتها نـــــور يضـــــيء بـــــه ... مـــا حولـــه كإضـــــــاءة البـــــدر
ورأيـــت ســـقياها حيـــــا بلـــــد ... وقعـــت بـــه وعمــــــارة القفـــــر
فرجوتـــه فخـــــرا أبـــــوء بـــــه ... مـــا كـــل قـــادح زنـــده يـــــورى
لله مــــا زهريــــــة ســــــلبت ... منـــك الـــذي ســـلبت ومــــاتدري

ثم قالت كأنها تبشر:

بني هاشم قد غادرت من أخيكم ... أمينة إذ للباه يعتركان
كما غادر المصباح عند خموده ... فتائل قد بلت له بدهان
فما كل ما يحوي الفتى من ملاذه ... لعزم ولا مافاته لتوان
فأجمل إذا طالبت أمرا فإنه ... سيكفيكه جدان يعتلجان
سيكفيكه امايد مقفعلة ... وإما يد مبسوطة ببنان
ولما حوت منه أمينة ما حوت ... حوت منه فخرا ما لذلك شاني

ولربما بلغ آذان خديجة ما كان يتردد في مكة من أخبار آمنة ويسر حملها، وما كان يهتف في سمعها، ويلقى في روعها من أنها تحمل سيد هذه الأمة. ولكنها وقد احترفت التجارة قد سمعت بدون ريب نبأ رحلة محمد مع عمه أبي طالب إلى الشام، وعلمت برجوع أبي طالب ومفارقته قافلة قريش، إذ أنه حين أزمع المسير من مكة لزمه ابن أخيه فرق له وأخذه معه. فلما نزل الركب بصرى من أرض الشام وبها راهب يقال له بحيرا في صومعة له، وكان ذا علم بالنصرانية، و لم يزل بهذه الصومعة راهب يصير إليه علمهم، وبها كتاب يتوارثونه، فلما رآهم بحيرا صنع لهم طعاما كثيرا، وذلك لأنه رأى على رأس النبي ﷺ غمامة تظلله من بين قومه، ثم أقبلوا حتى نزلوا إلى ظل شجرة قريبة منه، فنظر إلى الشجرة وقد هصرت أغصانها حتى استظل بها، فنزل إليهم من صومعته ودعاهم إلى طعام أعده لهم.

فلما رأى بحيرا رسول الله ﷺ جعل يلحظه لحظا شديدا، وينظر إلى أشياء من جسده كان يجدها من صفته.

فلما فرغ القوم من الطعام، وتفرقوا، سأل النبي ﷺ عن أشياء من حاله في يقظته ونومه فوجدها بحيرا موافقة لما عنده من صفته، ثم نظر إلى خاتم النبوة بين كتفيه.

ثم قال بحيرا لعمه أبي طالب: ما هذا الغلام منك؟ قال: ابني، قال: ما ينبغي لهذا أن يكون أبوه حيا، قال: فإنه ابن أخي مات أبوه وأمه حبلى به، قال: صدقت، إرجع به إلى بلدك، واحذر عليه يهود، فوالله لئن رأوه وعرفوا منه ماعرفت ليبغنه شرا فإنه كائن له شأن عظيم، فخرج به عمه حتى أقدمه مكة.

ثم استفاضت أخبار الأمين في مكة، شهوده حرب الفجار، وسماعه الهاتف الذي أمره أن لا يبدي عورته.

اشتراكه في حلف الفضول في دار عبدالله بن جدعان.

اختلاف القبائل حول وضع الحجر الأسود في مكانه في الكعبة حتى حكموه بينهم ثم وضعه هو بيده الشريفة بصورة أرضت الجميع، وأخمدت شرارة الحرب التي أوشكت أن تحرق مكة.

ما كان يردده عامر بن ربيعة مما سمعه من زيد بن عمرو بن نفيل أحد الحنفاء الذين قرءوا الكتاب الأول: إنا لننتظر نبيا من ولد إسماعيل، ثم من بني عبدالمطلب، ولا أراني أدركه، وأنا أؤمن به وأصدقه، وأشهد أنه نبي، فإن طالت بك حياة ورأيته فأقرئه منك السلام، وسأخبرك ما نعته حتى لا يخفى عليك.

قلت: هلم.

قال: هو رجل ليس بالطويل ولا بالقصير، ولا بكثير الشعر ولا بقليله، ولا تفارق عينيه حمرة، وخاتم النبوة بين كتفيه واسمه أحمد، وهذا البلد مولده ومبعثه، ثم يخرجه قومه ويكرهون ما جاء به، ويهاجر إلى يثرب، فيظهر بها أمره، فإياك أن تنخدع عنه، فإني طفت البلاد كلها أطلب دين إبراهيم، فكل من أسأله من اليهود والنصارى والمجوس يقول: هذا الدين وراءك، وينعتونه مثل ما نعته لك، ويقولون: لم يبق نبي غيره.

ومن الشواهد التي تؤكد لنا أن أمنا خديجة رضي الله عنها ما تزوجت من النبي ﷺ، بل وسعت إلى هذا الزواج إلا ثقة منها بأنه هو النبي المنتظر. إنها تابعت تلك الرؤى الصادقة التي كانت تعاوده بين الحين والحين، وتأولها بما يوافق الأمل الذي تنتظره، وحين حبب إليه الخلاء في غار حراء، فإنها عززت هذه الرغبة فكانت تعد له ملابسه وطعامه، ثم تستمع منه بشغف إلى مشاعره وهو في الغار حتى جاء إليها بعد أن جاءه جبريل بالبشرى ﴿إقرأ﴾، فقد أخذته الحمى ونزل إليها يقول: زملوني، دثروني، وبعد أن هدأ روعه وقص عليها نبأه قالت له تلك الكلمات الواثقة المطمئنة المستبشرة: أبشر، فوالله لا يخزيك الله أبدا، فوالله إنك لتصل الرحم، وتصدق الحديث، وتؤدي الأمانة، وتحمل الكل، وتقري الضيف، وتعين على نوائب الحق، ثم لم تذهب لتلتمس له طبيبا، وإنما خرجت إلى ابن عمها ورقة هذا الذي بشر قبل ذلك بقرب زمان النبي الخاتم.

ومن الشواهد على أن خديجة قد جمعت معلومات كثيرة عن قرب خروج النبي الخاتم أنها أرادت أن تستوثق من ملكية الوحي، فقالت للنبي ﷺ: ياابن عم: أتستطيع أن تخبرني بصاحبك، هذا الذي يأتيك إذا جاءك، قال: نعم، فجاءه جبريل فأعلمها، فقالت: قم، فاجلس على فخذي اليسرى، فقام فجلس عليها، فقالت: هل تراه، قال: نعم، قالت: فتحول فاقعد على فخذي اليمنى، فجلس عليها، فقالت: هل تراه؟ قال: نعم، فتحسرت فألقت خمارها، ورسول الله ﷺ في حجرها، ثم قالت: هل تراه؟ قال: لا، قالت: ياابن عم، اثبت، وأبشر، فوالله إنه ملك وليس بشيطان.

وفي هذه القصة من الدلالات ما يؤكد أنها لم تقدم على بذل الجهد من أجل أن يخطبها النبي ﷺ إلا بعد أن جمعت من المعلومات، ورأت من أعلام النبوة ما أكد لها أنها مقدمة على أن يرتبط اسمها بنبي يرفع لها ذكرها، ويصون طهرها، وينشر سيرتها الطيبة في العالمين، ويعلي قدرها، ويحفظ لها كرامتها، ويكفل أبناءها.

ومن أجل ذلك قال أبوهريرة: جاء جبرائيل إلى رسول الله ﷺ فقال: يارسول الله: هذه خديجة قد أتت معها إناء فيه إدام — أو طعام أو شراب — فإذا هي اتتك فاقرأ عليها السلام من ربها ومني، وبشرها ببيت في الجنة من قصب، لا صخب فيه ولا نصب.

قال السهيلي: وإنما بشرها ببيت في الجنة من قصب — يعني قصب اللؤلؤ — لأنها حازت قصب السبق إلى الإيمان، لا صخب فيه ولا نصب، لأنها لم ترفع صوتها على النبي ﷺ، و لم تنميه يوما من الدهر، فلم تصخب عليه يوما، ولا آذته أبدا.

وفي الصحيحين عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: ما غرت على امرأة للنبي ﷺ ما غرت على خديجة — وهلكت قبل أن يتزوجني — لما كنت اسمعه يذكرها، وأمره الله أن يبشرها ببيت في الجنة من قصب، وإن كان ليذبح الشاة فيهدي في خلائلها منها ما يسعهن.

وعنها أنه كان ﷺ يكثر من ذكرها، وربما قلت له، كأن لم يكن في الدنيا امرأة إلا خديجة، فيقول: إنها كانت، وكان لي منها ولد.

واستأذنت هالة بنت خويلد أخت خديجة على رسول الله ﷺ، فعرف استئذان خديجة، فارتاع وقال: اللهم هالة، فغارت أمنا عائشة وقالت: ما تذكر من عجوز من عجائز قريش حمراء الشدقين هلكت في الدهر، أبدلك الله خيرا منها. فتغير وجه النبي ﷺ تغيرا لم أره يتغير عند شيء قط إلا عند نزول الوحي أو عند الغيم حتى يعلم رحمة أو عذابا، ثم قال: ما أبدلني الله خيرا منها، وقد آمنت بي إذ كفر بي الناس، وصدقتني إذ كذبني الناس، وآستني بمالها إذ حرمني الناس، ورزقني الله منها الولد إذ حرمني أولاد النساء.

وقال عنها: كمل من الرجال كثير، و لم يكمل من النساء إلا ثلاث: مريم بنت عمران، وآسية زوجة فرعون، وخديجة بنت خويلد.

لقد عاش النبي ﷺ مع خديجة حياة زوجية هادئة مثالية، وقد عرف كل واحد منهما صاحبه معرفة حقة عن قرب.

فعرفت فيه خديجة رجلا مثاليا في الصدق والأمانة والكرم والوفاء والمحبة والخير، بل عرفت فيه كل هذه الصفات قبل النبوة، فلا غرو أن تسعى إليه زوجا لها، وأبا لأبنائها، وشرفا تعتز به في الدنيا والآخرة.

سمعت خديجة نبوءة ورقة فشمرت للأمر، وتأهبت لتحمل نصيبها من أعباء الدعوة، ومن صدود المدعوين، فأرسلت تخطب محمدا لنفسها متعالية على أعراف قومها التي تقضي بأن يقدم الرجال وتتمنع النساء، ثم وهبته مالها وبيتها ومواليها حتى تتيح لنفسه الطمأنينة وراحة البال من ناحية المعيشة، فإن النفس إذا أحرزت قوتها اطمأنت.

تعلم خديجة أن النفوس تتغير، وأن القلوب تتقلب، وأن محمدا شاب يصغرها بسنين طويلة، وأن النساء يهرمن قبل الرجال، وتعلم أن معها ثلاثة أبناء من زوجين سابقين، وأن هذه الأموال هي أموال أبويهم، وإذا تغير محمد عليها وقد وهبته كل ما تملك جاعت هي وأبناؤها، وأصبحوا بلا بيت ولا معين على صروف الزمن.

إن خديجة الطاهرة الحكيمة اللبيبة كما كان قومها يطلقون عليها ما كانت لتفعل ذلك من تلقاء نفساه، وليست حكمتها وطهرها ورجاحة عقلها تؤدي إلى هذا الفعل لولا أن فطرتها هي التي قدمت وأعطت، وفطرتها هي التي أيقنت بروايات ميسرة، وركنت لنبوءة ورقة، وكلاهما جدير بالثقة، خالص النصح، صادق الحديث.

وكل الشواهد تؤكد أن خديجة جمعت من المعلومات حول صفات النبي المنتظر ما جعل صدرها يطمئن إلى أن تهبه كل شيء دون وجل من اختلال ميزان العدل، وأن أبناءها معه سيكونون في رعاية قلب كريم يسع العالم برحابته وأريحيته.

كانت خديجة في الخامسة عشرة من عمرها حين ولد النبي ﷺ، وهي سن يدرك فيه الإنسان ما يدور حوله، وقد شاهدت ما صاحب مولده الشريف من رد أصحاب الفيل عن الكعبة المكرمة، بالطير الأبابيل ترميهم بحجارة من سجيل فجعلهم كعصف مأكول.

وقد أثار مولده الشريف ذكريات أبيه عبدالله بن عبدالمطلب، وله حديث في مجتمع مكة بل العرب عامة، وحديث آخر في مجتمعات النساء خاصة.

أما حديث العرب عنه فهو العجب في أن عبدالمطلب نذر أن يذبحه قربانا لله إذ نجب عشرة أبناء من الذكور بعد أن كانت تعيره قريش بأن ليس له إلا ولده الحارث، و لم يحدث أن حاول أحد من العرب أن يذبح ابنه بعد إبراهيم عليه السلام الذي أمر بذبح ابنه إسماعيل.

وكان من محاسن الأقدار أن يدرج هند في بيت النبوة ربيبا للنبي محمد وأخا لأبنائه وخالا لأحفاده، أخذ هند من النبي ﷺ، وتأسى، وربي وروى عنه وتعلم الحكمة.

عن مالك بن دينار قال: حدثني هند بن خديجة زوج النبي ﷺ قال: مر النبي ﷺ بالحكم أبي مروان بن الحكم، فجعل الحكم يغمز بالنبي ﷺ، ويشير بأصبعه، فالتفت النبي

إليه فقال: اللهم اجعل له وزغا، قال: فرجف مكانه.

وعن الحسن ﷺ قال: سألت خالي هند بن أبي هالة، وكان وصافا عن حلية النبي ﷺ، وأنا أشتهي أن يصف لي منها شيئا أتعلق به فقال: [كان رسول الله ﷺ فخما مفخما، يتلألأ وجهه تلألؤ القمر ليلة البدر، أطول من المربوع، وأقصر من المشذب، عظيم الهامة، رجل الشعر، إن انفرقت عقيقته فرق، وإلا فلا يجاوز شعره شحمة أذنيه إذا هو وفره، أزهر اللون واسع الجبين، أزج الحواجب، سوابغ في غير قرن، بينهما عرق يدره الغضب، أقنى العرنين، له نور يعلوه، يحسبه من لم يتأمله أشم، كث اللحية، سهل الخدين، ضليع الفم، أشنب مفلج الأسنان، دقيق المسربة، كأن عنقه جيد دمية في صفاء الفضة، معتدل الخلق، بادنا متماسكا، سواء البطن والصدر، عريض الصدر، بعيد ما بين المنكبين، ضخم الكراديس، أنور المتجرد، موصول ما بين السرة واللبة بشعر يجري كالخط، عاري الثديين والبطن مما سوى ذلك، أشعر الذراعين والمنكبين وأعالي الصدر، طويل الزندين، رحب الراحة، شثن الكفين والقدمين، سائل أو سائن الأطراف، خمصان الأخمصين، مسيح القدمين ينبو الماء عنهما، إذا زال زال قلعا، يخطو تكفؤا، ويمشي هونا، ذريع المشية، إذا مشى كأنما ينحط من صبب، وإذا التفت التفت جميعا، خافض الطرف، نظره إلى الأرض أطول من نظره إلى السماء، جل نظره الملاحظة، يسوق أصحابه، يبدر من لقيه بالسلام][1].

قلت: صف لي منطقه، قال: كان رسول الله ﷺ متواصل الأحزان، دائم الفكرة، ليست له راحة، لا يتكلم في غير حاجة، طويل السكوت، يفتتح الكلام ويختمه بأشداقه، يتكلم بجوامع الكلم، كلامه فصل، لا فضول ولا تقصير، دمث، ليس بالجافي ولا المهين، يعظم النعمة وإن دقت، لا يذم منها شيئا ولا يمدحه، ولا يقوم لغضبه إذا تعرض للحق شيء حتى ينتصر له، وفي رواية: لا تغضبه الدنيا وما كان لها، فإذا تعرض للحق لم يعرفه أحد، ولم يقم لغضبه شيء حتى ينتصر له، لا يغضب لنفسه، ولا ينتصر لها، إذا أشار أشار بكفه كلها، وإذا تعجب قلبها، وإذا تحدث يصل بها، يضرب براحته اليمنى باطن إبهامه اليسرى، وإذا غضب أعرض وأشاح، وإذا فرح غض طرفه، جل ضحكه التبسم، يفتر عن مثل حب الغمام.

قال الحسن: فكتمتها الحسين بن علي زمانا ثم حدثته فوجدته قد سبقني إليه، فلما سألته عنه ووجدته قد سأل أباه عن مدخله ومخرجه وشكله فلم يدع شيئا.

---

[1] معاني بعض مفردات الأثر كما ورد في أسد الغابة لابن الأثير: (المشذب): الطويل لا عرض معه، أي أنه وسط في الطول، (عظيم الهامة): تام الرأس في تدويره، (القطط): الشديد الجعودة، (والرجل): الذي لا جعودة فيه، (الأزهر): الأبيض المشرق.

قال الحسين: سألت أبي عن دخول النبي ﷺ فقال: كان دخوله لنفسه مأذونا له في ذلك، وكان إذا أوى إلى منـــزله جزأ دخوله ثلاثة أجزاء: جزءا لله، وجزءا لأهله، وجزءا لنفسه، ثم جزءا جزأه بينه وبين الناس، فرد ذلك على العامة والخاصة لا يدخـــر عنـــهم، وكان من سيرته في جزء الأمة إيثار أهل الفضل بإذنه وقسمه على قدر فضله في الديـــن، فمنهم ذو الحاجة ومنهم ذو الحاجتين ومنهم ذو الحوائج، فيتشاغل بهم ويشغلـــهم فيمـــا يصلحهم، والأمة من مسألته عنهم وإخبارهم بالذي ينبغي لهم ويقول: ليبلـــغ الشـــاهد الغائب، وأبلغوني حاجة من لا يستطيع إبلاغي حاجته، فإنه من أبلغ سلطانا حاجة من لا يستطيع إبلاغها إياه ثبت الله قدميه يوم القيامة لا يذكر عنده إلا ذلك، ولا يقبل من أحد غيره، يدخلون عليه روادا، ولا يفترقون إلا عن ذواق، ويخرجون أدلة على الخير.

قال: وسألته عن مخرجه كيف كان يصنع فيه؟ فقال: كان رسول الله ﷺ يخـــزن لسانه إلا بما يعنيه، ويؤلفهم ولا ينفرهم، ويكرم كريم كل قوم ويوليه عليهم، ويحذر الناس ويحترس منهم من غير أن يطوي على أحد منهم بشره ولا خلقه، يتفقد أصحابه، ويسأل الناس عما في الناس، ويحسن الحسن ويقويه، ويقبح القبيح ويوهيه، معتدل الأمـــر غـــير مختلف، لا يغفل مخافة أن يغفلوا أو يميلوا، لكل حال عنده عتاد، ولا يقصر عن الحـــق ولا يجوزه، الذين يلونه من الناس خيارهم، أفضلهم عنده أعمهم نصيحة، وأعظمـــهم عنـــده منـــزلة أحسنهم مواساة ومؤازرة.

قال: فسألته عن مجلسه كيف كان؟ فقال: كان رسول الله ﷺ لا يجلس ولا يقوم إلا على ذكر، ولا يوطن الأماكن وينهى عن إيطانها، وإذا انتهى إلى قوم جلـــس حيـــث ينتهي به المجلس ويأمر بذلك، يعطي كل جلسائه نصيبه، ولا يحسب جليسه أن أحدا أكرم عليه منه، من جالسه أو قاومه في حاجة صابره حتى يكون هو المنصرف عنه، ومن ســـأله حاجة لم يرده إلا بها أو بميسور من القول، قد وسع الناس منه بسطه وخلقه، فصار لهـــم أبا، وصاروا عنده في الحق سواء، مجلسه مجلس حلم وحياء وصبر وأمانة، لا ترفـــع فيـــه الأصوات، ولا تؤبن فيه الحرم، ولا تثنى فلتاته، متعادلين يتفاضلون فيه بالتقوى، متواضعين يوقرون فيه الكبير ويرحمون فيه الصغير، يؤثرون ذا الحاجة، ويحفظون الغريب.

قال: فسألته عن سيرته في جلسائه، فقال: كان رسول الله ﷺ دائم البشر، ســـهل الخلق، لين الجانب، ليس بفظ ولا غليظ ولا سخاب، ولا فحاش، ولا عياب، ولا مزاح، يتغافل عما لا يشتهي، ولا يؤنس منه راجيه، ولا يخيب فيه، قد ترك نفسه مـــن ثـــلاث، المراء والإكثار وما لا يعنيه، وترك الناس من ثلاث، كان لا يذم أحـــدا ولا يعـــيره، ولا يطلب عورته، ولا يتكلم إلا فيما يرجو ثوابه، إذا تكلم أطرق جلســـاؤه كأنما علـــى رؤوسهم الطير، وإذا تكلم سكتوا، وإذا سكت تكلموا، ولا يتنازعون عنده، يضحك مما

يضحكون منه، ويتعجب مما يتعجبون منه، ويصبر للغريب على الجفوة في منطقه ومسألته حتى إن كان أصحابه ليستجلبونهم في المنطق، ويقول: إذا رأيتم صاحب حاجة فأرفدوه، ولا يقبل الثناء إلا من مكافئ، ولا يقطع على أحد حديثه إلا أن يجور فيقطعه بنهي أو قيام.

قال: فسألته كيف كان سكوته؟ قال: كان سكوته على أربع: الحلم والحذر والتقدير والتفكر، فأما تقديره ففي تسويته النظر، وللاستماع بين الناس. وأما تذكره — أو قال — تفكره ففيما يبقى ويعنى، وجمع له ﷺ الحلم والصبر فكان لا يغضبه شيء ولا يستفزه، وجمع له الحذر في أربع: أخذه بالحسنى، والقيام لهم فيما جمع لهم الدنيا والآخرة، وفي رواية: وجمع له الحذر في أربع: أخذه بالحسنى ليقتدى به، وترك القبيح ليتناهي عنه، واجتهاده الرأي فيما أصلح أمته، والقيام فيما أصلح أمته، والقيام فيما جمع لهم الدنيا والآخرة[٢].

ولكي تكتمل لنا جملة من أوصاف النبي ﷺ نذكر حديث أم معبد الخزاعية، فقد مر بها رسول الله ﷺ وهو مهاجر إلى المدينة، ومعه أبوبكر الصديق وعامر بن فهيرة، وعندما مروا بخيمتي أم معبد — وكانت امرأة برزة جلدة تحتبي بفناء القبة، ثم تسقي وتطعم — فسألوها لحما وتمرا ليشتروه منها فلم يصيبوا عندها شيئا من ذلك، وكان القوم مرملين مسنتين (أي في أيام جدب وقحط)، فنظر رسول الله ﷺ إلى شاة في جانب الخيمة، فقال: ما هذه الشاة ياأم معبد؟ قالت: شاة خلفها الجهد عن الغنم (لا تقوى على المشي مع القطيع لشدة هزالها)، قال: هل بها من لبن؟ قالت: هي أجهد من ذلك، قال: أتأذنين لي أن أحلبها؟ قالت: نعم بأبي أنت وأمي، إن رأيت بها حلبا فاحلبها، فدعا رسول الله ﷺ، فمسح بيده ضرعها، وسمى الله، ودعا لها في شاتها، فتفاجت عليه (فتحت رجليها ليحلبها) ودرت واجترت، ودعا بإناء فظل يحلب فيه لبنا سائلا كثيرا ثجا حتى علاه البهاء، من بريق الرغوة ولمعانها، ثم سقى أم معبد حتى رويت، وسقى أصحابه حتى رووا وشرب آخرهم، ثم أسقاهم مرة أخرى حتى رووا، ثم حلب في الإناء حتى ملأه وغادره عندها، ودفع لها ثمن اللبن وارتحلوا.

فما لبثت حتى جاء زوجها أبومعبد يسوق أعنزا عجافا يتساوكن هزالا، مخهن

---

[٢] (يدره الغضب): يملؤه دما، (العرنين): ما صلب من الأنف، (الكراديس): رؤوس العظام، (؟؟؟ القصب): مستقيم العظام الفارغة، (أخمص القدم): لا يلصق وسط قدمه بالأرض، (مسيح القدمين): أملسهما بغير تشقق، (ذريع المشي): مسرعا، (يسوق أصحابه): يمشي خلفهم ويقول لهم خلوا ظهري للملائكة، (كلامه فصل): تعده عدا، (حب الغمام): البرد، (عن ذواق): يطعم من يزوره، (يوهيه): يجعله ضعيفا، (عتاد): عدة، (موازرة): معاونة.

قليل، فلما رأى أبومعبد اللبن عجب، وقال: من أين لك هذا اللبن يأم معبد، والشاة عازب حيال [بعيدة عن المرعى ولا تحمل حتى يكون بها لبن]، ولا حلوب في البيت؟، قالت: لا والله، إلا أنه مر بنا رجل مبارك، من حاله كذا وكذا، قال صفيه لي يأم معبد.

قالت: رأيت رجلا ظاهر الوضاءة (حسن نظيف الوجه)، أبلج الوجه، حسن الخلق، لم تعبه ثجلة، ولم تزر به صعلة (ليس عظيم البطن، ولا صغير الوجه)، وسيم قسيم، في عينيه دعج، وفي أشفاره وطف (الدعج شدة سواد العين، والوطف طول الأهداب)، وفي عنقه سطع، وفي صوته صحل، وفي لحيته كثافة، أزج الحاجبين، أقرن مابينهما، إن صمت فعليه الوقار، وإن تكلم سما وعلاه البهاء، أجمل الناس وأبهاه من بعيد، وأحسنه وأجمله من قريب، حلو المنطق، فصل، لا نذر ولا هذر، كأن منطقه خرزات نظمن يتحدرن، ربعة، لا بائن من طول، ولا تقتحمه عين من قصر، غصن بين غصنين، فهو أنضر الثلاثة منظرا، أحسنهم قدرا، له رفقاء يحفون به، إن قال أنصتوا لقوله، وإن أمرتبادروا إلى أمره، محفود، محشود، لا عابس ولا مفند (لا يقول خطئا، ولا يبعد عن الفصاحة).

قال أبومعبد: هو والله صاحب قريش الذي ذكر لنا من أمره ما ذكر بمكة، ولقد هممت أن أصحبه، ولأفعلن إن وجدت إلى ذلك سبيلا، فأصبح صوت بمكة عال، يسمعون الصوت ولا يدرون من صاحبه، وهو يقول:

جزى الله رب الناس خير جزائه ... رفيقين حلا خيمتي أم معبد
هما نزلاها بالهدى فاهتدت به ... فقد فاز من أمسى رفيق محمد
فيالقصي ما زوى الله عنكم ... به من فعال لا تجازى وسؤدد
ليهن بني كعب مقام فتاتهم ... ومقعدها للمؤمنين بمرصد
سلوا أختكم عن شاتها وإنائها ... فإنكم إن تسألوا الشاة تشهد
دعاها بشاة حائل فتحلبت ... عليه صريحا ضرة الشاة مزبد
فغادرها رهنا لديها لحالب ... يرددها في مصدر ثم مورد

فلما بلغ هذا الشعر حسان بن ثابت ﷺ في المدينة جعل يجاوب الهاتف وهو يقول:

لقد خاب قوم غاب عنهم نبيهم ... وقدس من يسري إليه ويغتدي
ترحل عن قوم فضلت عقولهم ... وحل على قوم بنور مجدد
هداهم به بعد الضلالة ربهم ... وأرشدهم، من يتبع الحق يرشد
وهل يستوي ضلال قوم تسفهوا ... عمى، وهداة يهتدون بمهتد
لقد نزلت منه على أهل يثرب ... ركاب هدى حلت عليهم بأسعد

نبي يرى ما لا يرى الناس حوله ... ويتلو كتاب الله في كل مشهد
وإن قال في يوم مقالة غائب ... فتصديقها في اليوم أو في ضحى الغد
ليهن أبا بكر سعادة جده ... بصحبته من يسعد به الله يسعد
ليهن بني كعب مقام فتاهم ... ومقعدها للمؤمنين بمرصد

وقال أنس بن مالك: (كان رسول الله ﷺ ربعة من القوم، ليس بالقصير ولا بالطويل البائن، أزهر ليس بالآدم ولا الأبيض الأمهق، رجل الشعر ليس بالسبط ولا الجعد القطط، أقام بمكة عشرا وبالمدينة عشرا، وتوفي على رأس الستين، وليس في رأسه ولحيته عشرون شعرة بيضاء.

وعنه ما مسست حريرا ولا ديباجا ألين من كف رسول الله ﷺ، ولا شممت ريحا قط أطيب من ريح أو عرف النبي ﷺ، وسئلت الربيع بنت معوذ: صفي لي رسول الله ﷺ فقالت: لو رأيته لرأيت الشمس الطالعة.

وقيل لجابر بن سمرة: أكنت تجالس النبي ﷺ؟ قال: نعم، كان طويل الصمت، قليل الضحك، وكان أصحابه يذكرون عنده الشعر وأشياء من أمورهم فيضحكون، وربما تبسم.

وإذا كان هند هو ابن نباش بن زرارة، أو مالك بن النباش بن زرارة التميمي، حليف بني عبدالدار، فقد غلب عليه أنه ربيب رسول الله ﷺ، وأصبح يعد في آل بيته، يرضى برضاهم، ويغضب بغضبهم، وينتصر لهم، وإن كان شهوده لبدر موضع خلاف بين كتاب السيرة فإنهم لا يختلفون على شهوده أحد والمشاهد بعدها، ولا يختلفون كذلك على دخوله مع علي في خلافه مع مناوئيه، وأنه حمل السيف معه حتى قتل يوم الجمل.

وتواصل تقدير الناس لربيب رسول الله ﷺ حتى بعد موته، وقد تمثل ذلك في تقدير الناس لابنه هند بن هند بن أبي هالة وكان قد سكن البصرة.

روى ابن عبدالبر عن رجل من تميم قال: رأيت هند بن هند بن أبي هالة بالبصرة، وعليه حلة خضراء من غير قميص، فمات في الطاعون، فخرجوا به بين أربعة لشغل الناس بموتاهم، أي لم يخرج لتشييع جنازة ابن ربيب النبي غير أربعة أشخاص لكثرة الموتى بسبب الطاعون، وانشغال أهل كل بيت بتشييع جنازة من مات منهم، فصاحت امرأة — وقد رأت قلة العدد الذي يشيعه — واهند بن هنداه، وا ابن رسول الله ﷺ، فازدحم الناس على جنازته وتركوا موتاهم.







نعيمان بن عمرو

يقتضي الحديث عن النعيمان بحثا عن المزاح ودواعيه ومنافعه ومضاره، ولكننا نبدأ بالتعريف بالنعيمان، ثم نتطرق إلى بحث المزاح، ثم نواصل حديثنا عنه ليكون المزاح بين دفتيه، حيث يعتبر نعيمان إهابا حشي مزاحا.

اسمه نعيمان بن عمرو بن رفاعة بن الحارث من بني غنم بن مالك بن النجار أنصاري بدري، وكان من قدماء الصحابة وكبرائهم، وكانت فيه دعابة زائدة، وله فيها أخبار ظريفة سنعرض لبعضها بعد أن نبسط ما وعدنا به من الحديث عن المزاح، وكان من أكثر الناس حبا للنبي ﷺ حتى قال فيه.. نعيمان كثير الحب لله ورسوله.

بحث في المزاح

أسباب كثرة المزاح:

يقول عادل بن العالي إن الناظر في واقع الناس مع المزاح يجد أن تعلق غالبهم به يرجع إلى عدة أسباب نذكر منها:

- الفهم الخاطئ لترويح النفس

يظن البعض أنه لا راحة للنفس ولا ترويح لها إلا بالمزاح، وهذا خطأ يتضح بتأمل سيرة الرسول ﷺ ومنهجه في الترويح عن النفس وعن أصحابه، ومما يذكر في ذلك قوله ﷺ لبلال رضي الله عنه: أرحنا بالصلاة يابلال، وقد ذكر أهل العلم في تأويل قوله ﷺ (ساعة وساعة) أن المسلم حينما يتعب ويسعى في طلب الرزق والخلافة في عمارة الأرض، فلابد أن يكون له محطة استراحة مع ذكر الله وقراءة كتابه، والقيام بالنوافل، وقال بعضهم: إن المراد عليكم ما تطيقون، فإن الله لا يمل حتى تملوا.

- جلب الأنظار وحب الظهور

بعض الناس يستغل المزاح لإظهار ذكائه وفطنته حتى يجلب الأنظار إليه، والذي ينبغي أن نعلمه أن فشل هذا الأسلوب معلوم من واقع المازحين، بل يحصل لهؤلاء الإحراج، ويختلط جدهم بهزلهم، وهذا مما لا يرضاه عاقل لنفسه.

- **إهدار ثروة الوقت**

نظرا لأن البعض يزهد في وقته ولا يغار عليه، فإنه يضيعه بالتعامل بالأمور السطحية، وتتبع الأخبار التافهة، والغرق مع الهازلين بنكتهم وضحكهم، والطيور على أشكالها تقع.

- **التربية والصحبة**

فالأبناء يتربون على أخلاق آبائهم (ومن شابه أباه فما ظلم)، فمن ربى ابنه على الهزل، وأبعده عن مواضع الجد، فسيرى الثمرة المحزنة ولو بعد حين، وقريب من ذلك الصحبة الهازلة، التي تجر الصاحب الجاد إلى مراتع المزاح والهزل بكثرة المزاح، والجرباء تعدي الصحيحة.

- **قلة العلم والفقه في الدين**

من خلى قلبه من فائدة، ولسانه من موعظة، فأين المفر؟ لابد أنه إلى المزاح بالضحكات والتعليقات المستهزئة، ومجالس الفراغ تغرق الكلمات الجادة بسيل جارف من النكت والطرائف.

مصالح ومفاسد المزاح

قال بدر الدين أبي البركات العزي في (المراح من المزاح): إن العاقل يتوخى بمزحه إحدى حالتين:

(١) إما إيناس المصاحبين والتودد للمخاطبين، وهذا يكون بما أنس من جميل القول، وبسط من مستحسن الفعل، كما قال سعيد ابن العاص لابنه: اقتصد في مزحك، فإن الإفراط فيه يذهب البهاء، ويجرئ السفهاء، وإن التقصير فيه يفض عنك المؤانسين، ويوحش منك المصاحبين.

(٢) وإما أن ينفي بالمزاح ما طرأ عليك من سأم، أو أحدث به من هم وغم، فقد قيل: لابد للمصدور أن ينفث، وأنشد أبو نواس

أروح القلب ببعض الهزل … تجاهلا مني بغير جهل
أمزح فيه مزاح أهل الفضل … والمزاح أحيانا جلاء العقل

والمراد قليل المزاح لا كثيره، ويقول البستي:

ولكن إذا أعطيته المزح فليكن … بمقدار ما تعطي الطعام من الملح

وأما عن طرد الهم بشيء من المزاح المعتدل فإنه مطلوب.

وصف رجل من النساك عند عبيدالله بن عائشة: هو جد كله، فقال: لقد أضـــاق على نفسه المرعى، وقصر لها طول النهي، ولو فككها بالانتقال من حال إلى حال لتنفس عنها ضيق العقدة، وراجع الجد بنشاط وجدة.

وبالإضافة لما ذكره العزي فقد يكون من مصالح المزاح إزالة الخوف والغضب، فقد ذكر أن رجلا ادعى النبوة في زمن المهدي، فلما أدخل عليه سأله المهدي: أنت نبي؟ قال: نعم، قال: إلى من بعثت؟ قال: أو تركتموني أبعث إلى أحد؟ بعثت بـــالغداة، وحبســت بالعشي، فتبسم المهدي وتركه بعد أن استتابه فتاب.

أما المفاسد الناتجة عن كثرة المزاح فمنها:

- تعدي حدود الله عز وجل: فقد أصبح من المألوف أن يكون المزاح الكثير بـــالكذب والغيبة والاستهزاء بالدين، وكلها انتهاك لمحارم الله.
- موت القلب: فإن حياة القلب وبذل الجهد في مرضاة الله، ولكن من أكثر من المـــزاح فإنما يبني قصرا ويهدم مصرا، وفي ذلك يقول النبي ﷺ: لا تكثر من الضحك فإن كثرة الضحك تميت القلب.
- زوال الهيبة والاستخفاف بالمازح: نقل الماوردي في أدب الدنيا والدين أن عمـــر بـــن الخطاب قال: من كثر ضحكه قلت هيبته، ومن مزح استخف به، ومن أكثر من شيء عرف به. ويقول الماوردي: فوصمة المزاح أن يذهب عنه الهيبة والبهاء، ويجرئ عليـــه الغوغاء والسفهاء. وقال بعض الشعراء:

فإيـــاك إيـــــاك المـــــزاح فإنــــه	يجري عليك الطفل والدنـــس النـــذلا
ويذهب مـــاء الوجـــه بعـــد بهائـــه	ويورثـــه مـــن بعـــــد عزتـــــه ذلا

- يورث الضغينة: إن وضع المزاح في غير مواضعه، والإكثار منـــه يـــورث للأحبـــاب والأصحاب العدواة والضغينة. يقول عمر بن عبدالعزيز: اتقوا المزاح، فإنه حمقة تورث ضغينة. ويقول ربيعة: إياكم والمزاح فإنه يفسد المودة ويغل الصـــدر. وقـــال أحـــد الشعراء:

أكرم جليســك لا تمـــازح بـــالأذى	إن المـــزاح تـــرى بـــه الأضغـــان
كم من مـــزاح جـــد حبـــل قرينـــه	فتجذمـــت مـــن أجلـــه الأقـــران

- النفور من الجد وعزائم الأمور: يعود المزاح على عدم المبالاة، فتنفر نفـــس المـــازحين الذين يكثرون منه عن الجد، لأنه يورثهم السأم، ويتقاعسون عن عزائم الأمور والقناعة

بصغائرها.

حكم المزاح

نقل ابن عبدالبر عن ابن عباس قوله: المزاح بما يحسن مباح، وقد مزح النبي ﷺ فلم يقل إلا حقا، ويلفت إلى آية من القرآن الكريم هي ﴿وأنه هو أضحك وأبكى﴾ (النجم ٤٣).

وقال ابن حجر في معنى الآية: أي خلق في الإنسان الضحك والبكاء، فلما خلقه وجعله يضحك ويبكي، فليضحك وليبك لكن بما انضبط بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ.

لكن البعض قد يستنكف هذا الفهم ويستنكره، كما جاء أحدهم، وقال لسفيان بن عيينة: المزاح هجنة — أي أمر مستنكر — فأجابه سفيان: بل هو سنة، لكن لمن يحسنه ويضعه في مواضعه.

وقال أبو البركات الغزي: وبعد، فقد سئلت قديما عن المزاح، وما يكره منه وما يباح، فأجبت بأنه مندوب إليه بين الإخوان والأصدقاء والخلان لما فيه من ترويح القلوب، والاستئناس المطلوب، بشرط أن لا يكون فيه قذف ولا غيبة، ولا انهماك فيه يسقط الحشمة ويقلل الهيبة، ولا فحش يورث الضغينة، ويحرك الحقود الكمينة.

هدي النبي ﷺ في المزاح

يقول أحد الصحابة: ما رأيت أكثر تبسما من النبي ﷺ.

وأخرج الترمذي عن أبي هريرة ﷺ قال: قلنا: يارسول الله، إنك تداعبنا، قال: إني لا أقول إلا حقا.

وأخرج أبوداود عن أنس بن مالك ﷺ أنه قال له مازحا ياذا الأذنين.

وروى البخاري ومسلم عن أنس ﷺ قال: إن كان رسول الله ﷺ ليخالطنا حتى يقول لأخ لي صغير: ياأبا عمير ما فعل النغير.

وعنه روى أبوداود أن رجلا استحمل النبي ﷺ، فقال: إني حاملك على ولد ناقة، فقال: يارسول الله، ما أصنع بولد الناقة، فقال له: وهل تلد النوق إلا الإبل.

وأخرج الإمام أحمد عن أنس أن رجلا من أهل البادية كان اسمه زاهرا، وكان النبي ﷺ يحبه، وكان رجلا دميما، وأتاه النبي ﷺ وهو يبيع متاعه، فاحتضنه من خلفه وهو لا يبصره، فقال: من هذا؟ أرسلني، فالتفت، فعرف أنه النبي ﷺ، فجعل لا يألو ما ألصق ظهره بصدر النبي ﷺ حين عرفه، فجعل النبي ﷺ يقول: من يشتري هذا العبد؟ — وهو بلا شك عبدلله — فقال: يارسول الله، إذن والله تجدني كاسدا، فقال النبي ﷺ: لكنك عند الله لست بكاسد.

وروى أبوداود عن عوف بن مالك الأشجعي ﷺ قال: أتيت النبي ﷺ في غـــزوة تبوك، وهو في قبة من أدم، فسلمت فردّ، وقال: أدخل، فقلت: أأدخل كلي يارســـــول الله؟ قال: كُلّك، فدخلت.

وروى مسلم أن المقداد ضحك بحضرة النبي ﷺ حتى ألقى على الأرض.

وروى الترمذي عن الحسن قال: أتت عجوز إلى النبي ﷺ، فقالت: يارســـول الله، ادع الله أن يدخلني الجنة، فقال: ياأم فلان، إن الجنة لا تدخلها عجوز، فولـــت تبكـــي، فقال: أخبروها أنها لا تدخلها وهي عجوز، إن الله تعالى يقول ﴿إِنَّا أَنْشَأْنَاهُنَّ إِنْشَـــاءً ۝ فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَارًا ۝ عُرُبًا أَتْرَابًا﴾ (الواقعة ٣٥-٣٧).

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: سابقني النبي ﷺ فسبقته، فلما حملـــت اللحـــم سابقني فسبقني، فقال: هذه بتلك.

وعن يحيى بن عبدالرحمن بن حاطب قال: قالت عائشة: كان عندي رسول الله ﷺ وسودة، فصنعت خزيرا، فجئت به، فقلت لسودة: كلي، فقالت: لا أحبه، فقلـــت: والله لتأكلن أو لألطخن وجهك، فقالت: ما أنا بباغية ــ أي للخزير ــ فأخذت شيئـــا مـــن الصحفة فلطخت به وجهها ورسول الله ﷺ ما بيني وبينها، فخفض لها ركبتيه لتســـتقيد مني، فتناولت شيئا من الصحفة فمسحت به وجهي، وجعل رسول الله ﷺ يضحك.

ويلاحظ على مزاحه ﷺ أنه لا يكذب فيه، ولا يخرج عن وقاره، وأنه قليل، وأنه معتدل.

صور من مزاح الصالحين

أخرج البخاري في الأدب المفرد أن الصحابة رضوان الله عليهم كانوا يتبــــادحون بالبطيخ، فإذا كانت الحقائق كانوا هم الرجال.

وقال الربيع: دخلت على الشافعي وهو مريض، فقلت: قوى الله ضعفك، فقال: لو قوى ضعفي قتلني، قلت: والله ما أردت إلا الخير، قال: أعلم أنك لو شتمتني لم تـــرد إلا الخير.

ودخل الشعبي الحمام فرأى داود الأودي بلا مئزر، فأغمض عينيه، فقال لـــه داود: متى عميت ياأبا عمرو، قال الشعبي: منذ هتك الله سترك.

وقال أحد تلاميذ محمد بن سيرين: كان يداعبنا ويضحك حتى يسيل لعابه، فـــإذا أردته على شيء من دينه كانت الثريا أقرب إليك من ذلك.

وسئل النخعي: هل كان أصحاب رسول الله ﷺ يضحكون؟ قال: نعم، والإيمـــان

في قلوبهم مثل الجبال الرواسي.

وروى الأعمش عن أبي وائل قال: مضيت مع صاحب لي نزور سلمان، فقدم إلينا خبزا شعيرا وملحا جريشا، فقال صاحبي: لو كان في هذا الملح سعتر كان أطيب، فقام سلمان وأحضره لنا، فلما أكلنا قال صاحبي: الحمدلله الذي قنعنا بما رزقنا، فقال سلمان: لو قنعت بما رزقت لم تكن مطهرتي مرهونة.

وروى عن أبي الدرداء أنه كان لا يحدث إلا وهو يبتسم، فقالت له امرأته أم الدرداء: إني أخاف أن يرى الناس أنك أحمق، فقال: ما رأيت رسول الله ﷺ حدث حديثا إلا وهو يبتسم في حديثه.

وخرج عبدالله بن عمر وعبدالله بن عياش بن أبي ربيعة من المسجد، فلما كانا على بابه كشف كل واحد منهما ثيابه، حتى بدت ساقه، وقال لصاحبه: ماعندك خير، هل لك أن أسابقك.

جاء رجل إلى أبي حنيفة فقال له: إذا نزعت ثيابي ودخلت النهر أغتسل فإلى القبلة أتوجه أم إلى غيرها؟ فقال له: الأفضل أن يكون وجهك إلى جهة ثيابك لئلا تسرق.

وعن عطاء بن السائب: كان سعيد بن جبير يقص علينا حتى يبكينا، وربما لم يقم حتى يضحكنا.

وقيل للخليل بن أحمد: إنك تمازح الناس، فقال: الناس في سجن ما لم يتمازحوا.

ومزح الشعبي في بيته فقيل له: يأبا عمرو، وتمزح؟ قال: قراء داخل، وقراء خارج، نموت من الغم.

وسأل رجل الشعبي عن المسح على اللحية، فقال: خللها بأصابعك، فقال: أخاف ألا تبلها، فقال الشعبي: إن خفت فانقعها من أول الليل.

وسأله آخر: هل يجوز للمحرم أن يحك بدنه؟ قال: نعم، قال السائل: مقدار كم؟ قال: حتى يبدو العظم.

وقال ابن عباس: رأيت على الأعمش فروة مقلوبة، صوفها إلى الخارج، فأصابنا مطر فمررنا على كلب، فتنحى الأعمش وقال: لا يحسبنا شاة.

ووقع بين الأعمش وامرأته وحشة، فسأل بعض أصحابه أن يصلح بينهما، فقال صاحبه: هذا سيدنا وشيخنا أبومحمد، فلا يزهدنك فيه عمش عينيه، وحموشة ساقيه، وضعف ركبتيه، وقزل رجليه، وجعل يصف، فقال الأعمش: قم عنا، فقد ذكرت لها من عيوبي ما لم تكن تعرفه.

من ضوابط المزاح

من الضوابط الأساسية في المزاح:

- أن لا يتضمن ذكر الله ولا آياته، ولا سنة نبيه ﷺ، ولا شعائر الإسلام، وقد ذكر الطبري أن بعض المنافقين في غزوة تبوك قال لأحد قرّاء القرآن: (ما رأينا مثل قرائنا هؤلاء، أرغب بطونا، ولا أكذب ألسنا، ولا أجبن عند اللقاء)، فبلغ ذلك النبي ﷺ فقالوا: إنما كنا نخوض ونلعب، فأنزل الله تعالى قوله: ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ ۝ لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾ (التوبة ٦٥-٦٦).

فجانب الربوبية والرسالة والوحي والدين جانب محترم لا يجوز لأحد أن يعبث فيه، لا بالاستهزاء ولا بالضحك ولا بالسخرية، فإن فعل ذلك عليه أن يتوب إلى الله عز وجل مما صنع لأن صنيعه هذا من النفاق، وعليه أن يستغفر ويصلح عمله ويجعل في قلبه خشية الله عز وجل وتعظيمه، وخوفه محبته.

وأين من يقذف بالكرة وهو يقول بإسفاف " دعوها فإنها مأمورة " متخذًا قول النبي ﷺ وسيلة للضحك، وبين من كان على جنبه فلما سمع الحديث عن النبي ﷺ جلس، وبين من يضع الطيب ويلبس أجمل ملابسه لأنه سيحضر مجلسًا لحديث النبي ﷺ.

ثانيًا: أن لا يتضمن المزاح أذى ولا إضرارًا لأحد من الناس، وقد قال النبي ﷺ " لا ضرر ولا ضرار ".

فلا يجوز لمسلم أن يروع مسلما أو يؤذيه أو يسبب له ضررا، ولو كان عن طريق المزاح، مثل من يضرب أخاه المسلم، أو يورطه بالخروج في وقت لا يخرج فيه، أو يأخذه إلى أماكن لا يرتادها من أجل أن يسبب له إحراجا مع آخرين، أو يخفي متاعه ليتعب في البحث عنه، أو كثرة الجدال التي من الممكن أن تسيء إلى الجانبين، وقد قال النبي ﷺ " لا يأخذن أحدكم متاع أخيه لاعبا و لا جادا، ومن أخذ عصا أخيه فليردها. "

قال الخطابي: أما النهي عن الأخذ لعبا فلأنه لا فائدة فيه، بل قد يكون سببا لإدخال الغيظ والأذى على صاحب المتاع.

وروى أبوداود عن عبدالرحمن بن أبي ليلى قال: حدثنا أصحاب محمد ﷺ أنهم كانوا يسيرون معه، فنام رجل منهم، فانطلق بعضهم إلى حبل معه وأخذه ففزع، فقال النبي ﷺ: " لا يحل لمسلم أن يروع مسلمًا ".

- أن لا يتضمن كذبًا أو غيبة أو فحشًا. قال النبي ﷺ: "ويل للذي يحدث، فيكذب ليضحك به القوم، ويل له، ويل له، ثم ويل له". فالكذب محرم في المزاح

وغيره، وهو من الكبائر، وطريق لدخول النار، وقد جاء في الحديث: " عليكم بالصدق، فإن الصدق يهدي إلى البر، وإن البر يهدي إلى الجنة، ولا يزال الرجل يصدق ويتحرى الصدق حتى يكتب عند الله صديقا، وإياكم والكذب، فإن الكذب يهدي إلى الفجور، وإن الفجور يهدي إلى النار، ولا يزال الرجل يكذب حتى يكتب عند الله كذابا ".

والغيبة والفحش من القول حتى بنية المزاح هي غيبة وفحش، وقد قال الشاعر:

إذا رزق الفتى وجها وقاحا	تقلب في الأمور كما يشاء
و لم يك للدواء ولا لشيء	يعالجه به فيه غناء
فما لك في معاتبة الذي لا	حياء لوجهه إلا العناء
إذا لم تخش عاقبة الليالي	و لم تستحي فاصنع ما تشاء

- عدم الإفراط في المزاح إلى مجاوزة الحد المعقول: جاء في عون المعبود أن النبي ﷺ كان يداعب الصحابة ولا يقول إلا حقا. وأخرج الترمذي عن ابن عباس: " لا تمار أخاك ولا تمازحه ". والجمع بينهما أن المنهي هو عما فيه من إفراط أو مداومة عليه لما فيه من الشغل عن ذكر الله، والتفكير في مهمات الدين.

إن الإسلام في حاجة إلى الرجال الجادين الذين يشغلون أوقاتهم بطلب العلم، والدعوة والجهاد، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فأما من يكثر من المزاح فقد أساء كل الإساءة لنفسه ولدينه، والذي يحرص على اتباع سنة النبي ﷺ فإنه سيعطي المزاح قدرا يسيرا لقول النبي ﷺ " سددوا وقاربوا ".

علاج المبتلى بكثرة المزاح

من المسلم به أن أي علاج لا يفيد إلا إذا توافرت إرادة صادقة للتخلص من العيوب، والبعد عن الرذائل، وعزم أكيد للإقبال على الفضائل، ومن لم يصلح نفسه فلن يستطيع الآخرون إصلاحه، ومن سبل العلاج

معرفة أحكام المزاح

حتى يأتي بما يستحسن منه، ويجتنب ما يذم منه، ويعلم أن عقاب الله شديد لمن مزح بشيء من دينه، ويحبس المرء لسانه إلا من خير، وأنه لا يكب الناس على مناخرهم في النار إلا حصائد ألسنتهم.

إشغال النفس بالأمور الجادة

فطلب العلم وحضوره مجالس الخير من محاضرات ودروس ومتابعة نوافل من صلاة وعمرة، كلها صوارف عن المزاح، ومثلها عمل البحوث النافعة، وتفريغ بعض الأشرطة المفيدة، أو حتى الانشغال بعمل حلال يدر عليه دخلا ينفقه في الحلال وكل إنسان ومشربه، وربما تكون هذه الانشغالات شاقة على نفسه في بداية الطريق، ولكن بالتدريب والتمرس يصبح الأمر سجية بإذن الله تعالى، والدافع المكتسب يكون هو الأغلب.

الصحبة الجادة الملتزمة بالحق

والمرء على دين خليله، وحينما ينخرط الشاب في بيئة جادة في غالب أمرها، يجد نفسه مدفوعا بقوة ضاغطة ليلتزم طريقها، ثم بتعاطفه معها يستحسن الجدية، ويستقبح كثرة المزاح، وبذلك يكتسب بدون تكلف الموازنة بين الأمور.

التفكر في الآخرة

وذلك بتدبر آيات الله وسنة رسوله ﷺ، وبخاصة التي ترتبط بيوم القيامة، وعذاب القبر، وعبور الصراط، يقول النبي ﷺ " لو علمتم ما أعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيرا ".

قال الحافظ بن حجر: المراد بالعلم هنا ما يتعلق بعظمة الله، وانتقامه ممن يعصيه، والأهوال التي تقع عند النزع والموت وفي القبر ويوم القيامة.

الدعاء

بأن ييسر الله عز وجل للمبتلى زوال قصوره وهزاله، وكم من العيوب التي لم تزل إلا بالدعاء.

مجاهدة النفس على ضبط زمامها

بحيث لا يخلط الجد بالهزل، ولا توسع عن الضوابط المذكورة آنفا.

التفكر في سلبيات كثرة المزاح

بأن يتأمل ما فيه من سلبيات ليجتنبها، والآثام التي تترتب عليه فينصرف عنها ابتغاء وجه الله الكريم، وحرصا على رضاه.

طرائف نعيمان

خرج أبوبكر الصديق في تجارة إلى بصرى، ومعه نعيمان بن عمرو الأنصاري،

وسويبط بن حرملة، وهما بدريان، وكان سويبط على الزاد، فجاءه نعيمان، فقال: أطعمني، فقال: لا أطعمك حتى يأتي أبوبكر — وكان نعيمان رجلا مضحاكا مزاحا — فقال: لأغيظنك، فمروا بقوم جلبوا ظهرا، وقال لهم: تشترون مني عبدا، وهو غلام عربي فاره؟ قالوا: نعم، قال: إنه عبد ذو لسان، وله كلام، ولعله يقول لكم: أنا حر ولست بعبد، وأنا ابن عم له، فإن كنتم تاركيه لذلك فدعوه، ولا تفسدوا علي غلامي، فقالوا: بل نبتاعه منك، ولا ننظر لقوله، وقال بعضهم: نشتريه منك بعشر قلائص، فأقبل بها يسوقها، وأقبل بالقوم حتى عقلها، ثم قال: دونكم هو ذا، ثم جاءوا ليأخذوه، وقالوا له: قد اشتريناك، فامتنع منه سويبط وقال: أنا حر، أنا رجل حر، قالوا قد أخبرنا خبرك، فوضعوا في عنقه عمامة، فقال لهم: إنه يتهزأ بكم، فذهبوا به و لم يسمعوا كلامه، فجاء أبوبكر وأخبر خبره هو أصحاب له، فردوا القلائص وأخذوه، فلما قدموا على رسول الله ﷺ أخبره الخبر، فضحك النبي ﷺ من ذلك حولا، قال الزبير: وأكثر.

❁ ❁ ❁

جاء أعرابي إلى النبي ﷺ، فدخل المسجد وأناخ ناقته بفنائه، فقال بعض أصحاب النبي ﷺ لنعيمان بن عمرو الأنصاري، وكان يقال له: النعيمان: لو نحرتها فأكلناها فإنا قد قرمنا إلى اللحم، ويغرم رسول الله ﷺ ثمنها، فنحرها النعيمان، فخرج الأعرابي فرأى راحلته، فصاح واعقراه يامحمد، فخرج النبي ﷺ، فأشار بعض الحاضرين على النعيمان أن يذهب إلى دار ضباعة بنت الزبير بن عبدالمطلب، ويختبئ في خندقها تحت الجريد والسعف، وسأل النبي ﷺ من فعل هذا؟ قالوا: النعيمان، قال: وأين أجده؟ فأخذوه إلى مخبئه، فأشار إلى مكانه رجل وهو يقول: ما رأيته يا رسول الله، وأشار بإصبعه حيث هو، فأخرجه النبي ﷺ، وقد تغير وجهه بالسعف الذي سقط عليه، فقال له: ما حملك على ما صنعت؟ قال: الذين دلوك على مكاني يارسول الله هم الذين أمروني، فجعل رسول الله ﷺ يمسح وجهه ويضحك، ثم غرمها رسول الله ﷺ.

❁ ❁ ❁

كان مخرمة بن نوفل بن أهيب الزهري شيخا كبيرا في المدينة، وكان أعمى، وقد بلغ مائة وخمس عشرة سنة، فقام يوما في المسجد يريد أن يبول، فصاح به الناس، فأتاه نعيمان بن عمرو النجاري فتنحى به ناحية من المسجد، ثم قال: إجلس هاهنا، فأجلسه يبول وتركه، فبال، وصاح به الناس، فلما فرغ قال: من جاء بي ويحكم في هذا الموضع؟ قالوا له: النعيمان بن عمرو، قال: فعل الله به وفعل، أما إن لله علي إن ظفرت به أن أضربه بعصاي هذه ضربة تبلغ ما بلغت. فمكث ما شاء الله حتى نسى مخرمة، وذات يوم كان أمير المؤمنين عثمان بن عفان قائما يصلي في ناحية من المسجد، وكان عثمان إذا صلى لم

يلتفت، فجاء النعيمان إلى مخرمة وقال له: هل لك في نعيمان؟ قال: نعم، أين هو؟ دلـــني عليه، فأتى به فأوقفه على عثمان، فقال: دونك هذا هو، فجمع مخرمة يديه بعصاه فضرب عثمان فشجه، فقيل له: إنما ضربت أمير المؤمنين عثمان، فسمعت بذلك بنو زهرة قـــوم عثمان، فاجتمعوا في ذلك، فقال عثمان: دعوا نعيمان، لعن الله نعيمان، إنه من أهل بدر، أو فقد شهد بدر.

❁ ❁ ❁

أما هذه الطرفة الأخيرة، وترتيبها في الزمن سابقة لما قبلها، وإنما جعلتها أخيرة لمـــا فيها من صدق حب نعيمان للنبي ﷺ، وكيف عبر عنه نعيمان بطريقته الخاصة به.

كان لا يدخل المدينة فاكهة طريفة إلا اشترى منها نعيمان، ثم جاء به إلى النبي ﷺ، فقال: يارسول الله، هذا هدية لك، فإذا جاء صاحبه يطلب ثمنه من نعيمان جاء به إلى النبي ﷺ فقال: أعط هذا ثمن هذا، فيقول رسول الله ﷺ: أو لم تهده لي؟ فيقول: يارسول الله، لم يكن عندي ثمنه، وأحببت أن تأكله، فيضحك النبي ﷺ ويأمر لصاحبه بثمنه.

قال: أبوعمر بن عبدالبر: كان نعيمان على ما كان فيه من دعابة رجلاً صالحًا.

لكن نعيمان ابتلي بابن له كان يصيب الشراب، فكان يؤتى به النبي ﷺ فيضربـــه بنعله، ويأمر أصحابه فيضربونه بنعالهم حد الخمر، ويحثون عليه التراب، فلما كثر ذلك منه قال له رجل من أصحاب النبي ﷺ: لعنك الله، فقال النبي ﷺ: لا تفعل، فإنه يحـــب الله ورسوله. لقد ألقت هذه العبارة الأخيرة من رسول الله ﷺ " لا تفعل فإنـــه يحـــب الله ورسوله "، ألقت هذه العبارة ظلالاً حول النعيمان نفسه، بحيث جعل بعض الرواة يزعم أن الذي كان يصيب الشراب هو نعيمان نفسه وليس ابنه، ولكنني استبعد أن يكون ذلك من نعيمان، فمن الممكن أن يكون نعيمان مهذارًا إلى الدرجة التي رأيناها فيما تقدم مـــن طرف، وهذه نقيصة فيه ولا شك، ولكنها لا تصل إلى درجة الكبائر مثل الخمر، والبشرى لأهل بدر أنهم مغفور لهم وإن فعلوا ما شاءوا، هذه البشرى نفسها لا تصل بكلمة: افعلوا ما شئتم إلى أن تكون كبائر، وذلك لقول الله عز وجل في صفات المؤمنـــــين ﴿ وَالَّذِيـــنَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ ﴾ (الشورى ٣٧)، وقوله عز وجـــل: ﴿ إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُمْ مُدْخَلاً كَرِيمًا ﴾ (النساء ٣١).

وقد ألقت هذه الظلال حجبها على تاريخ وفاة النعيمان، فقال ابـــن عبدالـــبر، إن نعيمان مات في زمن معاوية، ويُقال: بل ابنه هو الذي مات في هذا الزمن.



رفاعة الزرقي

اسمه رفاعة بن رافع بن مالك بن العجلان الزرقي الأنصاري، كنيته أبومعاذ. شهرته رفاعة الزرقي، للتمييز بينه وبين غيره ممن يسمى رفاعة من الصحابة، مثل رفاعة بن الحارث، ورفاعة بن زيد وغيرهما.

أحد الذين آووا ونصروا، وتبوءوا الدار والإيمان. ومن عائلة شهد جميع أفرادها بدراً، فأبوه مختلف عليه، واتفق أصحاب السير على شهود رفاعة وأخويه خلاد ومالك.

إلى بدر

حضر غزوة بدر والمشاهد كلها مع رسول الله ﷺ. وإذا كان الخروج مع النبي ﷺ للجهاد فرض عين على القادر من أصحابه، ومن يتخلف عنه يعتبر منافقا يعيب عليه الله عز وجل في مثل قوله ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الأَرْضِ أَرَضِيتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الآخِرَةِ إِلا قَلِيلٌ﴾ (التوبة ٣٨)، ويشبه الله عز وجل المتخلفين بالنساء اللاتي يقعدن في بيوتهن بسبب أنهن غير مأمورات بالجهاد.

وإذا كان التخلف عن الجهاد ذنبا يجب التوبة منه إذا كان بغير عذر حيث رفع الله تعالى الحرج عن المعذورين.

وإذا كان المؤمنون مأمورين بأن ينفروا خفافا وثقالا ويجاهدوا في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم، فإن كل ذلك كان بعد بدر، أما بدر نفسها فكان الخروج إليها اختياريا مع القدرة، كما كان النبي ﷺ يقول: "من كان ظهره حاضرا وأراد أن يصحبنا فليصحبنا".

لم يكن الخروج إلى بدر واجبا على المسلمين ـــ كما تقدم ـــ ومن ثم كانت الأسرة ترسل واحدا منها، إما بالتزكية أو بالاستهام، كما استهم خيثمة وابنه سعد فكان السهم لسعد، وكما اصطلح جابر وأبوه، أما أن يخرج الرجل بأبنائه جميعا فلم يكن له من سبب إلا المحبة العميقة لله ولرسوله، وهذه السمة ستقابلنا جلية في سيرة رفاعة رضي الله

عنه، وسنرى امتدادها لكل ما يمت للنبي ﷺ بسبب، والجهاد دون هذه المحبـــة، جـــهاد مصالح قلبه ونفسه وبدنه، ومصالح دنياه وآخرته، وكما يقول ابن القيم: (إن تمام العبودية لا يحصل إلا بالمحبة الصادقة، وإنما تكون المحبة صادقة إذا بذل فيها المحب ما يملكه من مال ورياسة وقوة في مرضاة محبوبه، والتقرب إليه، فإن بذل له روحه كان هذا أعلى درجات المحبة.

ومن المعلوم أن من لوازم ذلك التي لا يحصل إلا بها، أن يخلـــق الله تعـــالى ذواتـــا وأسبابا، وأعمالا، وأخلاقا، وطبائع تقتضي معاداة من يحبه ويؤثر مرضاته، وعنـــد ذلـــك تتحقق المحبة الصادقة من غيرها، فكل أحد يحب الإحسان والراحة والدعة واللذة، ويحب من يوصل إليه ذلك ويحصله له، ولكن الشأن في أمر ولاء هذا وهو محبته سبحانه، ومحبة ما يحبه مما هو أكره شيء إلى النفوس، وأشق شيء عليها مما لا يلائمها، فعند حصول أسباب ذلك يتبين من يحب الله تعالى لذاته ويحب ما يحب، فهي عبودية، الموالاة فيه، والمعادة فيه، والحب فيه، والبغض فيه، والعطاء له، والمنع له، وليست عبودية بذل الأرواح والأمـــوال والأولاد والقوى في جهاد أعدائه ومضرته، ولا عبودية مفارقة الناس أحوج ما يكون إليهم عنده لأجل مرضاته.

وفي سبيل محبة الله كان بلاء رفاعة في بدر، وكان ابتلاؤه كذلك، ولقد تقبـــل الله بلاءه كما خفف عنه ابتلاءه وأبدله رحمة وراحة.

أما بلاؤه فمن أظهر دلائله قتله أمية بن خلف، وما أدراك ما أمية بن خلف، أحـــد رؤوس الكفر، قساة القلوب والأكباد بمكة، وهو الذي كان يخـــرج بـــلالا إذا حميـــت الظهيرة، ثم يأمر بالصخرة العظيمة فتوضع على صدره، ثم يقول له: لا والله لا تزال هكذا حتى تموت أن تكفر بمحمد وتعبد اللات والعزى، فيقول بلال ـــ وهو في ذلك ـــ أحد.. أحد، حتى ساومهم عليه الصديق واشتراه منهم، ثم أعتقه ابتغاء وجه الله تعالى.

ثم كان يوم بدر، وقد حضره خير المسلمين، وخير الملائكة، كما جاء في روايـــة البخاري أن رافع الزرقي قال: جاء جبريل إلى النبي ﷺ فقال: ما تعدون أهل بدر فيكم؟ قال: من أ فضل المسلمين ـــ أو كلمة نحوها ـــ قال جبريل: وكذلك من شهد بدرا مـــن الملائكة.

وجاء إبليس في جند من الشياطين ومعه ذريته في صورة رجال مـــن بـــني مـــدلج والشيطان نفسه في صورة سراقة بن مالك بن جعشم المدلجي ملك بني مدلج، وهم مـــن فرسان العرب، وقال الشيطان للمشركين: لا غالب لكم اليوم من الناس وإني جار لكـــم، فظن المشركون أن شوكتهم قد قويت حتى قال أبوجهل: اللهم أقطعنا للرحم وآتانا بما لا نعرف، فأحنه الغداة، أي أقتله واقض عليه وأذله، فكان هو ا لمستفتح على نفسه، وكـــان

أحد المشركين قد أمسك بيده قبضة الشيطان ليتقوى به باعتباره فارس بني مدلج وملكها، فلما أقبلت الملائكة، وأقبل جبريل انتزع إبليس يده ثم ولى مدبرًا هو وشعيته. فقال الرجل: ياسراقة أما زعمت أنك لنا جار؟ قال: إني أرى ما لا ترون، إني أخاف الله والله شديد العقاب.

قال رفاعة الزرقي: لما رأى إبليس ما فعل الملائكة بالمشركين يوم بدر أشفق أن يخلص إليه، فتشبث به الحارث بن هشام، وهو يظن أنه سراقة بن مالك، فوكز في صدر الحارث، ثم خرج هاربًا حتى ألقى نفسه في البحر ورفع يديه قائلاً: اللهم إني أسألك نظرتك إياي، وخاف أن يخلص القتل إليه.

وأقبل أبوجهل فقال: يا معشر الناس، لا يهولنكم خذلان سراقة بن مالك، فإنه كان على ميعاد مع محمد، ولا يهولنكم قتل شيبة وعتبة والوليد، فإنهم قد عجلوا، فواللات والعزى لا نرجع حتى نفرقهم في الجبال، فلا ألفين رجلاً منكم قتل رجلاً، ولكن خذوهم أخذًا حتى تعرفوهم سوء صنيعهم من مفارقتهم إياكم، ورغبتهم عن اللات والعزى، ثم قال:

ما تنقم الحرب ا لشموس مني بازلُ عامين حديثٌ سنّي
لمثل هذا ولدتني أمي

وأمر النبي ﷺ أن يشتد المسلمون في قتل المشركين قبل أن يتخذوا منهم أسرى، فكان المسلمون حريصين على قتل المشركين كما كان المشركون بأحقادهم حريصين على إفناء المسلمين، وقال النبي ﷺ من قتل قتيلاً فله سلبه، ليعرف كم قتل كل منهم طاعة لأمره.

أخرج البخاري عن عبدالرحمن بن عوف قال: كان أمية بن خلف لي صديقًا بمكة، وكان اسمي عبدعمرو، فتسميت حين أسلمت عبدالرحمن، فكان يلقاني ونحن بمكة فيقول: ياعبدعمرو، رغبت عن اسم سمّاكه أبوك، فأقول: نعم، قال: فإني لا أعرف الرحمن، فاجعل بيني وبينك شيئًا أعرفك به أو أدعوك به، أما أنت فلا تجيبني باسمك الأول، وأما أنا فلا أدعوك بما لا أعرف، وكان إذا دعاني بعبد عمرو لم أجبه، فقلت له: ياأبا علي إجعل ما شئت، فقال: أنت عبدالإله؟ قلت: نعم. فكنت إذا مررت به قال: ياعبد الإله، فأجيبه، فأتحدث معه، حتى إذا كان يوم بدر مررت به وهو واقف مع ابنه علي وهو آخذ بيده، ومعي أدراع لي قد استلبتها فأنا أحملها، فلما رآني قال: ياعبد عمرو، فلم أجبه، فقال: يا عبد الإله، فقلت: نعم، قال: هل لك فيّ، أنا خير لك من هذه الأدراع التي معك — يقصد أن فداءه من الأسر سيكون كبيرًا — قلت: نعم، فطرحت الأدراع من يدي، وأخذت بيده ويد ابنه، وهو يقول: ما رأيت كاليوم قط، ثم خرجت أمشي بهما، وأنا بينه وبين ابنه

آخذا بأيديهما، فقال لي أمية: ياعبد الإله، من الرجل منكم المعلم بريشة نعامة في صدره؟ قلت: حمزة، قال: ذاك الذي فعل بنا الأفاعيل، قال عبدالرحمن: فوالله إني لأقودهما إذ رآه بلال معي — وكان هو الذي يعذب بلالاً بمكة على الإسلام — فلما رآه قال: رأس الكفر أمية بن خلف، لا نجوت إن نجا، قلت: أي بلال: أسيريّ، قال: لا نجوت إن نجا، ثم صرخ بأعلا صوته: ياأنصار الله، رأس الكفر أمية بن خلف، لا نجوت إن نجا، فأحاطوا بنا حتى جعلونا في مثل المسكة، فأنا أذبّ عنه، فخلفت ابنه عليًا لأشغلهم به، وكان أمية ثقيلاً فأدركونا، فقلت له: إبرك، فبرك، فألقيت نفسي عليه لأمنعه فتخللوه بالسيوف، وصاح أمية صيحة ما سمعت بمثلها قط، وأصاب أحدهم رجلي بسيفه.

قال رفاعة بن رافع الزرقي: لما كان يوم بدر تجمع الناس على أمية بن خلف، فأقبلنا إليه، فنظرت إلى قطعة من درعه قد انقطعت من تحت إبطه، فأطعنه بالسيف طعنة.

وأما الابتلاء فإنه يقول: لما كان يوم بدر رُميت بسهم فَفُقئت عيني، فبصق فيها رسول الله ﷺ، ودعا لي، فما آذاني منها شيء.

خاتمة أحد

ثم كان يوم أحد، وهو يوم القرح كما سماه الله عز وجل في قوله ﴿ إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ... ﴾ (آل عمران ١٤٠)، وهو من أشد الأيام على المسلمين وعلى النبي ﷺ، حيث أوذي في نفسه وفي أصحابه وفي أهله، ودخلت حلقتا المغفر في وجنتيه ﷺ، وكسرت ثنيتاه الشريفتان، وتألبت عليه سيوف المشركين لولا عين الله التي تكلؤه هيأت له من أصحابه من تدرعوا دونه، وتحلقوا حوله يتلقون الضربات ويقاتلون ويستشهدون دونه.

ورفاعة مع جند الله المجاهدين يطلب الموت فكتب الله عز وجل له الحياة، وانجلت المعركة عن مقتل أسد الله حمزة في سبعين من المسلمين، ومقتل اثنين وعشرين من المشركين، وإذا كان قد بدا النصر في أول يومها للمسلمين، فإن آخر اليوم كان للمشركين، وخافوا أن يميل الميزان لصالح المسلمين مرة أخرى فقنعوا من الغنيمة بالإياب.

ويأبى الله عز وجل أن يعود المشركون إلى مكة بنشوة النصر، وإنما لا بد أن يرجعهم بذل أشبه بذل الهزيمة، وبكبرياء محطمة، فكانت حمراء الأسد. فبعد أن دفن المسلمون شهداءهم وحملوا قتلاهم إلى المدينة، وأحسوا أنهم أصابهم القرح إذ سمعوا منادي رسول الله ﷺ يأمرهم بالخروج في طلب المشركين واللحاق بهم، وقال: لا ينطلق معي إلا من شهد القتال، وذلك ليسمع المشركون بخروجهم ليعلموا أن بالمسلمين قوة وأن الذي أصابهم لم يوهنهم، ولتعود الثقة إلى نفوس المسلمين، فاستجاب المسلمون على ما بهم من

شدة، وما يثخنهم من جراح.

يقول رجل من بني عبد الأشهل: شهدت أحدًا أنا وأخ لي فرجعنا جريحين، فلما أذن مؤذن رسول الله ﷺ بالخروج في طلب العدو، قلت لأخي: أتفوتنا غزوة مع رسول الله ﷺ؟ والله ما لنا من دابة نركبها، وما منا إلا جريح ثقيل، فخرجنا، وكنت أيسر جرحًا منه، فكان إذا غُلبَ حملته عقبة، ومشى عقبة، حتى انتهينا إلى ما انتهى إليه المسلمون عند حمراء الأسد، وهي من المدينة على ثمانية أميال.

وكان المشركون في الوقت ذاته بلغوا الروحاء في طريقهم إلى مكة، فقالوا يتلاومون: لم تصنعوا شيئًا، أصبتم شوكة القوم وحدهم، ثم تركتموهم و لم تبتروهم، فقد بقي منهم رؤوس يجمعون لكم.

فقال بعضهم: صدقت، أصبنا حد أصحابه وقادتهم وأشرافهم ثم نرجع قبل أن نستأصل شأفتهم، لنكرن على بقيتهم فلنفرغن منهم.

كان النبي ﷺ قد أقام بحمراء الأسد الاثنين والثلاثاء والأربعاء، فمر به معبد الخزاعي وهو مشرك، ولكن خزاعة مسلمها ومشركها كانوا موضع سر النبي ﷺ، يفرحهم نصره، وتحزنهم هزيمته، فقال معبد: يامحمد.. والله لقد عز علينا ما أصابك في أصحابك، ولوددنا أن الله عافاك فيهم، ثم واصل سيره إلى مكة، فلقيه أبوسفيان بالروحاء حيث أجمع المشركون العودة إلى المدينة، فسأله أبوسفيان: ما وراءك يامعبد؟ قال: محمد خرج في أصحابه يطلبكم في جمع لم أر مثله قط، يتحرقون عليكم تحرقًا، قد اجتمع معه من كان تخلف عنه في يومكم، وندموا على ماصنعوا، فيه من الحنق عليكم شيء لم أر مثله قط. قال: ويلك ما تقول؟ قال: والله ما أراك ترتحل حتى ترى نواصي الخيل، قال: فوالله لقد أجمعنا الكرة عليهم لنستأصل شأفتهم، قال: فإني أنهاك عن ذلك، ووالله لقد حملني ما رأيت على أن قلت فيه أبياتًا من شعر، قال: وما قلت؟ قال معبد: قلت:

كادت تهد من الأصوات راحلتي ... إذ سالت الأرض بالجرد الأبابيل
تُردَى بأسد كرام لا تنابلة ... عند اللقاء ولا ميل معازيل
فظلت عدوا أظن الأرض مائلة ... لما سموا برئيس غير مخذول
فقلت ويل ابن حرب من لقائكم ... إذا تغصمطت البطحاء بالجيل
إني نذير لأهل البسل ضاحية ... لكل ذي أربة منهم ومعقول
من جيش أحمد لا وخش قنابله ... وليس يوصف ما أنذرت بالقيل

فخاف أبوسفيان ومن معه، وعادوا إلى مكة مسرعين، يتلفتون خلفهم أن تدركهم جيوش المسلمين، ودخلوها خائفين بنفوس مهزومة بائسة، وبقي المسلمون يومًا ثالثًا ثم

عادوا إلى المدينة أعزة كرامًا، يقول فيهم الله عز وجل: ﴿ **الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِن بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقَوْا أَجْرٌ عَظِيمٌ** ﴾ (آل عمران ١٧٢).

الشعر يعترك

وإذ انتهت أحد في ميادين الطعن بالسنان، فقد اشتعلت في ميدان الفصاحة والبيان واللسان، وحين نثبت هنا أمثلة من أشعار المواقع والغزوات، فلكي ننبه إلى غرض من أغراض الشعر العربي ما زال مجهولاً لم تلتفت إليه مناهج التعليم، وهي التي تقوم بتشكيل الإنسان في مراحل تشكيله العقدي والوجداني والفكري.

حين تقسِّم هذه المناهج عصور الشعر، فإنها تحتفي بما في شعر الجاهلية من بكاء على أطلال ديار الحبيبة وذكر محاسن جسدها، وفجور الشاعر بها وبغيرها، ووصف الخيول التي تستخدم في الصيد وما فيه من تضييع للوقت ومجون وضياع، فإذا وضعت عنوانًا سمّته الأدب الإسلامي ملأته بنقائض جرير والفرزدق، وجنون قيس، وكأنما الإسلام لم يطهر الألسنة من البذاءة، و لم يجعل الوقت ثروة يُسأل عنها الإنسان، فإذا المثل التي توضع أمام المتعلم الناشئ إما سفالة ووضاعة في الفكر والقول، وهتك للأعراض، وتنافس في البذاءة كما في النقائض، وإما إثارة للغرائز ودغدغة للعواطف كما في الغزل.

أما دور الشعر في إنهاض العزائم، وميدانه في نصرة العقيدة، وكونه ديوان العرب، وسجل أيام الإسلام، فهذا ما غفلت عنه المناهج، أو لعلها تغافلت من باب تجفيف المنابع كما يتردد على ألسنتهم وفي أدبياتهم.

ومما قِيل من الشعر في يوم أحد قول هبيرة بن أبي وهب المخزومي، وهو على دين قومه.

ما بال هم عميد بات يطرقني ... بالود من هند إذ تعدو عواديها

باتت تعاتبني هند وتعذلني ... والحرب قد شغلت عني مواليها

مهلاً فلا تعذليني إن من خلقي ... ما قد علمت وما إن لست أخفيها

مساعف لبني كعب بما كلفوا ... حمال عبء وأثقال أعانيها

وقد حملت سلاحي فوق مشترف ... ساط سبوح إذا يجري يباريها

كأنه إذ جرى عير بفدفدة ... مكدم لاحق بالعون يحميها

من آل أعوج يرتاح الندىَ له ... كجذع شعراء مستعل مراقيها

أعددته ورقاق الحد منتخلا ... ومارنا لخطوب قد ألاقيها

هذا وبيضاء مثل النهى محكمة ... لظت عليَّ فما تبدو مساويها

سقنا كنانة من أطراف ذي يمن ... عرض البلاد على ما كان يزجيها

قالت كنانة أنّى تذهبون بنا … قلنا: النخيل، فأموها ومن فيها
نحن الفوارس يوم الجر من أحد … هابت معد فقلنا نحن نأتيها
هابوا ضرابًا وطعنًا صادقًا خدما … مما يرون وقد ضمت قواصيها
ثمّت رحنا كأنا عارض برد … وقام هام بني النجار يبكيها
كأن هامهم عند الوغى فلق … من فيض ربد نفته عن أداحيها
أو حنظل دعدعته الريح في غصن … بال تعاوره منها سوافيها
قد نبذل المال سحًا لا حساب له … ونطعن الخيل شزرا في مآقيها
وليلة يصطفي بالغرث جاورها … يختص بالنقرى المثرين داعيها
وليلة من جمادى ذات أندية … جربا جمادية قد بت أسريها
لا ينبح الكلب فيها غير واحدة … من القريس ولا تسري أفاعيها
أوقدت فيها لذي الضراء جاحمة … كالبرق ذاكية الأركان أحميها
أورثني لكم عمرو ووالده … من قبله كان بالمشتى يغليها
كانوا يبارون أنواء النجوم فما … دنت عن السورة العليا مساعيها

فأجابه حسان بن ثابت قائلاً:

سقتم كنانة جهلا من سفاهتكم … إلى الرسول فجند الله يخزيها
أوردتموها حياض الموت ضاحية … فالنار موعدها والقتل لاقيها
جمعتموهم أحابيشًا بلا حسب … أئمة الكفر غرتكم طواغيها
ألا اعتبرتم بخيل الله إذ قتلت … أهل القليب ومن ألقيته فيها
كم من أسير فككناه بلا ثمن … وجزّ ناصية كنا مواليها

وقال عبدالله بن الزبعري — وهو كافر — في أحد:

ياغراب البين أسمعت فقل … إنما تنطق شيئًا قد فُعل
إن للخير وللشر مدى … وكلا ذلك وجه وقبل
والعطيات خساس بينهم … وسواء قبر مثر ومقل
كل عيش ونعيم زائل … وبنات الدهر يلعبن بكل
أبلغا حسان عني آية … فقريض الشعر يشفي ذا الغلل
كم ترى بالجر من جمجمة … وأكف قد أثرت فيها ورجل
وسرابيل حسان سريت … عن كماة أهلكوا في المنتزل
كم قتلنا من كريم سيد … ماجد الجَدّين مقدام بطل

صادق النجدة قرم بارع ... غير ملتاث لدى وقع الأسل

فسل المهراس ما ساكنه ... بين أقحاف وهام كالحجل

ليت أشياخي ببدر شهدوا ... جزع الخزرج من وقع الأسل

حين حكت بقباء برْكها ... واستحر القتل في عبد الأشل

ثم خفوا عند ذاكم رقصا ... رقص الحفان يعلو في الجبل

فقتلنا الضعف من أشرافهم ... وعد لنا ميل بدر فاعتدل

لا ألوم النفس إلا أننا ... لو كررنا لفعلنا المفتعل

بسيوف الهند تعلو هامهم ... علالا تعلوهم بعد نهل

فأجابه حسان:

ذهبت بابن الزبعري وقعة ... كان منا الفضل فيها لو عدل

ولقد نلتم ونلنا منكم ... وكذاك الحرب أحيانًا دول

نضع الأسياف في أكتافكم ... حيث نهوى علالا بعد نهل

نخرج الأصبح من أستاكم ... كسلاح النيب يأكلن العصل

إذ تولون على أعقابكم ... هربًا في الشعب أشباه الرسل

إذ شددنا شدة صادقة ... فأجأناكم إلى سفح الجبل

بخنا طيل كأشداق الملا ... من يلاقوه من الناس يهل

ضاق عنا الشعب إذ تجزعه ... وملأنا الفرط منه والرحل

برجال لستم أمثالهم ... أيدوا جبريل نصرًا فنزل

وعلونا يوم بدر بالتقى ... طاعة الله وتصديق الرسل

وقتلنا كل رأس منهم ... وقتلنا كل جحجاح رفل

وتركنا في قريش عورة ... يوم بدر والتنابيل الهبل

في قريش من جموع جمعوا ... مثل ما يجمع في الخصب الهمل

نحن لا أمثالكم ولداستها ... نحضر البأس إذا البأس نزل

وجاء فيها:

طاوعوا الشيطان إذ أخزاهموا ... فاستبان الخزي فيهم والفشل

حين صاحوا صيحة واحدة ... مع أبي سفيان قالوا أعْلُ هبل

فأجبناهم جميعًا كلنا ... ربنا الرحمن أعلى وأجل

اثبتوا، تستعملوها مرَّةً ... من حياض الموت والموت نَهل

واعلمــوا أنــا إذا مــــا نضحــــت   عــن حيــال المــوت قــدر تشتعــل

فضل قريش

ظل رفاعة مع النبي ﷺ تلميذًا يتعلّم، وراويًا لأحاديثه، وآخذًا ما آتاه، ومنتهيًا عما نهى عنه، لا يتخلف عن مشهد، ولا يولّي العدو دبره، ولا يتقاعس عن نصرة الحـــق، ولا يفتر عن الدعوة إلى الله تعالى، مدركًا دوره كواحد من الرعيل الأول، الذين لهم شـــرف السبق، وعليهم واجب الجهاد والنصرة، ومهمة التبليغ والتذكير، وعبء التبشير والإنذار، تبوّأ الإيمان كما تبوأه إخوانه الأنصار، فأصبح الإيمان دمه الذي يسري في عروقه، وأنفاسه التي تتردد في صدره، والهواء الذي يتنسّمه، وهذا ما يسمونه التقمّص، ومن ثم فهو يبـــذل نفسه وماله في سبيل دينه الذي هو حياته، فإذا فقد حياة جسده وبقي دينه فقد بقيت لـــه حياته الأبدية الخالدة، وما تبقى من حياة رفاعة وأحداثها بعد وفاة النبي ﷺ، هـــو أبلـــغ برهان، وأقوى حجة على هذه الدعوى.

اجتمع الأنصار في سقيفة بني ساعدة يبحثون الأمر بعد موت النبي ﷺ الذي أذهب الأحلام، وأطار الألباب، فمع أنه بشر، لكنه النبي والقائد والمرشد والمشير والملجأ والملاذ، فعندما خلا مكانه كان خطبًا من المتعذر تحمله، وأمرًا عصيبًا تضل فيــه الــرؤى وتــزل الأقدام.

وحاول الأنصار تدارك الأمر، وكأنما تراءى لبعضهم أن تجـــاوز المصيبـــة يكـــون بإحكام قبضتهم على المدينة، وقد تغيرت تركيبتها السكانية على عهد النبي ﷺ، فلم تعد خالصة للأوس والخزرج، بل لم تعد قاصرة على العرب، فقد جعلها الإسلام أرض إسلام لا أرض عرب، يراها كل مسلم أرضه ووطنه، لأن الوطن لم يعد الأرض، وإنما هو الدين، فالإسلام نسب، وإن الدين ليأرز إلى المدينة كما تأرز الحية إلى جحرها، كما قال النـــبي ﷺ.

لكن رفاعة كان يفكر في موضوع آخر، فإن هذا الأمر لا يجوز ولا يمكن أن يخرج من قريش، فلقد وقع قتادة الظفري مرة في قريش وكأنه نال منـــهم، فقـــال النـــبي ﷺ: ياقتادة، لا تسبّن قريشًا، فإنك لعلك أن ترى منهم رجالاً يزدري عملك مـــن أعمـــالهم، وفعلك مع أفعالهم، وتغبطهم إذا رأيتهم، لولا أن تطغى قريش لأخبرتهم بالذي لهم عنـــد الله.

كذلك روى عليّ رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال فيما أعلم: قدمـــوا قريشًـــا ولا تَقَدّمُوها، لولا أن تبطر قريش لأخبرتها بمالها عند الله عز وجل.

وروى أبوهريرة عن النبي ﷺ أنه قال: اطلبوا ـــ أو قال ـــ التمسـوا الأمانـة في قريش، فإن الأمين من قريش له فضل على أمين من سواهم، وإن قوي قريش له فضـلان على قوي من سواهم.

وعندما بويع القوي أبوبكر ـــ وقد ثبتت قوته منذ وفاة النبي ﷺ حيث زُلزل الناس وبقي ثابتًا، كشف عن وجهه الشريف وقبله ثم قال: طبت حيًا وميتًا، وخرج إلى النـاس وقال: من كان يعبد محمدًا فإن محمدًا قد مات، ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يمـوت ـــ فقد تذكر رفاعة ما سمعه من النبي ﷺ.

يقول رفاعة: إن النبي ﷺ قال لعمر رضي الله عنه: اجمع لي قومك، فجمعهم عمر عند بيت النبي ﷺ، ثم دخل عليه فقال: يارسول الله: أدخلهم عليك أو تخرج إليهم؟ قال: بل أخرج إليهم، قال: فأتاهم، فقال: هل فيكم أحد من غيركم؟ قالوا: نعم، فينا حلفاؤنا، وفينا بنو أخواتنا، وفينا موالينا، فقال: حلفاؤنا منا، وبنو أخواتنا منا، ومواليـنا منـا، وأنتـم ألا تسمعون؟ إن أولياؤه إلا المتقون، فإن كنتم أولئك فذاك، وإلا فانظروا، لا يـأتي النـاس بالأعمال يوم القيامة، وتأتون بالأثقال فنعرض عنكم، ثم رفع يديه فقال: يا أيها الناس، إن قريشًا أهل أمانة، فمن بغاهم العوائر أكبه الله بمنخريه، قالها ثلاثًا، وفي رواية: كبـه الله في النار لوجهه.

مع عليّ

بعد مقتل عثمان رضي الله عنه ومبايعة عليّ رضي الله عنه بالخلافة: فارقه طلحة والزبـير رضـي الله عنهما وخرجا إلى مكة، فالتقيا بأم المؤمنين عائشة مطالبين بقتل قتلة عثمان، ثم خرجـوا جميعًا إلى البصرة، فخشي أمير المؤمنين أن يفتن بهم الناس، فندب أصحابه للخروج إليهم، فلقيه عبدالله بن سلام رضي الله عنه وهو بالربذة، فأخذ بعنان فرسه وقال: يا أمير المؤمنين، لا تخرج منها، فوالله لئن خرجت منها لا يعود إليها سلطان المسلمين أبدًا، فسبّه بعض الناس، فقال علي: دعوه فنعم الرجل من أصحاب النبي ﷺ.

وجاء الحسن بن عليّ إلى أبيه في الطريق، فقال: لقد نهيتك فعصيتني، تقتـل غـدًا بمضيعة لا ناصر لك، فقال له علي: إنك لا تزال تحن عليّ حنين الجارية، وما الذي نهيتني عنه فعصيتك؟ فقال: ألم آمرك قبل مقتل عثمان أن تخرج منها لئلا يُقتل وأنت بها؟ فيقول قائل أو يتحدث متحدث؟ ألم آمرك ألا تبايع الناس بعد مقتل عثمان حتى يبعث إليك أهل كل مصر ببيعتهم؟ وأمرتك حين خرجت هذه المرأة وهذان الرجلان أن تجلس في بيتـك حتى يصطلحوا فعصيتني في ذلك كله؟

فقال علي: أما قولك أن أخرج قبل مقتل عثمان، فلقد أحيط بنا كما أحيط بـه،

وأما مبايعتي قبل مجئ بيعة الأمصار فكرهت أن يضيع هذا الأمر، وأما أن أجلس وقد ذهب هؤلاء إلى ما ذهبوا إليه، فتريد مني أن أكون كالضبع التي يحاط بها، ويقال ليس هاهُنا حتى يشق عرقوبها فتخرج، فإذا لم أنظر فيما يلزمني في هذا الأمر ويعنيني، فمن ينظر فيه؟ فكفّ عني يابنيّ.

ثم قام في الناس خطيبًا فقال: إن الله أعزنا بالإسلام ورفعنا به، وجعلنا به إخوانًا بعد ذلة وقلة وتباغض وتباعد، فجرى الناس على ذلك ما شاء الله، الإسلام دينهم، والحق قائم بينهم، والكتاب إمامهم، حتى أصيب هذا الرجل بأيدي هؤلاء القوم الذين نزغهم الشيطان لينزغ بين هذه الأمة، ألا وإن هذه الأمة لابد مفترقة كما افترقت الأمم قبلها، فنعوذ بالله من شر ما هو كائن، وشرها فرقة تحبني ولا تعمل بعملي، وقد أدركتم ورأيتم، فالزموا دينكم، واهتدوا بهديي فإنه هدي نبيكم، واتبعوا سنته، وأعرضوا عما أشكل عليكم حتى تعرضوه على الكتاب، فما عرفه القرآن فالزموه، وما أنكره فردوه، وارضوا بالله ربًا، وبالإسلام دينًا، وبمحمد نبيًا، وبالقرآن حكمًا وإمامًا.

ثم غاد فقال: العجب لطلحة والزبير، إن الله عز وجل لما قبض رسوله ﷺ قلنا: نحن أهله وأولياؤه لا ينازعنا سلطانه أحد، فأبى علينا قومنا فولوا غيرنا، وأيم الله لولا مخافة الفرقة، وأن يعود الكفر ويبوء الدين لغيّرنا، فصبرنا على بعض الألم، ثم لم نر بحمد الله إلا خيرًا، ثم وثب الناس على عثمان فقتلوه، ثم بايعوني و لم استكره أحدًا، وبايعني طلحة والزبير، و لم يصبرا شهرًا كاملاً حتى خرجا إلى العراق ناكثين، اللهم فخذهما بفتنتهما للمسلمين.

فقام إليه رفاعة الزرقي فقال: ياأمير المؤمنين أي شيء تريد؟ وأين تذهب بنا، فقال: أما الذي نريد وننوي فالإصلاح، إن قبلوا منا وأجابوا إليه، قال: فإن لم يجيبوا إليه؟، قال: ندعهم بغدرهم ونعطيهم الحق والصبر، قال: فإن لم يرضوا؟ قال: ندعهم ما تركونا، قال: فإن لم يتركونا؟ قال: امتنعنا منهم، قال: فنعم إذاً. ثم قام رفاعة فقال: إن الله لما قبض رسوله ﷺ ظننا أنا أحق الناس بهذا الأمر لنصرتنا الرسول ومكاننا من الدين، فقلتم، ونحن المهاجرون الأولون وأولياء رسول الله الأقربون، وإنا نذكركم الله أن تنازعونا مقامه في الناس، فخليناكم والأمر فأنتم أعلم وما كان بينكم، غير أنا لما رأينا الحق معمولاً به، والكتاب متبعًا، والسنة قائمة رضينا، و لم يكن لنا إلا ذلك، فلما رأينا الأثرة أنكرنا لرضا الله عز وجل، ثم بايعناك و لم نأل، وقد خالفك من أنت في أنفسنا خير منه وأرضى، فمرنا بأمرك.

وقام الحجاج بن غزية الأنصاري فقال: يا أمير المؤمنين دراكها، دراكها قبل الفوات، لا وألت نفس إن خفت الموت يامعشر الأنصار، انصروا أمير المؤمنين آخرًا، كما

نصرتم رسول الله ﷺ أولاً، إن الآخرة شبيهة بالأولى، ألا وإن الأولى أفضلهما.

ثم قام علي ﷺ فقال: إن الله عز وجل فرض الجهاد، وجعله نصرته وناصره، وما صلحت دنيا ولا دين إلا به، وإني منيت بأربعة: أدهى الناس وأسخاهم طلحة، وأشجع الناس الزبير، وأطوع الناس في الناس عائشة، وأسرع الناس فتنة يعلى بن أمية.

والله ما أنكروا عليّ منكرًا، ولا استأثرت بمال، ولا ملت بهوى، وإنهم ليطلبون حقًا تركوه، ودمًا سفكوه، ولقد ولوه دوني، ولو أني كنت شريكهم فيما كان لما أنكروه،وما تبعة دم عثمان إلا عليهم، وإنهم لهم الفئة الباغية، بايعوني ونكثوا بيعتي، وما استأثروا بي حتى يعرفوا جوري من عدلي، وإني لراض بحجة الله عليهم وعلمه فيهم، وإني مع ذلك لداعيهم ومعذر إليهم، فإن قبلوا فالتوبة مقبولة، والحق أولى مما أفضوا إليه، فإن أبو أعطيتهم حد السيف، وكفى به شافيًا من باطل، وناصرًا، والله إن طلحة والزبير وعائشة ليعلمون أني على الحق وأنهم مبطلون.

كان المنهج عند رفاعة واضحًا، وكان يريد أن يستوثق منه من أمير المؤمنين، فهو يرى أن الخروج على الإمام الذي تمت له البيعة ويقيم الصلاة فيهم، ويقيم الحدود، هو بغي، والمؤمنون مأمورون بقتال الفئة الباغية، وإذا كان أمير المؤمنين قد أجّل إقامة أحد الحدود فهو لم يعطله، وإنما يُقام الحد حيث لا تؤدي إقامته إلى فتنة، وإذا تأول أمير المؤمنين، حتى لو خالفنا تأويله فطاعته واجبة حتى تنجلي مغبة التأويل، وعندها يمكن أن نعذره، أو نخالفه الرأي، ونعمل على تقويمه إذا ظهر عوجه، ولو بحد السيف، لكن المسارعة في الفتنة خروج يجب وأده والقضاء عليه. فلما رأى رفاعة أن إمامه يستأني على الناس، ويصبر عليهم من غير أن يدعهم ونعيهم، فهذا هو الحق الذي يعتقده، ومن ثم فعندما قال له أمير المؤمنين إنه معهم حتى ولو بقتالهم، قال له: إذًا، يعني إذن نحن معك في صبرك وأناتك، وفي دعوتك لهم وامتناعك منهم، ثم في قتالهم إن كان هو آخر العلاج.

بهذا اليقين خاض رفاعة موقعة الجمل، وشهد صفين، وحارب الخوارج، وبقي على يقينه حتى أتاه اليقين سنة إحدى وأربعين من الهجرة النبوية الشريفة.



سهيل بن بيضاء

قرشي من بني هلال بن أهيب بن ضبة بن الحارث، وفي هلال يلتقي نسب سهيل مع نسب أبي عبيدة بن الجراح، والحارث هو بن فهر حيث يلتقي نسبه مع النبي ﷺ.

أبوه وهب بن ربيعة بن هلال بن أهيب بن ضبة.

وأمه دعد بنت الجحدم بن أمية بن ضبة، من بني الحارث كذلك.

وكنيته أبوأمية.

والبيضاء هي أمه، وكثير من العرب ينتسبون لأمهاتهم، ولعل ذلك لكون الأب له أكثر من زوجة، وقد عدّد الأسماء فله سهيل من زوجة، وله سهيل كذلك من زوجة أخرى، فلا يمكن التفرقة بينهما إلا بالنسبة إلى الأم.

أو تكون الأم قد ربّت فأحسنت التربية حيث فقد الوالد فيذكر لها هذا الشرف بانتساب أبنائها إليها.

أسلم سهيل وأخواه سهل وصفوان في أول الإسلام، وكان سهيل أسبقهم وأكبرهم سنًا، بل كان أسنّ من أسلم في هذه الفترة هو والصدّيق رضي الله عنهما.

قال أنس بن مالك، كان أسن أصحاب النبي ﷺ أبوبكر، وسهيل بن بيضاء.

كان النبي ﷺ في هذه الفترة لا يدعو من قومه إلا أولئك الذين تربطهم به روابط القربى القريبة، أو الصداقة القوية، أو من يتوقع منهم تلبية الدعوة لدين الحق، إذ أنهم أكثر من يعرف حقيقته ويعلم صدقه، ولم يكن إيمانهم من أجل تحقيق مصلحة عاجلة، فهذا أمر رجال الدنيا وطلابها، وإنما كان إيمانهم بوحي السماء، ولا يمكن أن يؤمن أحد بآخر يدعي النبوة إلا إذا عرف منه الأخلاق التي تخوله تلك المترلة من الله.

لم يكن النبي ﷺ يُظهر الدعوة — حينئذ — في مجامع قريش، وإنما كان يدعو أفرادًا بأعينهم، وكان المؤمنون لا يظهرون عبادتهم حذرًا من تعصب قريش لدينها ولأصنامها، وإنما كانوا يخفون ذلك في شعاب مكة، وكان النبي ﷺ يجتمع بهذه الفئة الطليعة على شكل جماعات يرشدهم ويعلمهم ليكون منهم القاعدة الصلبة التي يمكن أن يواجه بها من

يقفون في وجهه ويحولون دون انتشاره، وكان اللقاء في دار الأرقم، وهي المركز الرئيسي للدعوة، بالإضافة إلى دور أخرى في مكة كأنها مراكز فرعية، يلتقي فيها النبي ﷺ ببعض أصحابه، أو يوفد إليهم من قبله من يحمل التعاليم القرآنية والنبوية، كما رأينا دار سعيد بن زيد، وفاطمة بنت الخطاب.

وكانت هذه الطليعة المؤمنة تنتمي إلى كبار بيوتات مكة ووجهائها، بالإضافة إلى عدد محدود من الأرقاء والموالي مثل صهيب وخباب وعامر بن فهيرة، ولكن أكثرية الذين دخلوا في الإسلام في هذه الحقبة هم من السادة والوجهاء مثل الصديق وعثمان والزبير وعبيدة بن الحارث وأبناء بيضاء، وهذا يدل على أن نور الفكر ليس محصوراً في طبقة من الناس، كما أن الإسلام فيه مصلحة الأغنياء والفقراء، والوجهاء والضعفاء.

وعندما حان موعد الجهر بالدعوة كانت قد تكونت طبقة خاصة من المؤمنين الأوائل، قوية في إيمانها، متينة في عقيدتها، مدركة لمسئوليتها، منقادة لقائدها، مطبقة لكل أمر يصدر عنه باندفاع لا يعادله اندفاع، ومحبة لا تدانيها محبة.

انخرط سهيل في سلك هذه الدعوة مع العناصر التي لبت الدعوة بعد أن تم اختيارها بعناية، وإذا كانت الدعوة عامة، فلابد أن يركز النبي ﷺ على من لهم قدرات خاصة في الصبر والتحمل مثل سهيل وغيره من السابقين ليعطوا المثل من أنفسهم لمن يدخل الدعوة بعدهم، وللأجيال التالية التي تتعرض للاضطهاد والأذى لمجرد دعوتهم الناس إلى سلوك طريق الحق والهداية.

إن انتقاء العناصر المؤمنة النشيطة في بدء العمل الإسلامي يُكّون الجماعة المؤمنة التي يعنيها عمر بن الخطاب بقوله: لا إسلام إلا بجماعة.

ولا يضير العاملين في مجال الدعوة ما يروجه أعداؤهم من شائعات حولهم بقصد تشويه سمعتهم، كما لا يضيرهم أن هناك من يستغلون الإسلام طمعًا في تحقيق مآربهم الشخصية، فينتحلون سمت المسلمين، ويزينون أعمالهم فيصدقهم الكثيرون من بسطاء الناس أو من المنتفعين بهذا الكذب والبهتان.

هذا بالإضافة إلى أن من بيدهم السلطة يتخذون لهم أنصارًا قد يكونون ممن ينتسبون إلى العلم، فيوجهونهم حيث يريدون تبعًا لمناهج وخطط مقصودة.

وما أصحاب النفوذ والسلطان في أزماننا هذه التي ضعفت فيها شوكة المسلمين إلا صنائع لمنظمات أو دول تقعدهم على سدة الحكم ليقدموا لهم الخدمات التي من أهمها تقليل شأن الدين، وإذلال أهل العلم به.

ظنت قريش أن دعوة النبي ﷺ ستقتصر عليه وعلى أفراد قلائل تربطهم به بعض

الروابط، وتجمعهم به بعض اللقاءات، ولن يكون لهذه الدعوة أثر في المجتمع، فلن تغير شيئًا من معالمه، فهي دعوة دينية، وليس من السهل تبديل العقيدة مهما كانت تفاهتها، ولكن مواجهتها للإسلام أخذت مظهر الشدة منذ البداية لأنه سفه أحلامها، وعـاب آلهتـها، واستهزأ بأصنامها.

لكن خاب ظن قريش إذ بدأت الدعوة تنتشر بين مختلف الفئات والمستويات حتى ممن كانوا يقفون بشدة في وجه الدعوة، فشنت حربًا شاملة ضد هذه الطليعـة المؤمنة وقائدها العظيم، فاستخدمت أسلحة الدّعاية المغرضة، ووسائل الحرب النفسية والاقتصادية والسياسية، بالإضافة إلى التعذيب البدني ولو أدى إلى موت من يعذبونه كما حدث لياسر وسمية، أو فقدانه بعض حواسه كما حدث لعين عثمان بن مظعون.

ولم يسلم من هذه الحرب سيد أو مولى من المسلمين، إذ أصبح الجميع مستضعفين بحكم خروجهم على نسق الجاهلية وعبادتها الضالة، وآلهتها التي لا تملك لهم ولا لنفسـها ضرًا ولا نفعًا ولا موتًا ولا حياة ولا نشورًا.

إن العالم اليوم بأسره يقاوم الدعوة ــ شأن مجتمع مكة ــ ويقف في وجه نجاحـها متخذًا كافة المنجزات والوسائل العلمية الحديثة، لأن نجاح الدعوة نهاية مصالحة، وخاتمـة لسيطرة المهيمنين عليه.

فالمصالح الأجنبية تنتهي بنجاح الدعوة الإسلامية، إذ بنجاحها ينتشر الفكر المستنير بين أبنائها للتخلص من الظلم والعمل على نشر الإسلام كما حدث مع الجيل الأول.

والمجتمعات غير المسلمة التي يعيش في ربوعها مسلمون تقف في وجه الدعـوة لأن معنى نجاحها القضاء على ظلم الحكام، والتخلص من مفاسد أصحاب الشهوات، والتطبيق لشرع الله في الأرض. إنها معركة متصلة منذ بزغ فجر الدعوة فيها طرف يقاتل في سبيل الله، وطرف يقاتل في سبيل الطاغوت، وسوف ينتصر الخير والحق ويبطل كيد الشيطان، إن كيد الشيطان كان ضعيفًا.

وسوف يصبر الدعاة ويقفون أمام كل التحديات ــ بإذن الله ــ لا يخشون جمـع الناس لهم، وإنما يزيدهم ذلك إيمانًا، لا يبتغون به إلا وجه الله وحده، ويتعاملون مع الناس بسلوك الإسلام الذي ارتضاه لهم ربهم، ثم يكون لهم النصر كما كان لمن قبلهم ﴿ الَّذِيـنَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيـلُ ۝ فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ﴾ (آل عمران ١٧٣-١٧٤).

اختلف تعامل المسلمين مع هجمة قريش الشرسة عليهم، وكل واحـد منـهم في

موقفه، ينصر الإسلام، ويحافظ على دينه، ويعمل من أجله، ويعطي المثل لأصحاب العزائم في مواجهة الأعداء.

بعضهم جهر وتعذب وأوذي وصبر، ثم استجاب لأمر النبي ﷺ بالهجرة إلى الحبشة حين قال لهم: لو خرجتم إلى أرض الحبشة، فإن بها ملكًا لا يُظلم عنده أحد، وهي أرض صدق، حتى يجعل الله لكم فرجًا مما أنتم فيه.

وبعضهم خاف على نفسه الفتنة في الدين، وتوجس من هذه الهجرة إلى بلد يكون فيها غريب الوجه واليد واللسان، ويرى أن له دورًا يمكن أن يؤديه إن هو كتم دينه، واستخفى بعقيدته حتى يقضي الله بينه وبين أعدائه.

اختار سهيل بن بيضاء طريق الهجرة والمجاهرة، وتحمل الأذى على كبر سنه، ثم هاجر إلى الحبشة في أول هجرة في الإسلام.

بينما سلك الطريق الثاني أخوه سهل بن بيضاء، فقد كتم إسلامه، وبقى حول النبي ﷺ يخذّل عنه، ويعمل لنصرته متى أتيحت له الوسائل، وقد تمكن من ذلك إبان المقاطعة الاقتصادية والعزل الاجتماعي الذي مارسه المكيون تجاه النبي ﷺ ومن ناصره.

محنة الشعب

لما رأت قريش أن بني عبد مناف لا يمكن أن يخذلوا محمدًا، وأن عمه أبا طالب مازال ينصره، وأن قومه رفضوا تسليمه مقابل دية مضاعفة، وأن عمه قد أبى أن يأخذ سيدًا من شبابهم بدل ابن أخيه الذي أرادوه ليقتلوه — إذ مشى جمع من وجهاء قريش إلى أبي طالب بعمارة بن الوليد بن المغيرة، فقالوا له: يا أباطالب، هذا عمارة بن الوليد أنهد فتى وأجمله، فخذه فلك عقله ونصره، واتخذه ولدًا فهو لك، وأسلم إلينا ابن أخيك هذا الذي خالف دينك ودين آبائك، وفرق جماعة قومك، وسفّه أحلامهم فنقتله، فإنما هو رجل برجل.

قال أبوطالب: والله لبئس ما تسومونني، أتعطوني ابنكم فأغذوه لكم، وأعطيكم ابني تقتلونه؟!، هذا والله لا يكون أبدا.

ولما رأت قريش ذلك، ورأت أن أصحاب النبي ﷺ يزيدون يوما بعد يوم، وأنهم قد وجدوا في الحبشة أمنا ومقرا، وأن الإسلام قد بدأ ينتشر بين القبائل الأخرى، وقد زادت منعته في قريش بإسلام عمر وحمزة، وهما من شجعان قريش وسادها، لما رأت هذا اجتمع وجهاؤها وائتمروا فيما بينهم على مقاطعة من ينصر محمدا مقاطعة اقتصادية، وعزلهم عزلا اجتماعيا، وكتبوا في صحيفة علقوها في الكعبة أن لا ينكحوا إليهم ولا ينكحوهم، ولا يبيعوهم شيئا، ولا يبتاعوا منهم، ثم تعاهدوا وتواثقوا على ذلك.

فلما فعلت قريش ذلك انقسم بنو عبد مناف إلى قسمين:

بنو هاشم وبنو المطلب انحازوا إلى أبي طالب، ودخلوا معه في الشعب واجتمعوا إليه ماعدا أبالهب الذي ظاهر قريشًا على ابن أخيه.

والقسم الثاني: وهم بنو نوفل وبنو عبدشمس فقد انضموا إلى قريش.

بقي المسلمون في الشعب سنتين أو ثلاثًا، و لم يستطيعوا الخروج إلا في الأشهر الحرم، حتى جهدوا، ولا يصل شيء إلا سرًا ومستخفيًا به من أراد صلتهم من قريش، وقد ساءت صحتهم، وبليت ملابسهم، وجفت أثداء النساء من الجوع والعطش، وشحبت الوجوه، وذوت الأبدان، وذبلت الأعضاء، وكان رسول الله ﷺ يمر بينهم، وهو يحمل أضعاف ما يحملونه، فيرى فوق هذه البطون الضامرة صدورًا عامرة بالثقة تشكل مجتمعًا متكافلاً.

وحين كان أهل الشعب يترلون في الأشهر الحرم إلى مكة، ويرى شباب الإسلام صخبها فيذكرون حياتهم الماضية، وقد كانت ناعمة، بينما هم اليوم ثيابهم بالية، وأجسامهم مقوسة وقد أضناها الجوع والألم، فيعافون هذا النعيم الذي يرونه، وينظرون إلى المستقبل، فإذا هذا النعيم ينقلب في أعينهم إلى جحيم يتصورونه، ويتملاه المسلم يوم يقف الناس لرب العالمين، فيخلد أهله في النار، بينما هم في روضة يحبرون، خالدين في الجنة، فرحين بما آتاهم الله من فضله، فيرى روضة الإيمان في ذلك الشعب البائس، في تلك المنطقة الموحشة، التي لا يسمع فيها إلا بكاء الرضع الجياع، وصياح الأطفال، مع تأوهات المرضى، يطغى عليها دعاء الله وكلمات التوحيد، تنطلق من المسلمين الذين يقيمون مع أهلهم، سواء كانوا على عقيدتهم أم لا.

يقول الأستاذ محمود شاكر في كتابه " التاريخ الإسلامي ": يتساءل البعض.. هل يصح الانضواء في صفوف مؤسسة جاهلية لاتخاذها مظلة يتقي بها شر الأعداء، ويعمل من خلالها لفكرته، ويستندون إلى دخول النبي ﷺ مكة بعد عودته من الطائف في جوار المطعم بن عدي، ودخول أبي بكر في جوار ابن الدعنه، ودخول ابن مظعون في جوار الوليد بن المغيرة، ثم دخول النبي ﷺ مع بني هاشم وبني المطلب إلى الشعب.

يستطرد فيقول: والجواب.. لا يصح ذلك للأسباب الآتية:

دخول فرد في جوار فرد يختلف عن دخول فرد في حماية مؤسسة، إذ أن علاقة الفرد بالآخر تبقى علاقة فردية، ربما تزداد وتتوطد، وربما تنفصم عند أحدهما عندما يجد أن هذه العلاقة غير منسجمة مع أفكاره ومبادئه، وهذا ما حدث عندما رد أبوبكر جوار ابن الدغنة، وعندما رد عثمان بن مظعون جوار ابن المغيرة، أما العلاقة مع مؤسسة، فما

دام الفرد عضوًا فيها فيجب أن يخضع لها ويسير على نهجها، ويتبع أفكارها ولو أنها تباين أفكاره، خاصة وأنه ضعيف.

دخول النبي ﷺ مع بني هاشم وبني المطلب في شعب أبي طالب كان دخول فرد مع أسرته وحماته، ولكنه لم يسمح للمسلمين من غير هذين الحيين بالدخول معهم، وإنما طلب منهم أن يهاجروا إلى الحبشة الهجرة الثانية، وخاصة الضعفاء في قبائلهم، أو الذين لا يستطيعون حماية أنفسهم، ومعنى هذا رفض دخول فرد مسلم في حماية جماعة، على الرغم من وجوده هو فيها.

دخول الرسول ﷺ في شعب أبي طالب لم يكن دخول فرد فيها، وإنما كان هو المحور الذي يدور حوله ذلك المجتمع، والعنصر المحرك فيه، فكان إذا جن الليل وآوى النبي ﷺ إلى فراشه طلب منه عمه أبو طالب أن ينتقل فينام في فراش أحد أبناء عمومته، ويأتي هذا القريب فينام في فراش النبي ﷺ، وذلك حماية له حتى لا يصاب بأذى إن أراد أحد به مكرًا أو اغتيالاً، وإنما يصاب غيره، أما غير النبي ﷺ إذا انضم إلى مؤسسة ضاع بين أفرادها، وخاصة إذا كانت المؤسسة ذات سلطة، وكان هو ضعيفًا، وأراد أن يحتمي بها، وهذا سبب دخوله إليها في الأصل.

❁ ❁ ❁

إذا كانت مقاطعة المسلمين في الشعب أظهرت كيف تقسو قلوب بعض البشر، فتصبح أشد قسوة من الحجارة مثل قلب أبي لهب، وقد قابلته هند بنت عتبة فقالت له: كيف تراك يا أبا عتبة وقد فارقت ابن أخيك وظاهرت عليه، فقال لها: ياابنة عتبة، لقد نصرت اللات والعزى وفارقت من فارقها، وظاهر عليها. فقالت: نعم، فجزاك الله خيرا يا أبا عتبة.

وحدثت هند أنه كان يقول ـــ في بعض ما يقول ـــ يعدني محمد أشياء لا أراها يزعم أنها كائنة بعد الموت، فماذا وضع في يدي بعد ذلك، ثم ينفخ في يديه فيقول: تبا لكما، لا أرى فيكما شيئا مما يقول محمد.

ولكن هذا الحصار أثبت كذلك أن من القلوب ما يتألم لألم غيره ولو خالفه في الرأي أو عارضه في العقيدة.

من هؤلاء أبوطالب ـــ وكان على دين قومه ومات عليه ـــ كان يشفق على ابن أخيه حتى يجعل أبناءه فداء له فيرسلهم ينامون في فراشه حتى يصبهم الأذى الذي يمكن أن يتعرض له ابن أخيه.

وفي نبأ الصحيفة قال:

ألا أبلغا عني على ذات بيننا ... لؤيا، وخُصّا من لؤي بني كعب
ألم تعلموا أنا وجدنا محمدًا ... نبيا كموسى خط في أول الكتب
وأن عليه في العباد محبة ... ولا خير ممن خصه الله بالحب
وأن الذي ألصقتموا من كتابكم ... لكم كائن نحسا كراغية الشعب
أفيقوا أفيقوا قبل أن يحفر الثرى ... ويصبح من لم يجن ذنبًا كذي الذنب
ولا تتبعوا أمر الوشاة وتقطعوا ... أواصرنا بعد المودة والقرب
وتستجلبوا حربًا عوانًا وربما ... أمر على من ذاقه حلب الحرب
فلسنا ورب البيت نسلم أحمدًا ... لعزاء من عض الزمان ولا كرب
ولما تبن منا ومنكم سوالف ... وأيد أثرت بالقساسية الشهب
بمعترك ضيق ترى كسر القنا ... به والنسور الطخم يكلفن كالشرب
كأن ضحال الخيل في حجراته ... ومعمعة الأبطال معركة الحرب
أليس أبونا آدم شد أزره ... وأوصى بنيه بالطعان وبالضرب
ولسنا نمل الحرب حتى تملنا ... ولا نشتكي ما قد ينوب من النكب
ولكننا أهل الحفائظ والنهي ... إذا طار أرواح الكماة من الرعب

ومنهم حكيم بن حزام بن خويلد، فقد لقيه أبو جهل ومعه غلام يحمل قمحًا يريد به عمته خديجة وهي في الشعب عند النبي ﷺ، فتعلق به أبو جهل وقال: أتذهب بالطعام إلى بني هاشم؟ والله لا تذهب أنت وطعامك حتى أفضحك بمكة، فجاءه أبو البختري بن هشام فقال: مالك وله؟ قال: يحمل الطعام إلى بني هاشم، فقال له البختري: طعام كان لعمته عنده، بعثت به إليه، أتمنعه أن يأتيها بطعامها؟ خل بين الرجل، فأبى أبو جهل أن يتركه، حتى نال أحدهما من صاحبه، فأخذه أبو البختري لحي بعير فضربه فشجه ووطئه وطئًا شديدًا، وحمزة بن عبدالمطلب قريب منهم يري ذلك، وهم يكرهون أن يبلغ رسول الله ﷺ شيئا من ذلك فيشمتوا بهم، ورسول الله ﷺ على ذلك يدعو قومه ليلا ونهارا وسرا وجهرا مناديا بأمر الله تعالى لا يتقي فيه أحدا من الناس.

ومنهم هشام بن عمرو العامري أدخل على أهل الشعب في ليلة ثلاثة جمال طعاما فعلمت بذلك قريش، فمشوا إليه حين أصبح وكلموه في ذلك، فقال إني غير عائد لشيء أخالفكم فيه، ثم أدخل عليه ثانيا جملا أو جملين، فعلمت به قريش فغالظته (أغلظت له في القول وهمت بإيذائه) فقال أبو سفيان بن حرب: دعوه، وصل رحمه، أما أني أحلف بالله لو فعلنا مثل ما فعل كان أحسن لنا.

الخروج الكريم

كل ذلك ورسول الله ﷺ ماض فيما أمر به، يجهر إلى قريش بالإسلام في ناديهم، ويتعرض لمن يؤم البيت الحرام من غير أهل مكة، وقومه له بالمرصاد يسخرون منه، ويستهزئون به، ويصدون الناس عن الاستماع إليه، ويتهمونه بالجنون والسحر والكهانة والشعر، وهو يصبر على أذاهم ويحتسب عند الله ما يصيبه هو وأهله، ويعتبرون ذلك قليلاً في جنب الله الذي أنعم بالإسلام وأعظم بها نعمة.

وفي هذه الأثناء تبرز أدوار بعض الذين كتموا إيمانهم مثل سهل بن بيضاء، وقد تحسس أوتار الرحمة في قلوب بعض أهل مكة وسادتها ممن ساهموا في كتابة هذه الصحيفة، فوضع يده يحرك هذه الأوتار، ويخاطب ما سلم من الفطرة في نفوسهم، ويحرضهم على رفع الغمة عن أقربائهم وذويهم الذين أخذت منهم السنون، وأورثتهم أمراضًا، وكلفتهم شططًا من الحياة،وشظفًا من العيش، ومتاعب جمة من تقلبات الجو، وهزالاً وعجافة من قلة الطعام والشراب.

بدأ سهيل يستجيش هذه العواطف، فيمسّها مسًّا رفيقًا، ثم عندما وجد استجابة وآذنًا صاغية أفصح عن تعاطفه وإشفاقه على أولئك المحصورين، وعاب على هؤلاء قطيعة الرحم، والقسوة على الشيوخ والأطفال والنساء، والتنكر لأواصر القربى والمصاهرة، فإذا القوم يستمعون إليه، وإذا كلامه يهز قلوبهم هزًا عنيفًا، وإذا عقولهم تصحو من غفلتها، فيبحثون عن وسيلة للتكفير أو التنصل.

وبينما هم يديرون الأمر، ويقلبه كل واحد في نفسه دون أن يعلم به الآخرون، إذ حدث أمر لم يروا أعجب منه أخرج ما كان يدور حديثًا في نفوسهم إلى عمل واضح للعيان.

فقد قال النبي ﷺ لعمه أبي طالب: إن الله سلط الأرضة على صحيفة الظلم والمقاطعة، فأكلت ما فيها من ذكر الله، وأبقت ما يتصل بالظلم وقطيعة الحرم، أو أنها أكلت ما يختص بالظلم والقطيعة، ولم يبق فيها إلا كلمة باسمك اللهم، فقال أبو طالب: والثواقب من النجوم ما كذبتني قط، أربك أخبرك بهذا الخبر؟ قال: نعم، قال: فوالله ما دخل عليه أحد، ثم خرج أبوطالب إلى بعض أهله فذكر لهم ما سمعه، وقالوا له: ما ترى؟ قال: أرى أن تلبسوا أحسن ثيابكم وتخرجوا إلى قريش فتذكروا ذلك لهم قبل أن يبلغهم الخبر.

فخرجوا حتى أتوا المسجد على خوف من المشركين، فلما رأتهم قريش ظنت أنهم خرجوا من شدة البلاء ليسلموا رسول الله ﷺ لهم، فتكلم أبوطالب وقال: جرت أمور بيننا وبينكم، فأتوا بصحيفتكم التي فيها مواثيقكم، فلعله أن يكون بيننا وبينكم صلح،

فأتوا بصحيفتهم لا يشكون أن الرسول الكريم سيدفع إليهم، وقالوا يوبخون أبا طالب ومن معه: قد آن لكم أن ترجعوا عما أحدثتم علينا وعلى أنفسكم، فقال أبوطالب: إنما أتيتكم في أمر نصف بيننا وبينكم، إن ابن أخي أخبرني أن هذه الصحيفة التي بين أيديكم قد بعث الله تعالى عليها دابة لم تترك فيها اسمًا من أسماء الله إلا لحسته، وتركت فيها غدركم وتظاهركم علينا بالظلم، إن صحيفتكم هذه صحيفة إثم وقطيعة رحم، فإن كان الحديث كما يقول فأفيقوا، وإن لم ترجعوا فوالله لا نسلمه حتى نموت من عند آخرنا، وإن كان الذي يقول باطلاً دفعنا إليكم صاحبكم فقتلتم أو استحييتم، قالوا: رضينا بالذي تقول، أنصفتنا، ففتحوا الصحيفة فوجدوا الأمر كما أخبر به الصادق المصدوق ﷺ، فلما رأت قريش صدق ما جاء به أبوطالب قال أكثرهم: هذا سحر ابن أخيك، وزادهم ذلك بغيًا وعدوانًا، وبعضهم ندم، وقال: هذا بغي منا على إخواننا وظلم لهم.

فلما رأى أبو طالب ذلك قال: يامعشر قريش، علام نحصر ونجلس، وقد بان الأمر وتبين لكم أنكم أولى بالظلم والإساءة والقطعية، ثم دخل هو ومن معه بين أستار الكعبة، وقالوا: اللهم انصرنا على من ظلمنا، وقطع أرحامنا، واستحل ما يحرم عليه منا، ثم انصرفوا إلى الشعب.

هنا تحرك خمسة من الذين كان يحرضهم سهل بن بيضاء لنقض الصحيفة.

مشى هشام بن عمرو العامري ـــ وكان ذا شرف في قومه ـــ إلى زهير بن أمية المخزومي، وهو ابن عاتكة بنت عبدالمطلب، فقال له: يازهير، أقد رضيت أن تأكل الطعام وتلبس الثياب وتنكح النساء، وأخوالك حيث علمت، لا يبتاعون ولا يبتاع منهم، ولا ينكحون ولا ينكح إليهم؟ أما إني أحلف بالله لو كانوا أخوال أبي الحكم بن هشام ثم دعوته إلى مثل ما دعاك إليه منهم ما أجابك إليه أبدًا.

قال زهير: ويحك يا هشام، فماذا أصنع؟ إنما أنا رجل واحد، والله لو كان معي رجل آخر لقمت في نقضها، قال: قد وجدت رجلاً، قال: من هو؟، قال: أنا، فقال له زهير: أبغنا ثالثًا. فذهب هشام إلى المطعم بن عدي، فقال: يا مطعم، أقد رضيت أن يهلك بطنان من بني عبد مناف وأنت شاهد على ذلك موافق لقريش، أما والله لئن أمكنتموهم من هذه لتجدنهم إليها منكم سراعًا، قال: ويحك، فماذا أصنع؟ إنما أنا رجل واحد. قال: قد وجدت لك ثانيًا، قال: من؟ قال: أنا، قال: ابغنا ثالثًا، قال هشام: قد فعلت، قال المطعم: من هو؟ قال: زهير بن أبي أمية، قال: ابغنا رابعًا، فذهب هشام إلى أبي البختري بن هشام، فقال له مثل ما قال للمطعم، فقال: وهل تجد أحدا يعين على هذا؟ قال: نعم، قال: من هو؟ قال هشام: زهير والمطعم بن عدي وأنا معك، قال: ابغنا خامسا، فذهب إلى زمعة بن الأسود، فكلمه وذكر له قرابتهم وحقهم، فقال زمعة: وهل على هذا الأمر الذي

تدعوني إليه من أحد؟ قال: نعم، ثم سمى القوم.

تواعد الخمسة عند الحجون باعلا مكة ليلاً، وهناك أجمعوا أمرهم وتعاقدوا على القيام في الصحيفة حتى ينقضوها، وقال زهير: أنا أبدؤكم فأكون أول من يتكلم.

فلما أصبحوا غدوا إلى أنديتهم، وغدا زهير بن أبي أمية عليه حلة، فطاف بالبيت سبعًا ثم أقبل على الناس، فقال: يا أهل مكة، أنأكل الطعام ونلبس الثياب وبنو هاشم هلكى، لا يبتاعون، ولا يُبْتَاعُ منهم؟ والله لا أقعد حتى تشق هذه الصحيفة القاطعة الظالمة، قال أبوجهل ـــ وكان في ناحية المسجد ـــ والله لا تشق، قال زمعة: أنت والله أكذب، ما رضينا كتابتها حين كُتبت، قال أبوالبختري: صدق زمعة، لا نرضى ما كتب فيها ولا نقر به. قال المطعم: صدقتما، وكذب من قال غير ذلك، نبرأ إلى الله منها ومما كتب فيها. وقال هشام بن عمرو شبيهًا بذلك، فقال أبوجهل: هذا أمر قد قضي بليل تشوور فيه بغير هذا المكان، وأبو طالب جالس في ناحية المسجد يشهد كل ذلك، وقام المطعم إلى الصحيفة فشق ما بقي منها بعدما أكلتها الأرضة، وخرجت الجماعة المسلمة دون أن يسلموا رسول الله ﷺ، خرجوا محملين بالأمراض والمشكلات الصحية، ولكنهم محملين بطاقة على المقاومة، وقدرة على الإصرار، ورصيد هائل من الصبر على الشدائد والمحن، وبيقين بالله عز وجل الذي لم يتخل عنهم في الشعب، فأسبغ عليهم الرضا، وقوّى منهم العزائم، و لم يتخل عنهم حين هيأ مثل سهل بن بيضاء ليخذل عن عباده، و لم يتخل عنهم حين أرسل الأرضة ـــ وهي من جنوده ـــ لتنقض صحيفة الإثم والإساءة وقطيعة الرحم.

وفي أمر الصحيفة يقول أبو طالب مخاطبًا الذين ركبوا البحر مهاجرين إلى الحبشة، ويذكر ابن بيضاء والخمسة الذين نقضوا الصحيفة:

ألا هل أتى بحرينا صنع ربنا ... على نأيهم والله بالناس أرْوَدُ
فيخبرهم أن الصحيفة مُزّقت ... وأن كل ما لم يرضه الله مفسد
تراوحها إفك وسحر مجمّع ... و لم يُلف سِحْر آخر الدهر يصعد
تداعى لها من ليس فيها بقرقر ... فطائرها في رأسها يتردد
وكانت كفاءً وقعةٌ بأثيمة ... ليُقطع منها ساعد ومقلد
ويطعن أهل المكتين فيهربوا ... فرائصهم من خشية الشر تُرعد
ويترك حرّاث يقلب أمره ... أيُتهم فيها عند ذاك وينجد
وتصعد بين الأخشبين كتيبة ... لها حدجٌ سهمٌ وقوسٌ ومرهد
فمن ينْس من حضار مكة عزة ... فعزتنا في بطن مكة أتلد
نشأنا بها والناس فيها قلائل ... فلم تنفك تزداد خيرا وتحمد
ونطعم حتى يترك الناس فضلهم ... إذا جعلت أيدي المفيضين ترعد

جزى الله رهطًا بالحجون تجمعوا ... على ملأ يهدي لحزم ويرشد
قعود لدى حطم الحجون كأنهم ... مقاولة بل هم أعز وأمجد
أعان عليها كل صقر كأنه ... إذا ما مشى في رفرف الدرع أحرد
جرئ على جل الخطوب كأنه ... شهاب يكنى قابس يتوقد
من الأكرمين من لوى وغالب ... إذا سيم خسفًا وجهه يتربّد
طويل النجاد خارج نصف ساقه ... على وجهه يُسقى الغمام ويسعد
عظيم الرماد سيد وابن سيد ... يحض على مقرى الضيوف ويحشد
ويبني لأبناء العشيرة صالحًا ... إذا نحن طفنا في البلاد ويمهد
ألظّ بهذا الصلح كل مبرّأ ... عظيم اللواء أمره ثم يحمد
قضوا ما قضوا في ليلهم ثم أصبحوا ... على مهل وسائر الناس رقّد
هموا رجعوا سهل بن بيضاء راضيًا ... وسُرَّ أبوبكر بها ومحمد
متى شرك الأقوام في جل أمرنا ... وكنا قديمًا قبلها نتودد
وكنا قديمًا لا نقر ظلامة ... وندرك ما شئنا ولا نتشدد
فيا لقصي هل لكم في نفوسكم ... وهل لكم فيما يجيء به غد
فإني وإياكم كما قال قائل ... لديك البيان لو تكلمت أسود

❁ ❁ ❁

لم يتحمل سهيل بن بيضاء وهو في الحبشة ما يصله من أخبار الضر الذي يتعرض له النبي ﷺ، فعاد من الحبشة ليتحمل مع قائده ويؤازره ويحميه ويفديه بنفسه إن لزم الأمر.

عاد سهيل لينصر دين الله بالجهر به في معقل الكفر والضلال، بمثل ما ينصره أ خوه سهل بالكتمان، فيعرف الأخبار ويدفع عن الدين كيد الكائدين.

بعد هجرة النبي ﷺ جمع سهيل أجر الهجرتين، هجرة الحبشة، ثم هجرة المدينة حيث لحق بالنبي ﷺ.

ثم كان يوم الفرقان، يوم بدر، وفيه كان سهيل مجاهدًا مسلمًا، بينما خرج سهل مع المشركين، وهناك عرض نفسه للأسر، وبعد انتهاء المعركة بنصر المسلمين وطلب الآسرون الفدية من أسراهم، فقد أعلن سهل ما كان يكتمه، إذ لم تعد مصلحة في الكتمان لدعوته، فقد أعلن أنه مسلم، وأنه كان مسلمًا من قبل ولكنه بقي في مكة يكتم إسلامه، وكان للإسلام مصلحة في ذلك، أما اليوم وقد بدأت المواجهة المسلحة، فإن مصلحة الإسلام في أن ينضوي تحت لوائه وأن يفاصل أهل مكة مفاصلة جسدية بعد أن كان يفاصلهم مفاصلة شعورية وروحية من قبل، وشهد على إسلامه عبدالله بن مسعود فأعفي من الفدية

وأفسح له مكان في دار الإسلام.

كُتِبَ سهل في ديوان السابقين إلى الإسلام، وفي ديوان المجاهدين في سبيله، وفي ديوان المهاجرين إلى الله.

وكُتِبَ سهيل في كل هذه الدواوين، ولكن أضيف إليها ديوان الشرف الرفيع على مدار التاريخ، وهو ديوان أهل بدر الذين رمى الله عنهم أعداءهم، وقتلهم لهم، وقال لهم افعلوا ما شئتم فقد غفرت لكم، وجاء في حديث أن سهيل بن بيضاء مات في المدينة، وصلى عليه النبي ﷺ في المسجد، وفي حديث آخر عن عائشة رضي الله عنها ما صلى النبي ﷺ على سهل وسهيل ابني بيضاء إلا في المسجد.

أما صفوان بن بيضاء ثالثهم، فهو مثل أخيه سهيل من أهل بدر، فقد كان من شهودها، ولعله من شهدائها، وقد ننشر له صحيفة خاصة به إذا وفّق الله وأعان.





أبـو مسعود البـدري

اسمه عقبة بن عمرو بن ثعلبة من الخزرج، ولكنه اشتهر بكنيته.

وإذا كان نال شرف أن يكون سابقًا إلى الإسلام، وشاهدًا بيعة العقبة ــ وكــان أصغرهم سنًا ــ ونال شرف النصرة، فإنه كذلك حصل على لقب [البدري] لأنه لفـرط تعلقه بالمكان، وما غشيه من ملائكة، وما تجلى فيه من رحمة الله، ومـا أفـاء الله علـى المسلمين من نصره، فإن أبا مسعود قد اتخذ من هذا المكان دارًا للسكنى، فلصق به اللقب المبارك.

ولكن هذا اللقب نشر عليه ظلالاً عند كتاب المغازي، فبينما يعده البخاري وابـن كثير من أهل بدر، يختلف على ذلك آخرون ويعتبرون لقبه من أجل سكناه، لا من أجـل شهوده الموقعة، وليس أبو مسعود وحده من اختلف الرواة حول شهوده بدرًا.

كانت فتوة أبي مسعود حين رضي الله عنه وأدخله الإسلام باب خير له، إذ أن عنده مـن الحيوية ما يخف به للمهام الجليلة التي ألقاها الإسلام على كاهل أتباعه، وحملهم أمانة القيام بها، دعوةً، وتعلمًا، وتعليمًا، وتخلقًا، وسلوكًا.

فهو لم ينغمس في حمأة الجاهلية للدرجة التي ينتهك فيها نقاء الفطرة فيه.

وهو لم يتشرّب فكر الجاهلية بأنساقه المنكوسة، التي سنت لها أعرافًا تميل إلى حمـل الضغائن، والإشادة بالمظالم، والاحتفال بالبغي والعدوان، حتى أثر من أسمائـهم، أسـد، وكلب، وظالم، ومجرم بما توسوس به هذه الأسماء من الوحشية وقسـوة القلـب وإيثـار التقاطع والتدابر على التواصل والتراحم.

كان قلب أبي مسعود مرآة نقية تنعكس عليها هالات الرحمة، وتتكـاثف علـى صفحاتها أنداء المحبة، وتتوهج في صفائها شيم الترفع والحياء والإباء والعزة كما أفـاضت عليها فيوض الإشراقات النبوية المستمدة من رب العزة والرحمة والقداسة.

يسوء أبا مسعود تبجح المنافقين، ومكابرة المشركين، ودسائس اليهود، ويؤول كل ذلك لافتقادهم خلق الحياء، وهو شعبة من الإيمان. فيروي عن النبي ﷺ: إن آخر ما بقي

من النبوة الأولى: إذا لم تستح فاصنع ما شئت.

ودرس الحياء يصرف عن الإثم حياء من الله البصير، ويمنع من الجدال والمراء، ويحفظ الكرامة على ذي الشيبة الضعيف، ويدفع إلى كتم الأسرار، ويدعو إلى الحفاظ على شعائر الدين، ويغذي الشجاعة في المجاهدين، ويمنع التلاعب والغش والخديعة في المعاملة.

وهو درس ينبغي أن لا يغيب عن بصيرة المربين والآباء يتخلقون به، وينشئون عليه ذويهم وأبناءهم، فيجلون جوهره، ويبصرون بفوائده، ويحذرون من فقدانه، ويذكرون بأن نبيهم ﷺ كان أشد الناس حياءً من العذراء في خدرها.

يقول أبو مسعود: بينا أنا أضرب غلاما لي، إذ سمعت صوتا من ورائي: اعلم أبا مسعود، اعلم أبا مسعود، اعلم أبا مسعود (ثلاثا)، فالتفت فإذا رسول الله ﷺ، فقال: والله، لله أقدر منك على هذا.

قال: فقلت: يانبي الله، فإني أعتقه لوجه الله عز وجل، وحلفت أن لا أضرب مملوكا لي أبدا.

تغلب حياء أبي مسعود وقد لامه النبي ﷺ، وذكره بأن قدرة الله عليه أكبر من قدرته على مملوكه، ولم يجد مخرجا يعفيه من حرجه أمام إمامه، ومن حيائه أمام ربه، إلا أن يعتق المملوك، وأن يتعهد باليمين ألا يضرب مملوكا بعد ذلك.

هذا الحياء من الله عز وجل هو الذي يرويه معاوية بن سويد، قال: لطمت مولى لنا، ثم جئت وأبي في الظهر فصليت معه، فلما سلم أخذ بيدي، فقال للمولى: اقتص منه. فعفا عني، ثم أنشأ أبي يحدث، قال: كنا ولد مقرن على عهد النبي ﷺ سبعة أنفس ليس لنا إلا خادم واحدة فلطمها أحدنا، فبلغ النبي ﷺ، فقال: اعتقوها.

يضرب أبومسعود في الأرض ليقوت نفسه وأهله، ويخرج إلى الغزو بائعا أهله وماله ونفسه، ولا يشغله عن إعلاء كلمة الله شاغل، ولكنه في حاليه، حال الضرب في الأرض، وحال الطعن في نحور الأعداء، لا يترك وقتا سنح له طويلا أو قصيرا يفلت منه دون أن يستفيد من رسول الله ﷺ فيتعلم ويعي، ويعمل ثم يبلغ.

يقول أبو مسعود: أتى رجل النبي ﷺ فسأله: فقال: ما عندي ما أعطيك، ولكن ائت فلانًا، فأتاه الرجل فأعطاه، فقال النبي ﷺ: " الدال على الخير كفاعله، أو من دل على خير فله مثل أجر فاعله ".

ويواصل أبو مسعود البدري روايات الرحمة والبحث عن مقعد الصدق عند مليك مقتدر، فيقول: تصدق رجل بناقة مخطومة في سبيل الله، فقال رسول الله ﷺ: لتأتين يوم القيامة بسبعمائة ناقة مخطومة.

ومن هذا النسق ما هو أرفع وأوفر في الرحمة ما يرويه أبو مسعود عن النبي ﷺ قال: إن المسلم إذا أنفق على أهله نفقة وهو يحتسبها كانت له صدقة.

وهذا درس آخر ينبغي أن يلتفت إليه، وأن نلفت إليه، وهو حسن التوجه، وقصد وجه الله الكريم بكل عمل نقوم به، واحتسابه عنده، وطلب الثواب عليه بإخلاص النية فيه، فيكون عملاً متقبلاً حتى ولو كان واجبًا عليك، ولابد ستقوم به مثل النفقة على الزوج والأبناء.

إن نفقة الرجل على أبنائه أو زوجه أو والديه فطرة إنسانية وعرف اجتماعي وواجب ديني، إذا قصّر فيه خالف الفطرة، وخرج على الأعراف، ولحقه الإثم، ولكنه إذا أدى هذا المطلوب منه بنية الطاعة والاحتساب، وضعها الله تعالى تفضلاً منه وتكرمة في ديوان الصدقات المتقبلة. ويتفضل المنعم الذي وسعت رحمته كل شيء فيرفد هذا الديوان بصفحة تستوجب منا شكرًا آناء الليل وأطراف النهار، بأن يحتسب صدقة للعبد إذا قضى حاجة له تميل إليها غريزته وهو ينوي بها الطاعة من مطعم وملبس وإتيان زوجته، حتى ليتساءل أصحاب النبي ﷺ حين سمعوه يبشرهم " وفي بضع أحدكم صدقة " فقالوا: يارسول الله، أيقضي أحدنا شهوته وتكون له صدقة، فقال: أرأيت لو وضعها في حرام أيكون عليه وزر؟ قالوا: نعم، قال: فكذلك لو وضعها في حلال يكون له أجر.

يعلم أبو مسعود عقبة بن عمرو أن أخلاق العلماء توجب الجدية في طلب العلم، والثقة في المصدر، واليقين في ما يأخذ وما يعطي، والإحسان في هذه العبادة بأن يراقب ربه الذي يعلم أنه مطلع عليه، وأن ما يقوله ويعمل به يُسجل في كتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها، وأن كل ذلك يوضع في موازين القسط ليوم القيامة، وإن تك مثقال حبة من خردل يأتي بها الله عز وجل وكفى به حاسبًا، فلا تُظلم نفسٌ شيئًا، لها أو عليها.

قال أبو مسعود لحذيفة عندما قيل له: يا أبا مسعود.. ماذا سمعت في (زعموا) فقال: قال رسول الله ﷺ: بئس مطية الرجل.. زعموا.

وإذا كانت (زعموا) تأتي في اللغة بمعنى قالوا غير أن ظلالها مذمومة لإيمائها بعدم الثقة فيما قيل، ولم تأت في القرآن إلا في الإخبار عن قوم وصموا بصفات ذميمة، مثل قوله تعالى: ﴿ **زعم الذين كفروا أن لن يبعثوا قل بلى وربي لتبعثن ثم لتنبؤن بما عملتم وذلك على الله يسير** ﴾ (التغابن ٧).

قال الطحاوي: ترد زعموا إخبارا من الله بها عن قوم مذمومين، في أحوال لهم مذمومة، وبأقوال كانت منهم كانوا فيها كاذبين، فكان مكروها لأحد من الناس لزوم أخلاق المذمومين في أخلاقهم، الكافرين في أديانهم، الكاذبين في أقوالهم، وكان الأولى

بأهل الإيمان لزوم أخلاق المؤمنين الذين سبقوهم بالإيمان، وما كانوا عليه من المذاهب المحمودة، والأقوال الصادقة، التي حمدهم الله تعالى عليها، رضوان الله عليهم ورحمته.

وقال البغوي: إنما ذم هذه اللفظة لأنها تستعمل غالبًا في حديث لا سند له، ولا يثبت فيه، إنما هو شيء يحكى على الألسن، فشبه النبي ﷺ ما يقدمه الرجل أمام كلامه ليتوصل به إلى حاجته من قولهم: زعموا، بالمطية التي يتوصل بها الرجل إلى مقصده الذي يؤمه، فأمر النبي ﷺ بالتثبت فيما يحكيه، والاحتياط فيما يرويه، فلا يروي حديثًا حتى يكون مرويًا عن ثقة، وقد ورد عنه " كفى بالمرء كذبًا أن يحدث بكل ما سمع " وقال: " من حدث بحديث يرى أنه كذب فهو أحد الكاذبين ".

من أجل ذلك كان أبو مسعود ينشغل بكل حواسه وأحاسيسه فيما يتعلم، ويحتاط كل الحيطة وهو يعلم، فتجده يستشعر الموقف ويسترجعه ويصوره حتى لا يفلت منه شيء، أو يزيد عليه شيئا.

يروى عن رسول الله ﷺ قوله: " لا تجزئ صلاة لأحد لا يقيم ظهره في الركوع والسجود "، ثم يرى أن الرواية بهذا القول قد لا تعطي المعنى كما يعرفه وكما رآه وكما عمل به، فقام يريهم بعمله تبيان ما رواه.

حدث عطاء بن السائب قال: حدثنا سالم البراد ـــ وكان عندي أوثق من نفسي ـــ قال: قال لنا أبو مسعود البدري: ألا أصلي لكم صلاة رسول الله ﷺ؟ قال: فكبر، فركع، فوضع كفيه على ركبتيه، وفصلت أصابعه على ساقيه، وجافى عن إبطيه، حتى استقر كل شيء منه، ثم قال: سمع الله لمن حمده، فاستوى قائما حتى استقر كل شيء منه، ثم كبر وسجد وجافى عن إبطيه حتى استقر كل شيء منه، ثم رفع رأسه فاستوى ساجدا حتى استقر كل شئ منه، ثم سجد الثانية فصلى بنا أربع ركعات هكذا، ثم قال: هكذا كانت صلاة رسول الله ﷺ، أو هكذا رأيته يصلي.

وروي عن ابن مسعود قال: أقبل رجل حتى جلس بين يدي رسول الله ﷺ ونحن عنده، فقال: يارسول الله، أما السلام عليك فقد عرفناه، فكيف نصلي عليك، إذا نحن صلينا في صلاتنا صلى الله عليك، قال: فصمت رسول الله ﷺ حتى أحببنا أن الرجل لم يسأله، فقال: إذا أنتم صليتم علي فقولوا: اللهم صل على محمد النبي الأمي، وعلى آل محمد، كما صليت على إبراهيم وآل إبراهيم، وبارك على محمد النبي الأمي كما باركت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم، إنك حميد مجيد.

وفي رواية أخرى عنه أنهم كانوا جلوسا في مجلس سعد بن عبادة، وأن الذي سأله هو بشير بن سعد، وأنه قال كما باركت على آل إبراهيم.

وعندما سُئل أبو مسعود عن موعد وتر النبي ﷺ قال: كان يوتر من أول الليل ووسطه وآخره.

أراد النبي ﷺ أن يكرم أبا مسعود فيبعثه جامعًا للزكاة حتى ينال رزقًا حلالاً من سهم العاملين عليها، وهي في الوقت نفسه بشارة من النبي ﷺ أن هذا المبعوث أهل لهذا العمل، وأن عنده من صفات الأمانة والحساب ورجاحة العقل ما يؤهله لهذا العمل، وكما هو الشأن حين يبعث النبي ﷺ أحدًا في مهمة فإنه يوصيه وينصحه بما يلائم الموضوع الذي يبعثه من أجله.

يقول أبو مسعود: بعثني النبي ﷺ ساعيًا، ثم قال: انطلق أبا مسعود، ولا ألفينك يوم القيامة تجيء على ظهرك بعير من إبل الصدقة له رغاء قد غللته. قلت: إذًا لا أنطلق. فقال النبي ﷺ: إذًا لا أُكرِهُكَ.

بعض أصحاب النبي ﷺ كان يبدي عن رغبته في أن يبعثه النبي ﷺ، وبعضهم كان يقبل ويذعن للأمر إذا كلفه النبي ﷺ، وبعضهم كان يخاف على نفسه أو يخاف من نفسه فيحجم تورعًا وحمية.

بعد النبي ﷺ بدأ دور أبي مسعود في نشر العلم الذي تعلمه، وتبليغ ما سمعه، والدعوة واجب تتحمله أمة الرسالة التي اصطفاها الله عز وجل وأورثها الكتاب، وجعلها خير أمة أخرجت للناس إن هي أمرت بالمعروف، ونهت عن المنكر، ودعت إلى الخير، فانطلق في رقعة الأمة يجوبها معلمًا ومبلغًا، ويقول: قال رسول الله ﷺ: يؤم القوم أقرؤهم لكتاب الله عز وجل، فإن كانوا في القراءة سواء فأعلمهم بالسنة، فإن كانوا في العلم بالسنة سواء فأقدمهم هجرة، فإن كانوا في الهجرة سواء فأكبرهم سنًا، ولا يؤم رجل في بيته ولا سلطانه، ولا يجلس على تكرمته إلا بإذنه.

ثم استقر أبو مسعود البدري في الكوفة، ولما نشب الخلاف بعد مقتل أمير المؤمنين عثمان ﷺ فإنه انحاز إلى جانب الشرعية التي يمثلها أمير المؤمنين علي ﷺ.

وإذا كان مرجع الخلاف إلى الاجتهاد، وأن ابتغاء وجه الله والحق هو وجهة الفريقين، فإن أبا مسعود يعتقد اجتهاد عليّ، ولا يناصب العداء من خالفوه، وإذا كان حسم الخلاف لا يكون إلا بالسلاح فليكن السلاح، ولكن في إطار الاجتهاد، فلا تسبى نساء الآخرين، ولا تغنم أموالهم، ولا يستباح حماهم، وربما يكون الأمر أيسر من هذا لو لم تتدخل مكائد السبئيين، ودسائس المجوس، وائتمار اليهود والمنافقين، مما أدى إلى أن غامت الرؤى حتى اعتزل الفتنة مثل سعد وابن عمر، وحتى كسر محمد بن مسلمة سيفه واتخذ له سيفًا من خشب، وخرج من العمران، ونصب لنفسه خيمة في أعلى جبل كما أوصاه النبي ﷺ.

كان أبو مسعود فاعلاً، وإذا كان قد رفض أن يذهب ساعيًا خوفًا وورعًا في حياة النبي ﷺ، فإنه قبل أن يكون أميرًا على الكوفة حين استخلفه عليها أمير المؤمنين وهو متجه إلى صفين، فحفظها وأقام الدين فيها.

وبقي يسكن الكوفة حتى استقبل الآخرة التي تزينت له إن شاء الله عام اثنين وأربعين، مات أبو مسعود ولم تنكسف له الشمس، وهو الذي روى أن الشمس كسفت يوم موت إبراهيم ابن النبي ﷺ، فقال الناس إنما انكسفت لموته، فقال النبي ﷺ: " إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله، لا ينكسفان لموت أحد، فإن رأيتم ذلك فصلوا ".



شجاع بن وهب

قومه بنو غنم بن دودان حلفاء بني عبد شمس.

ولم يعرف أهل بيت في مكة استوعبهم الإسلام جميعا إلا بني غنم بن دودان، وهاجروا جميعا إلى الحبشة الهجرتين أو إحداهما، ثم هاجروا جميعا إلى المدينة المنورة حين أذن لهم في ذلك، وقد عد ابن إسحاق من مهاجريهم إلى الحبشة ثم إلى المدينة: عبدالله بن جحش، وأخوه أبوأحمد، وعكاشة بن محصن، وشجاع وعقبة إبنا وهب، وأربد بن جميرة، ومنقذ بن نباتة، وسعيد بن رقيش، ومحرز بن نضلة (الأخرم الأسدي)، وزيد بن رقيس، وقيس بن جابر، وعمرو بن محصن، ومالك بن عمرو، وصفوان بن عمرو، وثقف بن عمرو، وربيعة بن أكثم، والزبير بن عبيدة، وتمام بن عبيدة، وسخيرة بن عبيدة، ومحمد بن عبدالله بن جحش.

ومن نسائهم زينب بنت جحش، وحمنة بنت جحش، وأم حبيب بنت جحش، وجدامة بنت جندل، وأم قيس بنت محصن، وأم حبيب بنت ثمامة، وآمنة بنت رقيش، وسخيرة بنت تميم.

وكان يمكن أن أذكر بعض هذه الأسماء أمثلة للمهاجرين من بني غنم بن دودان، ودليلا على ما ذكرت من أن الإسلام والهجرة والسبق قد استوعبهم جميعا، ولكنني خشيت على نفسي أن أذكر بعضهم وأترك بعضهم، فيسألني يوم يسأل الناس بعضهم ويسألهم ربهم لماذا ذكرت هؤلاء وتركت هؤلاء، فلا أجد جوابا، فكلهم باع نفسه لله منذ أول وهلة، وكلهم تعرض للابتلاء فأبلى أحسن البلاء، فحملوا أمانة الدين ورعوها حق رعايتها، واستعرضوا به البحر فخاضوه إلى الحبشة، ثم قطعوا به الفيافي إلى المدينة، تاركين مكة مهد الولادة، وملعب الصبا، ومهوى الأفئدة، وقد صور شاعرهم أبو أحمد بن جحش هذه المشاعر أبلغ تصوير حين عرض الحوار الذي دار بينه وبين زوجته أم أحمد:

ولما رأتني أم أحمد غاديا	بذمة من أخشى بغيب وأرهب
تقول فإما كنت لا بد فاعلا	فيمم بنا البلدان ولتنأ يثرب
فقلت لها ما يثرب بمظنة	وما يشأ الرحمن فالعبد يركب

إلي الله وجهي والرسول ومن يقم ... إلي الله يوما وجهه لا يخيب
فكم قد تركنا من حميم مناصح ... وناصحة تبكي بدمع وتندب
ترى أن وترا نأينا عن بلادنا ... ونحن نري أن الرغائب تطلب
دعوت بني غنم لحقن دمائهم ... وللحق لما لاح للناس ملحب
أجابوا بحمد الله لما دعاهم ... إلي الحق داع والنجاح فأوعبوا
وكنا وأصحابا لنا فارقوا الهدى ... أعانوا علينا بالسلاح وأجلبوا
كفوجين إما منهما فموفق ... علي الحق مهدي وفوج معذب
طغوا وتمنوا كذبة وأزلهم ... عن الحق إبليس فخابوا وخيبوا
ورعنا إلي قول النبي محمد ... فطاب ولاة الحق منا وطيبوا
فأى ابن أخت بعدنا يأمنكم ... وأية صهر بعد صهرى يرقب
ستعلم يوما اينا إذ كذا يلوا ... وزيل امر الناس للحق أصوب

وإذا كان بنوغنم بن دودان حلفاء في مكة فقد مكنوا لأنفسهم في قلوب الناس، وقد مر بديارهم عتبة بن ربيعة والعباس وأبو جهل، وهم مصعدون إلي أعلي مكة فنظر إليها عتبة تخفق أبوابها يبابا ليس بها ساكن فلما رآها كذلك تنفس الصعداء وقال :

وكل دار وإن طالت سلامتها ... يوما ستدركها النكباء والحُوَبُ

لقد أصبحت الدار خلاء من أهلها فقال أبو جهل :وما تبكي عليه من فلُ بن فلُ (عبارة يقصد بها السب والشتم) ثم قال أبو جهل للعباس : هذا من عمل ابن أخيك هذا فرق جماعتنا وشتت أمرنا وقطع بيننا.

في قافلة المجاهدين

قبل غزة بدر الكبري كان للنبي صلي الله علية وسلم أربع غزوات هي غزوة الأبواء وتسمي (ودان) وغروة بواط من ناحية رضوى وغزوة العشيرة وغزوة بدر الأولي أو الصغرى كما أرسل النبي صلي الله علية وسلم عددا من السرايا منها سرية حمزة رضي الله عنة وسرية عبيدة بن الحارث رضي الله عنة وسرية سعد ابن أبي وقاص ﷺ وسرية عبد الله بن جحش رضي الله عنه التي كانت سببا مباشرا لغزوة بدر الكبرى.

يلاحظ علي هذه السرايا والغزوات التي سبقت بدرا الكبرى عدة أمور:

- أنها جميعا انتهت نهاية سلمية فلم تحدث حروب فيها بين المسلمين والمشركين
- أنها في مجموعها كانت تربصا بقوافل المشركين وفي كل مرة تفلت العير ما عدا سرية

الحمزة فقد كادت تحدث المواجهة بينه وبين عكرمة بن أبي جهل لولا أن تدخل مجدي ابن عامر الجهني وكان موادعا للمسلمين والمشركين فحجز بينهما وانصرف بعض القوم عن بعض و لم يكن بينهما قتال.

ـ أنها جميعا كانت تنتهي بموادعة بين المسلمين وبين بعض القبائل فتكون هذه القبائل في حالة حياد بين المسلمين والمشركين فيتقي المسلمين شرهم ويسلموا هم من تعرض المسلمين لهم.

ـ لم تحدث هذه الغزوات والسرايا ثارات في العداوة مما يحدث عادة نتيجة الحرب إلا في سرية عبد الله بن جحش التي اشتملت علي بعض مفردات الحروب التي يكون لها عواقبها بعد ذلك علي النحو التالي:

أولا : تم في هذه السرية قتل ، إذا رمي واقد بن عبد الله التميمي ﷺ بسهم أصاب عمرو بن الحضرمي وقتله فحدث ثأر بين المسلمين والمشركين.

ثانيا : أسر المسلمون عثمان بن عبد الله والحكم بن كيسان من المشركين

ثالثا : غنم المسلمون من المشركين وخمس الغنيمة عبد الله بن جحش ، وأوقف أتباعه أخذ أنصبائهم حتى يسألوا النبي صلي الله علية وسلم في المدينة ، فأقر قسمته وأخذ نصيبه منها.

رابعا : أضل سعد بن وقاص وعتبة بن غزوان بعيرهما الذي كانا يعتقبانه فتخلف عن الرجوع مع السرية فأمسك النبي صلي الله علية وسلم الأسيرين حتى يعود صاحباه، فلما رجعا أسلم الحكم بن كيسان فبقي بالمدينة ورجع عثمان بن عبد الله إلي مكة.

بسبب أحداث هذه السرية اعتبرت هي السبب المباشر لوقوع قتال في بدر إذ أن القافلة قد أفلتت من المسلمين وسلمت ، وتكون رأى عام بين رجال مكة بعدم ضرورة الحرب ، وكان يقود هذا الرأي كبار أشراف مكة مثل حكيم بن حزام وعتبة بن ربيعة والأخنس بن شريق ، ولكن أبا جهل أثار عامر الحضري فصرخ يطالب بدم أخيه فاشتعلت المعركة ، وابلي فيها المسلمون ومنهم شجاع بن وهب ، وتجلي عون الله عز وجل وحقق نصره وأعز جنده.

لكن الغزوات والسرايا التي سبقت بدرا ، و إن لم يحدث فيها قتال ، إلا أنها دربت المسلمين علي نمط القتال في الإسلام الذي يختلف تمام الاختلاف عن النموذج الجاهلي للحرب ، فليس القتال في الإسلام غارة للسلب والسبي ، ولا انتصار الشرف قبيلة أوقرية ، ولا من أجل التسلط والسيادة وجمع المغانم.

إن الحرب التي يخوضها المسلمون ضد أعدائهم هي معركة تبعثها العقيدة ، وهدفها العقيدة

وهي جهاد يدرك فيه المسلم أن الحياة على هذه الأرض موقوتة بأجل ، ثم تـأتي نهايتـها حتما ، يموت الصالحون ، ويموت الطالحون ، الكل يموت لكن شتان بين من يموت للعيش منعما بعد ذلك، ومن يموت ليحيا في العذاب بعد الموت ، الكافر يري أن المـوت نهايـة المطاف ، ومن ثم يفر منه ما استطاع، إما بالنكوص عن القتال وإما بالحرص علـى قتـل خصمه ليستمتع هو بالحياة بعدئذ ، لكن المسلم يري أن الموت بداية لحياة فيـها تـوفى الأجور (كل نفس ذائقة الموت ، وإنما توفون أجوركم يوم القيامة ، فمن زحزح عن النار وأدخل الجنة فقد فاز)

يقول الأستاذ سيد قطب : هذه هي القيمة التي يكون فيها الافتراق ، وهـذا هـو المصير الذي يفترق فيه فلان عن فلان ، والقيمة الباقية التي تسـتحق السـعي والكـد ، والمصير المخوف الذي يستحق أن يحسب له ألف حساب (فمن زحزح عن النار وأدخـل الجنة فقد فاز).

أشربت نفوس المسلمين في تلك الغزوات والسرايا حب الجهاد ، وفقـه الجـهاد وأخلاقيات وآداب الجهاد، حتى إذا كتب الجهاد كانوا قد اطمأنت نفوسهم إلى أنه ذروة سنام الإسلام، وهم راغبون في تسنم هذه الذروة، والمسلم لا يرضى بغيرهـا لأن دينـه أكسبه العزة ﴿ ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين ﴾ (المنافقون ٨).

بهذه الطاقة العلوية الغالبة التي تضافرت فيها قوى الروح والنفس والإيمان والجسـم خاض شجاع بن وهب مع قافلة المجاهدين غمار بدر وأحد، وثبت في الخندق وحنـين، واقتحم في خيبر والنضير، وبايع في الحديبية، وفرح يوم الفتح.

وبهذا الطاقة بعثه النبي ﷺ أميرا على سرية إلى جمع من هوازن في نجد، وأمـره أن يغير عليهم، فخرج وكان يسير الليل ويكمن النهار حتى باغتهم وهم غارون، وقد أوعـز إلى أصحابه أن لا يمعنوا في الطلب، فأصابوا نعما كثيرا وشاء، فاستاقوا ذلك، وكان ابـن عمر في هذه السرية وقال: فنفلنا أميرنا بعيرا بعيرا لكل إنسان، ثم قدمنا على رسـول الله ﷺ، فقسم بيننا غنيمتنا، فأصاب كل رجل منا اثني عشر بعيرا بعد الخمس، وما حاسـبنا رسول الله ﷺ بالذي أعطانا صاحبنا ولا عاب عليه ما صنع، فكان لكل منا ثلاثة عشـر بعيرا بنفله.

وفي رواية أخرى أن السرية قد سبت عددا من نسائهم، وأن الأمير اصطفى منـهن جارية وضيئة، ثم قدم أهلوهم مسلمين ـــ لعل من أسباب إسلامهم أن شجاعا أوعـز إلى أصحابه أن لا يمعنوا في الطلب فلم يأخذوا كل ما عند القبيلة من نعم، ولم يسـبوا كـل نسائهم رحمة ورقة ـــ فشاور النبي ﷺ شجاعا في رد النساء إلى أهليهن إذ أسلموا، فقال

شجاع: نعم، فردوهن، وخيّر الجارية التي اصطفاها فاختارت المقام عنده.

حامل الرسائل

قام النبي ﷺ ذات يوم على المنبر خطيبًا فحمد الله وأثنى عليه، وتشهد ثم قال: أما بعد، فإني أريد أن أبعث بعضكم إلى ملوك الأعاجم، فلا تختلفوا عليّ كما اختلفت بنو إسرائيل على عيس بن مريم.

فقال المهاجرون: يارسول الله، إنا لا نختلف عليك في شيء أبدا، فمرنا وابعثنا، فبعث شجاع بن وهب إلى كسرى، فأمر كسرى بإيوانه أن يزين، ثم أذن لعظماء فارس، ثم أذن لشجاع بن وهب، فلما أن دخل عليه أمر كسرى بكتاب رسول الله ﷺ أن يقبض منه، فقال شجاع: لا، حتى أدفعه أنا إليك كما أمرني رسول الله ﷺ، فقال كسرى: ادنه، فدنا، وناوله الكتاب، فدعا كسرى كاتبا له من أهل الحيرة، وأمره أن يقرأ الكتاب، فإذا فيه ''من محمد عبدالله ورسوله إلى كسرى عظيم فارس، سلام على من اتبع الهدى، وآمن بالله ورسوله، وشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمدا عبده ورسوله، وادعو بدعاء الله، فإني رسول الله إلى الناس كافة لأنذر من كان حيا ويحق القول على الكافرين، فإن تسلم تسلم، وإن أبيت فإن إثم المجوس عليك ''.

فغضب كسرى أن بدأ النبي ﷺ بنفسه، وصاح وغضب ومزق الكتاب دون أن يفهم ما فيه، وأمر بشجاع بن وهب فأخرج، فلما رأى شجاع ذلك ركب راحلته وخرج من إيوان كسرى راجعا وهو يقول: والله ما أبالي على أي الطريقين أكون، إذ أديت كتاب النبي ﷺ. ولما ذهبت عن كسرى سورة غضبه، بعث إلى شجاع بن وهب ليدخل عليه فالتمسه الفرس فلم يجدوه، فطلبوه إلى الحيرة فكان قد سبق، وتروى مثل هذه القصة إلى عبدالله بن حذافة رضي الله عنه.

❁ ❁ ❁

ثم أرسل النبي ﷺ شجاع بن وهب بكتاب إلى ملك غسان التابع لدولة الروم على تخوم بلاد الشام، ورسالة مع دحية بن خليفة الكلبي إلى هرقل ملك الروم، أما شجاع فقد وجد الحارث في غوطة دمشق، فذهب إليه، فوجده مشغولا بتهيئة الأنزال والألطاف استعدادا لاستقبال هرقل وهو في طريقه من حمص إلى إيلياء لتقديم الشكر لله الذي نصره على الفرس حينئذ، وكان حاجب الحارث واسمه (مري) في استقبال شجاع، وطلب منه أن يسلمه كتاب النبي ﷺ ثم يوصله هو إلى الحارث بعدما يفرغ من أشغاله، فأبى شجاع إلا أن يسلم الكتاب بنفسه للحارث حتى يكون قد أدى الأمانة التي وكل إليه أداؤها، فسأله الحاجب عن فحوى الرسالة، فقال شجاع: إني رسول رسول الله ﷺ إليه، فقال:

لن تخلص إليه، وإن شئت فانتظر، فأقام شجاع عند الحاجب يومين أو ثلاثة، فكان يصف له النبي ﷺ، ويبين له الإسلام، فيرق الحاجب حتى يغلبه البكاء ويقول: إني قرأت الإنجيل، فأجد هذه الصفات التي تذكرها، وكنت أظنه يخرج بالشام، فأراه قد خرج بأرض القرظ — يعني المدينة — وإني أومن به وأصدقه، وأخشى أن يعرف الحارث بأمري فيقتلني، وكان يكرم شجاعا ويحسن ضيافته، ويوئسه من إسلام الحارث لقسوة طبعه وفساد فطرته، ولأن الحارث يخاف من قيصر، فهو يظهر شدة البأس على مناوئيه ليرضى عنه.

وخرج الحارث يوما فوضع التاج على رأسه وأذن لشجاع أن يدخل عليه، فدفع إليه كتاب النبي ﷺ وقد جاء فيه " بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد رسول الله إلى الحارث بن أبي شمر، سلام على من اتبع الهدى، وآمن به وصدق به، وإني أدعوك إلى أن تؤمن بالله وحده لا شريك له، ويبقى لك ملكك ".

فلما قرأ الحارث الكتاب رماه، ثم قال: ومن ينزع مني ملكي؟! أنا سائر إليه، ولو كان باليمن جئته، علي بالناس، وبقي يوزع الأموال ويحث على التجهيز لحرب النبي ﷺ حتى الليل، ثم أمر بالخيول تجهز، وقال لشجاع، أخبر صاحبك بما ترى، ثم حبس شجاعا عنده، وأرسل إلى قيصر يخبره خبره، وأرسل إليه كتاب النبي ﷺ وكان عنده دحية الكلبي، فأراد قيصر أن يعرف خبر النبي ﷺ من العرب، وكان أبو سفيان على رأس قافلة ضخمة بعد صلح الحديبية وقد أمنوا جانب المسلمين.

يقول أبو سفيان لابن عباس: (كنا قوما تجارا، وكانت الحرب مع المسلمين قد حصرتنا حتى نهكت أموالنا، فلما كانت هدنة الحديبية لا نأمن أن وجدنا أمنا، فخرجت تاجرا إلى الشام مع رهط من قريش، وكان وجه متجرنا من الشام غزة من أرض فلسطين، فخرجنا حتى قدمناها، وذلك حين ظهر قيصر صاحب الروم على من كان في بلاده من الفرس فأخرجهم منها ورد عليه صليبه الأعظم، وقد استلبوه إياه، فلما أن بلغه ذلك وقد كان منزله بحمص من الشام فخرج منها يمشي متنكرا إلى بيت المقدس ليصلي فيه، تبسط له البسط، ويطرح عليها الرياحين، حتى انتهى إلى إيلياء، فصلى بها، فأصبح ذات غداة وهو مهموم يقلب طرفه إلى السماء، فقالت له بطارقته: أيها الملك، قد أصبحت مهموما؟ قال: أجل، فقالوا: وما ذاك؟ قال: أريت الليلة أن ملك الختان ظاهر، فقالوا: والله ما نعلم أمة من الأمم تختتن إلا اليهود، وهم تحت يديك وفي سلطانك، وإن كان قد وقع ذلك في نفسك منهم، فابعث في مملكتك كلها، فلا يبقى يهودي إلا ضربت عنقه، فتستريح من هذا الهم، فإنهم في ذلك من رأيهم يديرونه بينهم إذ أتاهم رسول صاحب بصرى برجل من العرب قد وقع إليهم، فقال: أيها الملك، إن هذا الرجل من العرب من أهل الشاء والإبل يحدثك عن حدث كان ببلاده فاسأله عنه، فلما انتهى إليه قال لترجمانه: سله ما

هذا الخبر الذي كان في بلاده، فسأله فقال: هو رجل من العرب من قريش يزعم أنه نبي وقد تبعه أقوام وخالفه أقوام آخرون، وقد كانت بينهم ملاحم في مواطن، فخرجت من بلادي وهم على ذلك، فلما أخبره الخبر قال: جردوه فإذا هو مختتن، فقال: هذا والله الذي رأيت لا ما تقولون، أعطه ثوبه، انطلق لشأنك أيها العربي.

ثم إنه دعا صاحب شرطته وقال له: قلب لي الشام ظهرا لبطن حتى تأتيني برجل من قوم هذا أسأله عن شأنه.

قال أبو سفيان: فوالله إني وأصحابي لبغزة، إذ هجم علينا فسألنا ممن أنتم؟ فأخبرناه، فساقنا إليه جميعا، فلما انتهينا إليه، فوالله ما رأيت من رجل قط أزعم أنه كان أدهى من ذلك الأغلف — يريد هرقلا — فلما انتهينا إليه قال: أيكم أمس رحما، فقلت: أنا، قال: أدنوه مني، قال: فأجلسني بين يديه، ثم أمر أصحابي، فأجلسهم خلفي وقال: إن كذب فردوا عليه، فلقد عرفت إني لو كذبت ما ردوا علي ولكني كنت امرءا سيدا أتكرم واستحي من الكذب، وقد عرفت أن أدنى ما يكون في ذلك أن يرووه عني، ثم يتحدثون عني بمكة، فلم أكذبه.

فقال: أخبرني عن هذا الرجل الذي خرج فيكم، فزهدت له شأنه وصغرت له أمره، فقلت: سلني عما بدا لك.

قال: كيف نسبه فيكم؟

قلت: محضا من أوسطنا نسبا.

قال: فأخبرني هل كان من أهل بيته أحد يقول قوله فهو يتشبه به.

قلت: لا.

قال: فأخبرني هل له ملك فاستلبتموه إياه فجاء بهذا الحديث لتردوه عليه؟

قلت: لا.

قال: فأخبرني عن أتباعه، من هم؟

فقلت: الأحداث والضعفاء والمساكين، فأما أشرافهم وذوو الأنساب منهم فلا.

قال: فأخبرني عمن صحبه، أيحبه ويكرمه، أم يقليه ويفارقه.

قلت: ما صحبه رجل ففارقه.

قال: فاخبرني عن الحرب بينكم وبينه؟

قلت: سجال، يدال علينا، وندال عليه.

قال:فأخبرني، هل يغدر — فلم أجد شيئا أغره به إلا هي.

قلت: لا، ونحن في مدة، ولا نأمن غدره فيها.

قال أبو سفيان: فوالله ما التفت إليها مني، ثم قال: زعمت أنه من أمحضكم نسبا، وكذلك يأخذ الله النبي لا يأخذه إلا من أوسط قومه.

وسألتك: هل كان من أهل بيته أحد يقول مثل قوله، فهو يتشبه به، فقلت لا، فلو كان أحد قال هذا القول قبله لقلت رجل تأسى بمن قبله.

وسألتك: هل كان له ملك فاستلبتموه إياه فجاء بهذا الحديث لتردوا عليه ملكه، فقلت: لا، فلو كان من آبائه ملك قلت، رجل يطلب ملك أبيه.

وسألتك: عن أتباعه فزعمت أنهم الضعفاء والمساكين، وهؤلاء هم أتباع الرسل يكونون من الضعفاء والمساكين.

وسألتك: أيزيدون أم ينقصون، فزعمت أنهم يزيدون، وكذلك أمر الإيمان حين تخالط بشاشته القلوب.

وسألتك: هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال، فقلت: لا، فقد أعرف أنه ما كان ليذر الكذب على الناس ويكذب على الله.

وسألتك: بماذا يأمركم، فقلت: إنه يأمركم أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا، وينهاكم عن عبادة الأوثان، ويأمركم بالصلاة والصدق والعفاف.

وسألتك: هل يغدر؟ فذكرت أنه لا يغدر، فإن كان ما تقول حقا فسيملك موضع قدمي هاتين، وقد كنت أعلم أنه خارج، ولوددت أني عنده فأغسل عن قدميه. ثم قال: إلحق بشأنك، فقمت وأنا أضرب إحدى يدي بالأخرى وأقول: يا عباد الله، لقد أمر أمر ابن أبي كبشة، وأصبح ملوك بني الأصفر يخافونه في سلطانهم.

ثم قال هرقل لدحية الكلبي: والله إني لأعلم أن صاحبكم نبي مرسل، وأنه الذي ننتظره، ونجده في كتابنا، ولكني أخاف الروم على نفسي، ولولا ذلك لاتبعته، فاذهب إلى صفاطر الأسقف، فاذكر له أمر صاحبك، فهو والله في الروم أعظم مني وأجود قولا عندهم مني، فانظر ماذا يقول لك، فذهب دحية إليه فأخبره بما جاء به من رسول الله ﷺ إلى هرقل، وبما يدعو إليه، فقال صفاطر: والله صاحبك نبي مرسل نعرفه بصفته، ونجده في كتابنا باسمه، ثم دخل وألقى ثيابا كانت عليه سودا، ولبس ثيابا بيضاء، ثم أخذ عصاه فخرج على الروم في الكنيسة فقال: يا معشر الروم، إنه قد جاءنا كتاب من أحمد يدعونا إلى الله، وإني أشهد أن لا إله إلا الله، وأن أحمد عبده ورسوله، فوثبوا إليه وثبة رجل واحد، فضربوه حتى قتلوه، فلما رجع دحية إلى هرقل فأخبره الخبر، قال: قد قلت لك إنا نخافهم على أنفسنا، فصفاطر والله كان أعظم عندهم وأجوز قولا.

ثم إن هرقل حاول مع الروم فجمعهم قبل خروجه إلى القسطنطينية، فقال: يامعشر الروم، إني عارض عليكم أمورا فانظروا فيما أردت بها، قالوا: ما هي؟

قال: تعلمون والله إن هذا الرجل لنبي مرسل نجده، ونعرفه بصفته التي وصف لنا فهلم نتبعه فتسلم لنا دنيانا وآخرتنا.

قالوا: نحن نكون تحت أيدي العرب؟ ونحن أعظم الناس ملكا، وأكثره رجلا، وأقصاه بلدا.

قال: فهلم أعطيه الجزية كل سنة أكسر شوكته من حربه بما أعطيه إياه.

قالوا: نحن نعطي العرب الذل والهوان والصغار بخرج يأخذونه منا، ونحن أكثر الناس عددا، وأعظمه ملكا، وأمنعه بلدا، والله لا نفعل هذا أبدا.

قال: فهلم فلأصالحه على أن أعطيه أرض سورية ويدعني وأرض الشام.

قالوا: نحن نعطيه أرض سورية وقد عرفت أنها أرض سورية الشام، لا نفعل أبدا.

فحاصوا حيصة حمر الوحش إلى الأبواب، فوجدوها قد غلقت، فلما رأى هرقل نفرتهم وآيس من الإيمان، قال: ردوهم علي، وقال: إني إنما قلت مقالتي آنفا أختبر بها شدتكم على دينكم، فقد رأيت، فسجدوا له ورضوا عنه.

في هذه الأثناء بلغ هرقل كتاب الحارث بن أبي شمر الغسقاني يخبره بكتاب النبي ﷺ الذي أرسله إليه مع شجاع بن وهب، ويقول له: إنه يجهز لحربه، وقد حبس رسوله عنده حتى يعرف رأيه، ويأخذ إذنه، فكتب إليه القيصر هرقل: أن يسرح الرسول، وأن لا يسير لحرب النبي ﷺ، وأن يوافي القيصر بإيلياء.

قال شجاع بن وهب: ورجع كتاب قيصر وأنا مقيم، فانطلق الحارث للقاء هرقل، وقال لي حاجبه (مري) متى تريد أن تخرج إلى صاحبك؟ فقلت: غدا، فأمر لي بمائة مثقال من ذهب، ووصلني بكسوة ونفقة، وقال: إقرئ رسول الله ﷺ مني السلام، وأخبره أني متبع ملته.

قال شجاع: فقدمت على النبي ﷺ وأخبرته بما قال لرسول الله ﷺ: فقال رسول الله ﷺ: صدق.

وانقطع خبر هرقل منذ ذلك التاريخ، ومات شمر عام الفتح، ووليهم جبلة بن الأيهم، فأرسل إليه النبي ﷺ يدعوه إلى الإسلام مع شجاع بن وهب كذلك، بعد ذلك أسلم جبلة، ثم ارتد عن الإسلام وتنصر مرة أخرى ومات مشركا.

شهيد اليمامة

بعد موت النبي ﷺ ومبايعة الصديق ﷺ خليفة للمسلمين، تعرض الإسلام لفتنة مستشرية خرج منها أصلب عودا، وأعز مكانا، ومكن الله له في الأرض حيث ظن البعض أنه على حافة الكساد والزوال.

كانت ردة الأسود في اليمن، ومسيلمة في بني حنيفة قد نجمت في أواخر أيام النبي، وفي حياته أيضا تم القضاء على الأسود وعاد اليمن إلى الإسلام، وبعد موته ﷺ جاء الأعراب يبايعون الصديق على الإسلام بصلاة ولكن بغير زكاة ويتأولون آية من القرآن الكريم ﴿ **خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها** ﴾ (التوبة ١٠٣). فاعتبروا أن الزكاة كانت للنبي نفسه وليست لمن بعده، وهم في ذلك مدعون، إذ أن الزكاة من أركان الإسلام، وفي القرآن قال تعالى: ﴿ **فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فخلوا سبيلهم** ﴾ (التوبة ٥).

ثم إن النبي ﷺ لم يكن يأخذ الزكاة لنفسه، وإنما هو يجمعها من الأغنياء ليبرئ لهم ذمتهم من حق المستحقين، ثم ينوب هو عنهم في إخراج هذه الحقوق لأصحابها، أما هو نفسه فكان يحرم عليه أن يأكل من الزكاة هو وآل بيته، وقد روى أن أحد أحفاده أمسك تمرة من تمر الزكاة، فأخذها منه ورماها في الصدقات وقال له: كخ.. كخ، إنما أوساخ الناس.

وكذلك الصديق ﷺ أصبح مكلفا بالمهمتين: إبراء ذمة القادرين، وإعطاء الحقوق للمستحقين.

وشجع الأعراب على ذلك أن معظم المقاتلين خرجوا في جيش أسامة الذي أوصى النبي ﷺ بإتمامه، ولقد حاول بعض الصحابة أن يمنع الصديق من إنفاذه بعد أن ظهر التمرد بين الأعراب وهم قريب من المدينة، فأمضى أمره بإنفاذه حتى ولو خشي أن يتخطفه الناس في المدينة.

وأشار بعض الناس على الصديق أن يساير الأعراب فيرضى منهم بالصلاة حتى يأتي بعث أسامة ويجمع الناس، فقال الصديق بحزم: والله لو منعوني عقالا أو عناقا كانوا يؤدونه إلى رسول الله ﷺ لأقاتلنهم على منعها، إن الزكاة حق المال، والله لأقاتلن من فرق بين الصلاة والزكاة.

ثم جمع الصديق الناس في المسجد وقام فيهم خطيبا، فقال: الحمد لله الذي هدى فكفى، وأعطى فأغنى، إن الله بعث محمدا ﷺ والعلم شريد، والإسلام غريب طريد، قد بت حبله وخلق عهده، وضل أهله منه، ومقت الله أهل الكتاب لا يعطيهم خيرا لخير

عندهم، ولا يصرف عنهم شرًا لشرٌ عندهم، قد غيروا كتابهم، وألحقوا فيه ما ليس منـــه، والعرب الآمنون يحسبون أنهم في منعة من الله، لا يعبدونه ولا يدعونه، فأجهدهم عيشًـــا، وأضلهم دينًا، في ظلف من الأرض مع ما فيه من السحاب، فختمهم الله بمحمد، وجعلهم الأمة الوسطى، نصرهم بمن ابتعهم، ونصرهم على غيرهم، حتى قبض الله نبيه ﷺ، فركب منهم الشيطان مركبه الذي أنزله عليه، وأخذ بأيديهم، وبغى هلكتهم ﴿ وَمَـا مُحَمَّـدٌ إِلا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْـــهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾ (آل عمران ١٤٤).

إن من حولكم من العرب منعوا شاتهم وبعيرهم، و لم يكونـــوا في دينـــهم — وإن رجعوا إليه — أزهد منهم يومهم هذا، و لم تكونوا في دينكم أقوى منكم يومكم هـــذا، على ما تقدم من بركة نبيكم ﷺ، وقد وكلكم إلى المولى الكافي، الذي وجـــده ضـــالاً فهداه، وعائلاً فأغناه ﴿ وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا﴾ (آل عمران ١٠٣)، والله لا أدع أن أقاتل على أمر الله حتى ينجز الله وعده، ويوفي لنا عهده، ويقتل من قتـــل منـــا شهيدًا من أهل الجنة، ويبقى من بقي منها خليفته وذريته في أرضه، قضاء الله الحق، وقوله الذي لا خلف له ﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِـي الأَرْضِ﴾ (النـــور ٥٥)، وكانت وفود القبائل تترى إلى المدينة ليطلبوا من الصديق وضع الزكاة عنهم، فكانوا يترلون عند وجوه الناس، فحملوهم إلى أبي بكر الصديق،ولكنه كان قد حزم أمره فرجعوا خائبين، ولكنهم رأوا قلة الناس في المدينة فطمعوا فيها.

أدرك الصديق ﷺ ما طمع فيه المرتدون، فجمع كبار الصحابة وجعلهم حرسًا على أنقاب المدينة، وألزم أهل المدينة بحضور المسجد، وقال: إن الأرض كـــافرة، وقـــد رأى وفدهم منكم قلة، وإنكم لا تدرون ليلاً يأتون أم نهاراً، وإدناهم منكم على بريد،وقد كان القوم يأملون، أن نقبل منهم ونوادعهم، وقد أبينا عليهم، فاستعدوا وأعدوا.

و لم تمض ثلاث ليال حتى علم أن الأعراب يتجمعون في ذي القصة للهجوم علـــى المدينة، فخرج إليهم بمن معه وباغتهم فهزمهم الله عز وجل، وكان هذا أول الفتح، ذل فيه المشركون، وعز فيه المسلمون، حتى رجع جيش أسامة، فأمهلهم الصديق أيامًا للراحـــة ثم خرج إلى ذي القصة، فعقد أحد عشر لواء لقتال المرتدين في يوم واحد، وعقد ألوية كثيرة بعد ذلك، كان من قوادها خالد بن الوليد،وشرحبيل بن حسنة، وعكرمة بن أبي جـــهل، خالد بن سعيد، والمهاجرين أبي أمية، وسويد بن مقرن، والعلاء الحضرمي.

وتوالت انتصارات خالد بن الوليد حتى انتهى إلى بني حنيفة حيث حشد مســـيلمة وحصن نفسه، وضلل الناس حتى قالوا: كذاب من بني حنيفة خير من نبي من قريش، وفي

اليمامة كانت ملاحم، فقد استثار مسيلمة حمية العرض والاحساب والأنساب، ونـــادى المسلمون على بعضهم: يا أصحاب سورة البقرة، ثم نادوا بشعارهم: وامحمداه، واشتـــد الوطيس ودخل الجميع إلى حديقة الموت، وحقق الله النصر للمسلمين بعد أن اتخذ منـــهم شهداء، منهم أكثر من ثمانين من قراء القرآن الكريم، ومعهم شجاع بن وهب ﷺ عـــن خمس وأربعين سنة.





سلمة بن أسلم بن حريش

أنصاري أوسي حليف بني عبد الأشهل، من أحب دور الأنصار إلى النبي ﷺ.

أسلم مع السابقين الأولي من الأنصار، وبايع النبي ﷺ علي الجهاد والنصرة، وعلى السمع والطاعة فيما أحب أو كره، ولكنه لم يجد نفسه يكره شيئًا مما يُؤمر به، وإنما طوَّع هواه فصار تبعًا لما جاء به النبي ﷺ.

ولنا كلمة ونحن نتتبع سيرة سلمة بن أسلم، وهي صالحة لأن تُقال ونحن نتحدث عن صحابته ﷺ.

نرافق الصحابي في جهاده، وبلائه في نصرة دينه، فقد يتساءل متسائل: أليس لهم عمل يتكسبون منه؟ وأين مجالات الحياة الأخرى؟

ونحن نجيب على الفور بأن كل واحد منهم كان يكابد في الحياة تجارة يرتزق منها، أو صنعة يمتهنها، وكل منهم له زوج وأبناء، وربما والدان واخوة يكفلهم ويسعى عليهم، ولا يقبل المن، ولا يتكفف الناس إلا إذا أعوزته الحاجة، وألمت به الفاقة، وأثقلته الديون.

يعرفون — وهم المثل العليا — أن اليد العليا خير من اليد السفلى، وأن النبي ﷺ وجه أنصاريًا جاء يسأله — وهو أكرم من يعطي — إلى العمل، فأمره ببيع أثاث بيته الحقير، بل أجرى عليه مزادًا حتى بلغ درهمين، وأعطاهما الأنصاري، وقال له: اذهب واحتطب وبع، ولا أرينك خمسة عشر يومًا، ففعل الرجل ثم جاء وقد أصاب عشرة دراهم، اشترى ببعضها طعامًا وببعضها ثوبًا، فقال له النبي ﷺ: هذا خير من أن تجيء المسألة نكتة في وجهك يوم القيامة، إن المسألة لا تصلح إلا لذي فقر مدقع أو لذي غرم مفظع، أو لذي دم موجع.

واستقبلوا توجيه النبي ﷺ: ما أكل آدمي طعامًا خيرًا من أن يأكل من عمل يده، وإن النبي داود كان يأكل من عمل يده.

كلهم كان يعمل ولا يحتقر أحدهم عملاً ما دام حلالاً يأكل منه الطعام الطيب، وقد كان علي بن أبي طالب رضي الله عنه ابن عم النبي ﷺ، وفارس الإسلام يؤجر قوته فيخرج

دلو الماء من البئر بتمرة، حتى يتعب فيأخذ تمرات بعدد الدلاء.

كانوا يعملون مثلما نعمل، لكنهم لا يذكرون، ولا تذكر سيرهم هذه الأعمال لأنهم لم يكن يشغلهم تدرجهم في الوظيفة لكسب الوجاهة، ولا ترقيهم في الدرجة لجمع المال، ولا انشغالهم بالتجارة لتكديس المال، كانوا يعلمون أن أرزاقهم مضمونة، فيأخذون بالأسباب، ويجملون في الطلب، وكانوا يتعلمون أن بحسب ابن آدم لقيمات يقمن صلبه فحمدوا الله عليها، وكانوا يؤمنون بأن ابن آدم لم يملأ وعاءً شرًا من بطنه، فلم يكن همهم أن يملؤوها.

كان التمكين لدين الله همهم بعد أن صاروا أمناء عليه ينشغلون به ويجاهدون في سبيله ﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ﴾ (العنكبوت ٦٩).

فإذا ذكرنا عن سلمة بن أسلم ﷺ، أو عن أحد من أصحاب النبي ﷺ أنه انخرط في الجهاد منذ أن أسلم، فمعنى ذلك أنه يكابد دنياه، ولكن همه الأكبر هو مجال التنافس والتسابق والمسارعة إلى المغفرة والجنة التي عرضها كعرض السماء والأرض أعدت للذين آمنوا بالله ورسله.

لقد كان عثمان بن عفان من أوسع الناس ثراء وقد جهز جيش العسرة من ماله.

وكان عبدالرحمن بن عوف تاجرًا، وقد تصدق على المسلمين بقافلة ارتجت لها المدينة ورفض أن يبيعها بأرباح مضاعفة.

وكان معاذ بن جبل مزارعًا خشن اليد من العمل في الزراعة، فقال النبي ﷺ: "هذه يد يحبها الله ورسوله".

وكان سعد بن أبي وقاص صانعًا للسهام، وعبدالله بن مسعود راعيًا للغنم، ولكن هذه الأعمال، وهذه الأموال هي كبد الحياة الدنيا فلا يحبون أن ينتسبوا إليها لأنهم ليسوا من أبناء الدنيا التي أدبرت مرتحلة، وإنما من أبناء الآخرة المقبلة، فهم يحبون أن ينتسبوا إلى أعمالها التي هي همهم وشغلهم.

وكذلك سلمة بن أسلم كان يضرب في الأرض ليعف عن السؤال نفسه وأهله، ولكن الجهاد في سبيل الله هو همه، وإعلاء دين الله غايته، والشهادة في سبيل الله أمله.

معجزة بدر

كان الانتصار في بدر معجزة في نظر المسلمين والمشركين معًا، ولكنها في الواقع كانت بيانًا عمليًا لسنة من سنن الله في خلقه، فالله عز وجل وعد بأن ينصر من ينصره، وبأن يخذل من يبتعد عن طريقه ويتبع السبل، وسمى المؤمنين حزب الله، وقال: ﴿ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ (المجادلة ٢٢).

وقال في سورة الصافات: ﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ ۞ إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ ۞ وَإِنَّ جُنْدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ ﴾ (الصافات ١٧١-١٧٣).

كذلك سمى الله المكذبين الضالين ومن يوالونهم بأنهم حزب الشيطان لأنه استحوذ عليهم، كما ورد في سورة المجادلة: ﴿ اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَأَنْسَاهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ أُولَئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ أَلا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ ۞ إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ فِي الأَذَلِّينَ ۞ كَتَبَ اللَّهُ لأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾ (المجادلة ١٩-٢١).

ولكن هذه السنة الربانية لم تكن شرائط تحققها موجودة قبل بعثة النبي ﷺ بزمن طويل، لعدم وجود مجتمع ينصر الله بتوحيده والدعوة إليه، والعمل بشرائعه، فوكلهم الله تعالى إلى أنفسهم، فكانت المواجهات دائمًا بين جهد بشري وعقل بشري، وجهد وعقل بشريين آخرين، فكان الحساب هو محقق النصر أو الهزيمة.

أما في بدر فكانت فئة تنصر الله وتقاتل في سبيله، وتنصره في نفسها وفي خلقه وفئة كافرة، أما بالحساب فكانت كفة الفئة الكافية أرجح، في الشجعان المغاوير، وفي العقول التي تمرست على وضع خطط الحروب، وفي الإمداد والتموين، فكانوا يذبحون في اليوم عشر جزائر، ويعيش الجندي المسلم على تمرات.

ولكن شرائط السنة الربانية تحققت فيهم بشهادة الله عز وجل فتحقق لهم نصره. قال تعالى: ﴿ قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَى كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُمْ مِثْلَيْهِمْ رَأْيَ الْعَيْنِ وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَنْ يَشَاءُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِأُولِي الأَبْصَارِ ﴾ (آل عمران ١٣).

إنها أول مرة منذ أجيال طويلة تتحقق فيها شروط النصر الرباني، وتبدو السنة الربانية واضحة أمام الفئتين.

وواجب الدعاة أن يبينوا للناس أن سنة الله مازالت قائمة، وأنهم لم يخسروا معاركهم المتتالية أمام أعدائهم، إلا لأنهم دانوا لهم بالذلة، واتخذوهم أولياء، وتخلوا عن نصر الله تعالى فعطلوا شرائعه، وفرطوا في عبادته، فامتنع عليهم نصر الله، وأن عليهم إما أن يرضوا بما هم فيه من ذل وهوان، أو أن يأخذوا بأسباب النصر والعزة، وليس له إلا طريق واحد هو أن يكونوا جند الله، ليكونوا هم الغالبين، وأن يكونوا حزب الله، وحزب الله هم المفلحون.

وإذا بدت بدر معجزة فإنها قد اشتملت على معجزات هي في صميمها عناصر السنة الربانية، في بدر تغلب فتية صغار على صناديد المشركين كما فعل أبناء عفراء بأبي جهل. وفي بدر لم يصمد عتبة بن ربيعة وولده الوليد، وأخوه شيبة بن ربيعة أمام عليّ وحمزة وعبيدة بن الحرث.

وفي بدر انكسر سيف عُكاشة بن محصن فأعطاه النبي ﷺ جذلاً من حطب فاستوى في يده سيفًا.

وفي بدر انكسر سيف سلمة بن أسلم بن حريش فأعطاه النبي ﷺ عرجونًا من عراجين النخل يقاتل به، فاستوى في يده سيفًا ظل يقاتل به حتى نالته الشهادة، في يوم جسر أبي عبيد أيام خلافة الفاروق.

نقول أن ما حدث لعكاشة وسلمة يتسق مع سنة الله تعالى، فهو على كل حال بعض أمارات نصر الله تعالى لعباده الذين نصروه، وقد كان سلمة بن أسلم من الذين نصروا الله حق نصره، فأراه الله عز وجل أمارات تبين أن الله يتقبل من عمله، من هذه الأمارات السيف الذي انقلب عن العرجون، ومنها أن الله مكنه من أن يأسر رجلين من وجهاء قريش وشجعانها، هما سائب بن عبيد، والنعمان بن عمرو.

نصف السرية

بعد غزوة بني النضير وبلوغ الخبر إلى مكة بإجلائهم عن المدينة، فقد غاظ ذلك المشركين، لأن العداوة المستقرة بينهم وبين المسلمين تجعلهم يرون كل نصر يحققه المسلمون بمثابة طعنة في كبد المشركين، ويداخلهم إحساس بأنه ممنوع منهم وأن أي مواجهة سافرة بينهم لابد ستنتهي بانتصار المسلمين، وأن الغدر قد يحقق لهم بعض ما يريدون من الكيد للمسلمين، فقال أبو سفيان لنفر من قريش: ألا أحد يغتال محمدًا فإنه يمشي في الأسواق؟ فأتاه رجل من الأعراب فدخل عليه منزله وقال له: لقد وُجدت أجمع الرجال قلبًا وأشد بطشًا، وأسرعه شدًا، فإن أنت وفيتني خرجت إليه حتى أغتاله، ومعي خنجر مثل خافية النسر، فأسوره ـــ أقتله ـــ ثم آخذ في عير وأسبق القوم عدوا، فإني هاد بالطريق خريت.

قال أبو سفيان: أنت صاحبنا، فأعطاه بعيرًا ونفقة، وقال: اطو أمرك فإني لا آمن أن يسمع هذا أحد فينميه إلى محمد، فقال الأعرابي: لا يعلمه أحد.

خرج الأعرابي من مكة ليلاً على راحلته فسار خمسًا وصبح ظهر الحي يوم سادسه، ثم أقبل يسأل عن النبي ﷺ حتى أتى المصلى، فقال له قائل: قد توجه إلى بني عبد الأشهل، فعقل راحلته ثم أقبل يؤم النبي ﷺ، فوجده في جماعة من أصحابه يحدث في مسجده، فلما دخل ورآه النبي ﷺ، قال لأصحابه إن هذا الرجل يريد غدرًا، والله حائل بينه وبين ما يريده، فوقف الأعرابي وقال: أيكم ابن عبد المطلب؟

فقال النبي ﷺ: أنا ابن عبد المطلب.

فذهب ينحني على النبي ﷺ كأنه يسر إليه حديثًا، فجبذه أسيد بن حضير وقال:

تنح عن رسول الله، وجذب بداخل إزاره فإذا الخنجر، فقال أسيد: يا رسول الله، هذا الرجل غادر، فأسقط في يد الأعرابي، وقال: دمي، دمي يامحمد، وأخذه أسيد بن حضير يلببه، فقال له النبي ﷺ: أصدقني ما أنت فيه وما أقدمك، فإن صدقتني نفعك الصدق، وإن كذبتني، فقد اطلعت على ما هممت به.

قال الأعرابي: فأنا آمن إن صدقتك؟

قال: وأنت آمن.

فأخبره بخبر أبي سفيان، وما جعل له، فأمر به فحبس عند أسيد بن حضير، ثم صار له من الغد فقال: قد أمنتك، فاذهب حيث شئت، أو خير لك من ذلك؟

قال: ما هو؟

قال: أن تشهد أن لا إله إلا الله، وأني رسول الله.

قال الأعرابي: أشهد أن لا إله إلا الله، وأنك رسول الله، والله يا محمد ما كنت أفرق — أخاف — من الرجال، فما هو إلا أن رأيتك فذهب عقلي وضعفت، ثم اطلعت على ما هممت به، فما سبقت به الركبان، و لم يطلع عليه أحد فعرفت أنك ممنوع، وأنك على حق، وأن حزب أبي سفيان حزب الشيطان.

فجعل رسول الله ﷺ يبتسم، وأقام الأعرابي أيامًا، ثم استأذن النبي ﷺ فخرج من عنده، و لم يسمع له بذكر بعدها.

ثم طلب النبي ﷺ سلمة بن حريش وعمرو بن أمية الضمري، وقال لهما: وكان عمرو بن أمية فتَّاك الجاهلية، ومن أنجاد العرب، وأشد رجالها نجدة وجراءة، أسلم في مكة قديمًا، وكان من مهاجرة الحبشة، ثم هاجر إلى المدينة بعد بدر وأحد وكان أول مشاهده بئر معونة، ولكنه لم يقتل يومها وإنما أسره بني عامر، فقال له عامر بن الطفيل: إنه كانت أمي نذرت أن تعتق نسمة فهي عليها، فجز ناصيته، وقال له: اذهب فأنت حرّ عنها.

وهو الذي حمل كتاب النبي ﷺ إلى النجاشي فاسلم النجاشي، كذلك كان وكيل النبي ﷺ في العقد على أم حبيبة بنت أبي سفيان وكانت مهاجرة إلى الحبشة، فذهب إلى النجاشي وأتم عقد الزواج وجهزها النجاشي، وعاد بها عمرو إلى المدينة.

لا عجب إذن أن يختار لهذه السرية رجلان من أبطال المسلمين أحدهما مكي وهو عمرو بن أمية، والآخر مدني وهو سلمة بن أسلم بن حريش.

يقول عمرو بن أمية: فخرجت أنا وصاحبي حتى أتينا بطن يأجج، فقيدنا بعيرنا، وقال لى صاحبي: يا عمرو هل لك في أن نأتي مكة فنطوف بالبيت سبعا ونصلي ركعتين.

قلت: أنا أعلم بأهل مكة منك، إنهم إذا اظلموا رشوا أفنيتهم ثم حلوا بها، وإني أعلم بمكة

من الفرس الأبلق، فأبى عليّ، فانطلقنا فأتينا مكة، فطفنا سبعا، وصلينا ركعتين، فلما خرجنا لقينا معاوية بن أبي سفيان فعرفني، وقال: عمرو بن أمية؟ واحزناه، فندر أهل مكة بنا وقالوا: ما جاء عمرو في خير.

وكان عمرو فاتكا في الجاهلية، فحشد أهل مكة وتجمعوا، وهرب عمرو وسلمة، وخرج أهل مكة في طلبهما فاشتدا في الجبل.

قال عمرو: فدخلت في غار فتغيبت عنهم، حتى أصبحت، وباتوا يطلبوننا في الجبل، وعمى الله أبصارهم فضلوا طريق المدينة أن يهتدوا إليه، ثم أدركني سلمة فبتنا ليلتنا في الغار، فلما كان صحوة الغد أقبل عثمان بن مالك بن عبيدالله التيمي يختلي لفرسه حشيشًا، فقلت لسلمة ابن أسلمة: إذا أبصرنا أشعر بنا أهل مكة وقد أفضوا عنا، فلم يدن من باب الغار حتى أشرف علينا، فخرجت إليه فطعنته طعنة تحت الثدي بخنجري، فسقط وصاح، فاجتمع أهل مكة، فأقبلوا، ورجعت إلى مكاني فدخلت فيه، وقلت لصاحبي: لا تتحرك.

فأقبل أهل مكة حتى أتوا صاحبهم، فقالوا: من قتلك؟ قال: عمرو بن أمية الضمري، فقال أبو سفيان: قد علمنا أنه لم يأت لخير، و لم يستطع أن يخبرهم بمكاننا، فإنه كان في آخر رمق فمات، فشغلوا عن طلبنا بصاحبهم فحملوه، فمكثنا ليلتين في مكاننا حتى سكن عنا الطلب، ثم خرجنا إلى التنعيم، فقال صاحبي: يا عمرو بن أمية، هل لك في خبيب بن عدي ننزله؟ فقلت له: أين هو؟ قال: هو ذاك مصلوب حوله الحرس، فقلت: أمهلني وتنح عني، فإن خشيت شيئا فانج إلى بعيرك، فاقعد عليه، فأت رسول الله ﷺ فأخبره الخبر، ودعني فإني عالم بمكة.

يقول عمرو بن أمية : ثم استدرت على خبيب حتى وجدته و وجدت الحراس نائمين، فحملته على ظهري، فما مشيت به إلا عشرين ذراعا حتى استيقظوا، فخرجوا في أثري، فطرحت الخشبة فما أنس وجيبها ــ صوت وقوعها على الأرض ــ ثم أهلت عليه التراب برجلي، فأخذت طريق الصحراء، فأعيوا ورجعوا، وكنت لا أدري مع بقاء نفسي.

وانطلق صاحبي ــ وقد رأى ذلك وأيقن أني هالك ــ إلى البعير فركبه، وأتى النبي ﷺ فأخبره.

وأقبلت حتى أشرفت على الغليل ــ غليل ضبخان ــ فدخلت في غار مع قوسي وأسهمي وخنجري، فبينما أنا فيه إذ أقبل رجل من بني بكر أعور طويل يسوق غنما ومعزى، فدخل الغار وقال: من الرجل؟ فقلت: رجل من بني بكر، فقال: وأنا من بني بكر، ثم اتكأ ورفع عقيرته يتغنى، ويقول:

فلست بمسلم ما دمت حيًا ولست أدين دين المسلمينا

فقلت في نفسي: والله إني لأرجو أن أقتلك، فلما نام قمت إليه فقتلته شر قتلة قتلها أحد قط.

يقول عمرو: ثم خرجت حتى هبطت، فلما أسهلت في الطريق إذا رجلان بعثهما قريش يتحسسان الأخبار، فقلت: استأسرا، فأبى أحدهما فرميته فقتلته، فلما رأى ذلك الآخر استأسر، فشددته وثاقًا، ثم أقبلت به إلى النبي ﷺ. فلما قدمت المدينة أتى صبيان الأنصار وهم يلعبون، وسمعوا أشياخهم يقولون هذا عمرو، فاشتد الصبيان إلى النبي ﷺ فأخبروه، وأتيته بالرجل قد ربطت إبهامه بوتر قوسي، فلقد رأيت النبي ﷺ وهو يضحك، ثم دعا لي بخير.

وكان قدوم سلمة قبل قدوم عمرو بثلاثة أيام، أما خبيب فبعد أن أنزله عمرو من مكان صلبه وسقط منه على الأرض، فإن أهل مكة لم يروا له جسدًا، ولعل الله عز وجل دفنه في مكانه وأضلهم عنه.

المطلب الجنة

لم يتخلف سلمة عن مشهد من مشاهد النبي ﷺ، وشهد بعث أسامة الذي أعده النبي ﷺ قبل موته ثم أنفذه أبوبكر الصديق في معركة الثأر من أهل مؤتة التي استشهد فيها أبوه زيد بن حارثة رضي الله عنه.

وفي أيام الصديق كذلك كانت حروب الردة، ومن ثم بدأت الفتوح الإسلامية، وكان خالد بن الوليد بالعراق حين أرسل إليه الصديق بالتوجه إلى الشام لإمداد الجيوش الإسلامية التي تجمع الروم لها وحشدوا، فخلف خالد المثنى بن حارثة، ولكن الفرس أعدوا للمسلمين فأرسل المثنى إلى الخليفة يستنصره ويطلب المدد، فندب عمر الناس للخروج إلى الفرس فهابوهم وأقبل أبوعبيد بن مسعود، وعلى ثلاثة أيام يندب عمر الناس ويتقدم أبوعبيد فولاه عمر قيادة الحملة، وراجعه بعض أصحابه بأن في جند أبي عبيد من هم أقدم منه في الإسلام والجهاد، وأجاب عمر بأن أباعبيد كان أول من انتدب وأجاب. وخرج أبوعبيد بالناس وأوقع بالفرس في عدة مواقع حتى بلغ الفرات وكان الفرس في الجانب الآخر من النهر بأعداد كثيفة وسلاح وفيلة، ولم ينتظر أبوعبيد فعقد جسرًا وأمر رجاله فعبروا وعمد إلى الفيل الأكبر فطعنه، ولكن الفيل من شدة الألم قفز ودار حتى وطئ أبا عبيد، وتشجع الفرس بمقتل أبي عبيد، فحاصروا المسلمين أمام النهر، وكانت موقعة رهيبة قتل فيها كثير من الفرس، ولكنهم نالوا من المسلمين، فقتلوا منهم العدد الكثير، وممن لم يقتل هام على وجهه، وغلبهم الحياء أن يدخلوا المدينة فتناثروا في الأقطار خوفًا من أن

يكونوا فراراً من المعركة، فأرسل إليهم عمر يطمئنهم ويقول: أنا فئة كل مسلم، إشارة إلى قوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفًا فَلا تُوَلُّوهُمُ الأَدْبَارَ ۞ وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلا مُتَحَرِّفًا لِقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَى فِئَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴾ (الأنفال ١٥-١٦).

كان سلمة بن أسلم بن حريش ﷺ من رجال أبي عبيد، كما كان مثله من شهداء ذلك اليوم سنة ١٣هـ.

يقول حسان بن ثابت حين انتهى خبر الجسر إلى المدينة:

لقد عظمت فينا الرزية إننا	جلاد على ريب الحوادث والدهر
على الجسر قتلى، لهف نفس عليهم	فياحسرتا ماذا لقينا من الجسر



معاذ بن عفراء

أبوه الحارث بن رفاعة، نجاريٌّ خزرجيٌّ.

وأمه عفراء بنت عبيد بن ثعلبة، نجارية خزرجية، واشتهر بنسبته إليها هو وأخوه عوف ومعوذ.

شهد الاخوة الثلاثة بدرًا، واستشهد فيها عوذ ومعوذ، وأرجأ الله عز وجل معاذًا إلى أجل مسمى لأدوار بقي عليه أن يؤديها، وليجعل منه أسوة حسنة لمن بعده من الناس. وقالت أمه: يارسول الله هذا شرُّ بنيّ، رزق أخواه الشهادة وحرمها، فقال: النبي ﷺ: ما هو بشرهم.

المقدمات

اصطفى الله عز وجل نبيه ﷺ من أم القبائل [قريش]، وأرسله في أم القرى [مكة]، ليجعل منهم طليعة أم الأمم وأفضلها [المسلمين].

(١) عوائق الملأ:

شرَّف الله قريشًا حين اختارها لتكون مهبط وحيه، وموضع تكليفه، لكي يحملوا هذه الدعوة العالمية إلى الآفاق، ﴿ **قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا** ﴾ (الأعراف ١٥٨) ، وقد استجاب لهذا النداء العلوي من خالط الإيمان قلبه من أهل مكة من يمثلون الألوان والأجناس والأنواع مثل أبي بكر العربي، وبلال الحبشي، وصهيب الرومي، ونساء كخديجة، وصبيان كعلي، وأغنياء كعثمان، وفقراء كعمار.

ولكن الملأ في مكة ــ شأن الملأ مع أي نبي ــ تولوا كبر مقاومة الدعوة، وقادوا حملات الافتراء والتكذيب والأذى للمسلمين.

والملأ هم المترفون في كل مجتمع، أشرافه وسادته وزعماؤه الذين يباشرون السيادة والرئاسة وتوجيه الرأي فيه.

- تصدوا لدعوة نوح عليه السلام وأجرموا في حقه ووصفوه بالضلال المبين ﴿ قَالَ

الْمَلأُ مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ﴾ (الأعراف:٦٠).

- وقاوموا دعوة هود واتهموه بالسفاهة والكذب، ﴿ قَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ (الأعراف:٦٦).
- وشككوا في رسالة صالح وحاولوا تضليل المؤمنين من المستضعفين ﴿ قَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحًا مُرْسَلٌ مِنْ رَبِّهِ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ ۞ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذِي آمَنْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ﴾ (الأعراف ٧٥-٧٦).
- وهددوا شعيبًا ومن معه بالطرد أو يعودوا في ملتهم، ﴿ قَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ﴾ (الأعراف:٨٨).
- واتهموا موسى بالسحر، لوضوح حجته وقوة برهانه، ﴿ قَالَ الْمَلأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ﴾ (الأعراف ١٠٩).
- وجحدوا رسالة سيدنا محمد ﷺ واتهموه بالسحر والكذب، وتواصوا على الضلال والمعاندة، ﴿ وَعَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ ۞ أَجَعَلَ الآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ ۞ وَانْطَلَقَ الْمَلأُ مِنْهُمْ أَنِ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَى آلِهَتِكُمْ إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ ۞ مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي الْمِلَّةِ الآخِرَةِ إِنْ هَذَا إِلا اخْتِلاقٌ﴾ (ص ٤-٧).

يتميز الملأ المعاندون لدعوات الرسل بالكبر وحب الرياسة والجاه، وبالترف الشديد، وبالجهالة، وهم حريصون على تثبيت هذه القيم في مجتمعاتهم، فيشتدون في معاندة من يحاول هدم هذا البناء القيمي، وما الرسالات الإلهية في جوهرها إلا هدمًا لهذا البناء المتهالك، ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ ۞ وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالا وَأَوْلادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾ (سبأ:٣٤-٣٥).

(٢) إنهم يكيدون كيدًا:

قال المغيرة بن شعبة: إن أول يوم عرفت فيه رسول الله ﷺ أني أمشي أنا وأبوجهل بن هشام في بعض أزقة مكة، إذ لقينا رسول الله ﷺ، فقال رسول الله ﷺ لأبي جهل: ياأبا الحكم، هلم إلى الله ورسوله، أدعوك إلى الله.

فقال أبوجهل: يا محمد، هل أنت منته عن سب آلهتنا؟ هل تريد أن نشهد إلا أنك قد بلغت؟ فنحن نشهد أنك قد بلغت، فوالله لو أني أعلم أن ما تقول حق لاتبعتك.

فانصرف رسول الله ﷺ، وأقبل أبوجهل عليّ فقال: والله إني لأعلم أن ما يقـــول حق، ولكن يمنعني أن بني قصي قالوا: فينا الحجابة، فقلنا: نعم، ثم قالوا: فينـــا الســـقاية، فقلنا: نعم، ثم قالوا: فينا الندوة، فقلنا: نعم، ثم قالوا: فينا اللواء، فقلنا: نعم، ثم أطعمـــوا فأطعمنا حتى تحاكّت الركب، قالوا منا نبيّ، والله لا أفعل.

وعن ابن عباس أن الوليد بن المغيرة جاء إلى النبي ﷺ فقرأ عليه القرآن فكأنمـــا رق له، فبلغ ذلك أبا جهل فأتاه فقال: ياعم، إن قومك يريدون أن يجمعوا لك مالا، قال: لم؟ قال: ليعطوكه، فإنك أتيت محمدًا لتعرض ما قبله، قال: قد علمت قريش أني من أكثرهـــا مالاً، قال: فقل فيه قولاً يبلغ قومك أنك منكر له، قال: وماذا أقول؟ فوالله ما منكم رجل أعرف بالأشعار مني، ولا أعلم برجزه ولا قصيده مني، ولا بأشعار الجن، والله ما يشبـــه الذي يقول شيئًا من هذا، والله إن لقوله الذي يقول حلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإنه لمثمر أعلاه مغدق أسفله، وإنه ليعلو ولا يعلى، وإنه محطم ما تحته.

واجتمع الوليد بن المغيرة ونفر من قريش، وكان ذا سن فيهم، وقد حضر المواســـم فقال: إن وفود العرب ستقدم عليكم فيه، وقد سمعوا بأمر صاحبكم هذا، فاجمعوا فيه رأيا واحدًا، ولا تختلفوا فيكذب بعضكم بعضًا، ويرد قول بعضكم بعضًا، فقيل: فقل، وأقم لنا رأيًا نقوم به، فقال: بل أنتم فقولوا وأنا أسمع.

فقالوا: نقول كاهن. قال: ما هو بكاهن، رأيت الكهان، فما هو بزمزمة الكهان.

قالوا: نقول مجنون. قال: ما هو بمجنون، ولقد رأيت الجنون وعرفناه، فمـــا هـــو بخنقه، ولا تخالجه ولا وسوسته.

قالوا: نقول شاعر. قال: ما هو بشاعر، قد عرفنا الشعر برجزه وهزجه وقريضـــه ومقبوضه ومبسوطه، فما هو بشعر.

قالوا: نقول ساحر، قال: ما هو بساحر، قد عرفنا السحَّار، ورأينا سحرهم، فمـــا هو بنفثه ولا عقده.

قالوا: فما تقول يا أبا عبد شمس؟ قال: والله إن لقوله لحلاوة، وإن أصله لمغـــدق، وإن فرعه لجنيّ، فما أنتم بقائلين من هذا شيئًا إلا عرف أنه باطل، وإن أقرب القـــول لأن تقولوا: إنه ساحر، فتقولوا: هو ساحر، لأنه يفرق بين المرء ودينه، وبين المرء وأبيه، وبـــين المرء وزوجه، وبين المرء وأخيه، وبين المرء وعشيرته.

فتفرقوا عنه بذلك، فجعلوا يجلسون للناس حتى قدموا الموسم لا يمر بهم أحـــد إلا حذروه إياه، وذكروا لهم أمره.

وفي الوليد نزل قوله تعالى: ﴿ ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ۝ وَجَعَلْتُ لَهُ مَالاً مَمْـــدُودًا

﴿ وَبَنِينَ شُهُودًا ۞ وَمَهَّدتُّ لَهُ تَمْهِيدًا ﴾ (المدثر:١١-١٤).

وثم محاولة نثبتها عن جابر بن عبدالله ﷺ قال: اجتمعت قريش يومًا، فقالوا: انظروا أعلمكم بالسحر والكهانة والشعر فليأت هذا الرجل الذي فرق جماعتنا، وشتت أمرنا، وعاب ديننا فليكلمه ولينظر ماذا يرد عليه، فقالوا: ما نعلم أحدًا غير عتبة بن ربيعة، فقالوا: أنت يا أباالوليد.

فأتاه عتبة فقال: يامحمد، أنت خير أم عبدالله؟ فسكت رسول الله ﷺ. فقال عتبة: أنت خير أم عبدالمطلب؟ فسكت رسول الله ﷺ. فقال عتبة: فإن كنت تزعم أن هؤلاء خير منك، فقد عبدوا الآلهة التي عبْت، وإن كنت تزعم أنك خير منهم، فتكلم حتى نسمع قولك، إنا والله ما رأينا سخلة قط أشأم على قومك منك [السخلة: المولود المحبب إلى أبويه] فرقت جماعتنا، وشتّت أمرنا، وعبت ديننا، وفضحتنا في العرب، حتى لقد طار فيهم أن في قريش ساحرًا، وأن في قريش كاهنًا، والله ما ننتظر إلا مثل صيحة الحبلى أن يقوم بعضنا إلى بعض بالسيوف حتى نتفانى.

ثم استطرد عتبة يقول: أيها الرجل، إن كان إنما بك الحاجة جمعنا لك حتى تكون أغنى قريش رجلاً، وإن كان إنما بك الباه، فاختر أي نساء قريش شئت فلنزوجك عشرًا، وإن كنت إنما بك الرياسة عقدنا ألويتنا لك، فكنت رأسا ما بقيت.

فقال النبي ﷺ: فرغت؟ قال عتبة نعم.

فقال النبي ﷺ: فاسمع مني، وقرأ من سورة فصلت حتى بلغ قوله تعالى: ﴿ فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴾ (فصلت ١٣)، فوضع عتبة يده على فيه وقال: ناشدتك الرحم أن تكف، حسبك، ما عندك غير هذا؟، قال: لا

فخرج عتبة إلى بيته، واحتبس فيه عن أهله والناس، فقال أبوجهل: والله يامعشر قريش، ما نرى عتبة إلا صبأ إلى محمد وأعجبه طعامه، وما ذاك إلا من حاجة أصابته، انطلقوا بنا إليه، فلما دخلوا عليه قالوا: ما وراءك؟ قال: ما تركت شيئًا أرى أنكم تكلمونه إلا كلمته، قالوا: فهل أجابك؟ فقال: نعم، ثم قال: لا والذي نصب هذه البنية ما فهمت شيئًا مما قال، غير أنه أنذركم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود.

قالوا: ويلك يكلمك الرجل بالعربية ولا تدري ما قال. قال: لا والله ما فهمت شيئًا مما قال غير ذكر الصاعقة، فأمسكت بفيه وناشدته الرحم أن يكف، وقد علمتم أن محمدًا إذا قال شيئًا لم يكذب، فخفت أن ينزل عليكم العذاب.

ثم قال: يامعشر قريش، أطيعوني واجعلوها بي، وخلوا بين هذا الرجل وما هو فيه، واعتزلوه، فوالله ليكونن لقوله الذي سمعت نبأ، فإن تصبه العرب، فقد كفيتموه بغيركم،

وإن يظهر على العرب فملكه ملككم، وعزه عزكم، وكنتم أسعد الناس به.

فقالوا: سحرك والله يا أبا الوليد بلسانه، قال: هذا رأيي، فاصنعوا ما بدالكم.

فقال أبوجهل: والله ياعتبة ما جئتنا إلا أنك صبوت إلى محمد وأعجبك أمره، فإن كان بك حاجة جمعنا لك من أموالنا ما يغنيك عن طعام محمد، فغضب، وأقسم بالله لا يكلم محمدًا أبدًا.

دروس العرض

كثيرًا ما يعتري الدعاة يأس وقنوط، فهم يرون الناس قد بعدوا كثيرًا عن الجادة، وكأنهم لا يستمعون لما يقال، ولا يستجيبون للداعي، فأقوالهم قبض الريح، ودعاؤهم في الهواء.

وقد لا يتوقف الأمر عند هذا الحد، فيجدون الملأ في مجتمعاتهم يثيرون حولهم الإشاعات المغرضة، ويطلقون الدعايات المضللة، ويتهمونهم بما ليس فيهم لهدم أقدارهم عند الناس حتى ينصرفوا عنهم ولا يصدقوهم، وقد ينجحون في ذلك قليلاً أو كثيرًا لأنهم يتحكمون في وسائل الإعلام، ويملكون الأموال والأجهزة التي تؤثر في عامة الناس الذين يغلب عليهم الجهل، وسرعة التصديق للإشاعات المغرضة، ولو تفقهوا سيرة النبي ﷺ لوجدوا أكثر من ذلك قابله، ثم نصره الله.

(١) الطفيل الدوسي

كان سيدًا مطاعًا شريفًا في دوس، وكان قد قدم مكة، فاجتمع به أشراف قريش وحذروه من رسول الله ﷺ، ونهوه أن يجتمع به أو يسمع كلامه، قال: فوالله ما زالوا بي حتى اجمعت أن لا أسمع منه شيئًا ولا أكلمه، حتى حشوت أذني حين غدوت إلى المسجد كرسفًا [قطنًا] فرقًا [خوفًا] من أن يبلغني شيء من قوله، وأنا لا أريد أن أسمعه.

قال: فغدوت إلى المسجد، فإذا رسول الله ﷺ قائم يصلي عند الكعبة، فقمت قريبًامنه، فأبى الله إلا أن يسمعني بعض قوله، فسمعت كلامًا حسنًا، فقلت في نفسي: واثكل أمي، والله إني لرجل لبيب شاعر ما يخفى على الحسن من القبيح، فما يمنعني أن أسمع من هذا الرجل ما يقول، فإن كان الذي يأتي به حسنًا قبلته، وإن كان قبيحًا تركته.

قال: فمكثت حتى انصرف رسول الله ﷺ إلى بيته، فدخلت عليه فقلت: يامحمد، إن قومك قالوا لي عنك كذا وكذا ـــ الذي قالوا ـــ فوالله ما برحوا بي يخوفونني أمرك حتى سددت أذني بكرسف لئلا أسمع قولك، ثم أبى الله إلا أن يسمعني قولك، فسمعت قولاً حسنًا، فاعرض عليّ أمرك.

قال: فعرض عليّ رسول الله ﷺ الإسلام، وتلا القرآن، فلا والله ما سمعت قولاً قط أحسن منه، ولا أمرًا أعدل منه، فأسلمت وشهدت بشهادة الحق، وقلت: يـــانبي الله، إني امرؤ مطاع في قومي، وإني راجع إليهم وهاديهم إلى الإسلام، فادعو الله أن يجعل لي آيـــة تكون لي عونًا عليهم فيما أدعوهم إليه، فقال: اللهم اجعل له آية.

قال: فخرجت إلى قومي حتى إذا كنت بثنية تطلعني على الحاضر وقع بين عيني نور مثل المصباح، فقلت: اللهم في غير وجهي، فإني أخشى أن يظنوا بها مثلة وقعت في وجهي لفراق دينهم، قال: فتحول فوقع في رأس سوطي، قال: فجعل الحاضرون يتراءون ذلـــك النور في رأس سوطي كالمنديل المعلق وأنا أهبط عليهم من الثنية حتى جئتهم فـــأصبحت فيهم، فلما نزلت أتاني أبي ــ وكان شيخًا كبيرًا ــ فقلت: إليك عني يا أبه، فلست مـــني ولست منك، قال: و لم يابني؟ قلت: أسلمت وتابعت دين محمد ﷺ، فقـــال: أي بـــني، فدينك ديني، فقلت: اذهب فاغتسل وطهر ثيابك، ثم ائتني حتى أعلمك مما علمت، قـــال: فذهب، فاغتسل وطهر ثيابه، ثم جاء فعرضت عليه الإسلام فأسلم.

قال: ثم أتتني صاحبتي، فقلت: إليك عني، فلست منك ولست مني، قـــالت: و لم؟ بأبي أنت وأمي، قلت: قد فرق الإسلام بيني وبينك، قالت: فديني دينك، قلت: اذهبي إلى حمي ذي الشري فتطهري منه، [وذو الشري هو الصنم الذي كانت تعبده دوس وكان من وقفهم عليه عين ماء]. قالت: بأبي أنت وأمي، أو تخشى على الصبية من ذي الشري شيئًا؟ قلت: لا، أنا ضامن لذلك، قال: فذهبت، فاغتسلت ثم جاءت فعرضت عليها الإســـلام فأسلمت.

قال الطفيل: ثم دعوت دوسًا فأبطأت عليّ، ثم جئت رسول الله ﷺ بمكة، فقلت: يارسول الله، إنه قد غلبني على دوس الزنا، فادع عليهم، فقال: اللهم اهد دوسا، ارجـــع إلى قومك فادعهم وارفق بهم. قال: فرجعت ما زلت أدعوهم حتى عام الخندق قدمـــت على رسول الله ﷺ بمن أسلم من قومي بسبعين أو ثمانين بيتًا، فلحقناه بخيبر فأسهم لنا مع المسلمين.

(٢) أعشى قيس

كانت قصة الطفيل مثلاً للذين لم تفلح معهم دعايات الملأ من قريش، أمـــا قصـــة الأعشى ــ وهو شاعر لبيب كذلك ــ فهي مثل للذين أفلحت معهم الدعاية فلم تكتب لهم النجاة وكانوا منها على مرمى حجر، وسواء حدثت قبل الهجـــرة أو بعدهـــا، إلا أن الذين ثبطوه هم ملأ قريش أنفسهم.

قال ابن هشام: خرج أعشى قيس يريد الإسلام، وقال شعرًا يمدح فيه النـــبي ﷺ،

ومن شعره هذا:

ألم تغتمض عيناك ليلة أرمدا … وبت كما بات السليم مسهدا
وما ذاك من عشق النساء وإنما … تناسيت قبل اليوم خلة مهددًا
ولكن أرى الدهر الذي هو خائن … إذا أصلحت كفاي عاد فأفسدا
كهولاً وشبانًا فقدت وثروة … فلله هذا الدهر كيف ترددا
وما زلت أبغي المال مذ أنا يافع … وليدا وكهلا حين شبت وأمردا
وأبتذل العيس المراقيل تعتلي … مسافة ما بين النجير فصرخدا
ألا أيهذا السائلي أين يممت … فإن لها في أهل يثرب موعدا
فإن تسألي عني فيارب سائل … حفيٌّ عن الأعشى به حيث أصعدا
أجدت برجليها النجاد وراجعت … يداها خناقًا لينا ليس أحردا
وفيها إذا ما هجرت عجرفية … إذا خلت حرباءَ الظهيرة أصيدا
وأويت لا أوى لها من كلالة … ولا من حفيٌّ حتى تلاقي محمدًا
متى ما تناخى عند باب ابن هاشم … تراحى وتلقى من فواضله ندى
نبي يرى مالا ترون وذكره … أغار لعمري في البلاد وأنجدا
له صدقات ما تغبّ ونائل … فليس عطاء اليوم مانعه غدًا
أجدك لم تسمع وصاة محمد … نبي الإله حيث أوصى وأشهدا
إذا أنت لم ترحل بزاد من التقى … ولاقيت بعد الموت من قد تزودا
ندمت على أن لا تكون كمثله … فترصد للأمر الذي كان أرصدا
فإياك والميتات لا تقربنها … ولا تأخذن سهمًا حديدًا لتقصدا
وذا النصب المنصوب لا تنسكنه … ولا تعبد الأوثان والله فاعبدا
ولا تقربن جارة كان سرها … عليك حرامًا فانكحن أو تأبدا
وذا الرحم القربى فلا تقطعنّه … لعاقبة ولا الأسير المقيدا
وسبح على حين العشية والضحى … ولا تحمد الشيطان، والله فاحمدا
ولا تسخرن من بائس ذي ضرارة … ولا تحسبن المال للمرء مخلدا

فلما كان قريبًا من النبي ﷺ اعترضه بعض المشركين من قريش، فسأله عن أمره، فأخبره أنه جاء يريد رسول الله ﷺ ليسلم، فقال له: يا أبا بصير، إنه يحرم الزنا، فقال الأعشى: والله إن ذلك لأمر مالي فيه من إرب.

قال المشرك: يا أبا بصير، إنه يحرم الخمر. فقال الأعشى: أما هذه، فوالله إن في نفسي منها العلالات، ولكني منصرف فأتروى منها عامي هذا، ثم آته فأسلم.

قال ابن هشام: فانصرف فمات في عامه ذلك، و لم يعد إلى النبي ﷺ.

خيوط النور

صبر رسول الله ﷺ على ما كُذِّبَ وأوذي من قومه، ومن غير قومه، وهو يعرض نفسه على القبائل، ولكن خيوط النور كانت تذاب حتى مع المكذبين، وهم يستعيدون أحداث الرحلة، وكان أخو قريش وما يدعو إليه، وما يتهمه به قومه أهم هذه الأحداث، وقد تسللت هذه الخيوط بالضرورة إلى يثرب، مع أبي الحيسر الذي صد عنه ونأى ونهى عنه، ومع سويد بن الصامت الذي أسلم ولكنه قتل قبل أن يكون لقوله صدى، ومع إياس بن معاذ الذي سمعه قومه يهلل ويسبح ويلفظ بالشهادتين عند موته.

وتسللت خيوط النور إلى همدان، وكادت تنتقل إليها في الموقف، وقد عرض النبي ﷺ على رجل منها سمعه يقول: هل من رجل يحملني إلى قومه فإن قريشًا منعوني أن أبلغ كلام ربي عز وجل، فأتاه رجلٌ تعرّض ليحمله فقال له النبي ﷺ: ممن أنت؟ قال: من همدان، فقال: هل عند قومك منعة؟ قال: نعم. ثم إن الرجل خشي أن يخفر قومه جواره، فأتى النبي ﷺ فقال: آتيهم فأخبرهم ثم آتيك من عام قابل، واتعد النبي ﷺ معه، إن لم يحمله أحد ويمنعه حتى العام القابل أن يذهب معه.

ولكن في رجب كان له موعد مع معاذ بن عفراء أول من لقي النبي ﷺ من الستة عند العقبة في منى، وأول من أسلم معه، ثم تلاه رافع الزرقي، وباقي الستة.

حملت كتيبة الستة التي كان طليعتها معاذ بن عفراء أمانة الدعوة إلى يثرب، و لم تكن مهمتها يسيرة، فإن في يثرب ملأ مثل ملإ مكة، ويمكن أن يقف هذا الملأ في وجه الدعوة كذلك، وقد وقف دونها قبل ذلك، ولعل هذه الكتيبة قد تعلمت مما سمعته من النبي ﷺ، وما سمعته عنه، وعن كيد ملإ قريش له، وصدهم الناس عنه، وهم يدركون كذلك ما فعله أبوالحيسر حين آذى إياس بن معاذ إذ صرح بقبوله دين الإسلام، فالتزموا جانب الحذر وهم يدعون إلى الله، وكانوا يخاطبون الجمهور، ولا يخاطبون الملأ، والجمهور أسرع استجابة إذا تخلص من سطوة الملإ ورقابتهم، وفي العام الذي بعده كان في قافلة اليثربيين اثنا عشر مسلمًا يستخفون بإسلامهم، يمثلون من تركوا وراءهم ممن أسلموا سرًا، وتسللوا من بين قومهم حتى التقوا بالنبي ﷺ فبايعوه وتعلموا منه، ثم تسللوا إلى رحالهم كما تتسلل القطا.

ولكن أهل مكة سرت إليهم شائعة اللقاء عند العقبة، فلما أصبح الصباح غدت على تجار يثرب جلة قريش، حتى جاءوهم في منازلهم في الصباح، وقالوا: يا معشر الخزرج، إنه قد بلغنا أنكم قد جئتم صاحبنا هذا تستخرجونه من بين أظهرنا وتبايعونه على حربنا،

وإنه والله ما من حي من العرب أبغض إلينا من أن تنشب الحرب بيننا وبينهم منكم، فانبعث زعماء وفد يثرب يحلفون ما كان من هذا شيء وما علمناه، والمسلمون ينظر بعضهم إلى بعض، ثم قام وفد قريش وكان فيهم الحارث بن هشام، فأراد كعب بن مالك الأنصاري — وهو من المسلمين — أن يصرف الأذهان عن هذا الأمر، فقال يرفع صوته يكلم عبدالله بن حرام — والد جابر — يا أبا جابر أما تستطيع أن تتخذ — وأنت سيد من سادتنا — مثل نعلي الحارث بن هشام هذا الفتى القرشي؟ فسمعها الحارث فخلع نعليه الجديدين من رجليه ورمى بهما إلى كعب، وقال الحارث، والله لتنتعلنهما، فقال عبدالله: مه ياكعب، لقد أحفظت والله الفتى، فاردد إليه نعليه، فقال كعب: والله لا أردهما، فأل والله صالح. ثم أتى وفد قريش عبدالله بن سلول فقال لهم، إن هذا الأمر جسيم ما كان قومي ليتفرقوا على مثل هذا، وما علمته كان، فانصرفوا عنه.

لكن أصحاب العقبة الأولى وقد رأوا أن الإسلام دخل بمحمد الله كل بيوت المدينة فهم يريدون أن يعلنوه، وأن يتابعوا ما يترل من القرآن الكريم، فأرسلوا إليه معاذ بن عفراء أول من أسلم يطلب منه أن يرسل إليهم مقرئًا يعلمهم الدين، فأرسل معه مصعب بن عمير، وبوصول مصعب إلى المدينة دخل الإسلام المرحلة الجهرية فيها، واستطاع بتوفيق الله تعالى ومؤازرة الطليعة الأولى وأصحاب العقبة أن يحول المدينة إلى دار إسلام على رغم الملإ الذين دخل في الإسلام أفضلهم مثل أسيد بن حضير وسعد بن معاذ.

العائلة البدرية

ثم كانت بدر، وفيها أخرج الله المسلمين للنفير حتى يستحصد عودهم، ويرى العدو شوكتهم، ويقل طمعه فيهم، وكان المسلمون يظنون أنهم إنما خرجوا من أجل العير، فلما انجلى لهم الأمر، ورأوا قريشًا بعددها وعتادها، اشتد الأمر عليهم وكرهوا لقاء قريش وهم على ما هم عليه من قلة عدد وفراغ عدة، كما قال الله تعالى: ﴿ كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ ۝ يجادلونك في الحق بعد ما تبين كأنما يساقون إلى الموت وهم ينظرون ﴾ (الأنفال ٥-٦). ثم انجلى للمسلمين حرج موقفهم، وعرفوا أنهم لابد أن يدافعوا عن دينهم، ويجاهدوا عدوه، فانشرحت صدورهم لمشيئة الله تعالى، وسلموا له تسليمًا، فما زادهم المولى عز وجل إلا إيمانًا وتثبيتًا، فأراهم في منامهم قلة عدد العدو، وألهم رسولهم الدعاء والتضرع.

ثم خرج النبي ﷺ يتلمس الأخبار حتى وقف على شيخ من العرب يسمى سفيان الضمري، فسأله عن قريش وعن محمد وأصحابه، فقال الشيخ: لا أخبركما — للنبي وأبي بكر — حتى تخبراني ممن أنتما. فقال النبي ﷺ: إذا أخبرتنا أخبرناك، فقال: أوذاك بذاك؟ قال: نعم، قال الشيخ: بلغني أن محمدًا وأصحابه خرجوا يوم كذا وكذا، فإن كان صدق

الذي أخبرني فهم اليوم بمكان كذا وكذا — للمكان الذي فيه المسلمون — وبلغني أن قريشًا خرجوا في يوم كذا وكذا، فإن كان صدق الذي أخبرني فهم اليوم بمكان كذا وكذا، للمكان الذي فيه قريش، فلما فرغ من خبره قال: ممن أنتما؟ فقال النبي ﷺ: نحن من ماء، ثم انصرف عنه، والشيخ يقول: ما من ماء؟ أمن ماء العراق؟!.

ومن تأييد الله تعالى ما كان يلقيه من الهلع في صفوف المشركين، ومن ذلك أن جهيمًا بن الصلت قال: إني رأيت فيما يرى النائم وإني لبين النائم واليقظان إذ نظرت إلى رجل قد أقبل على فرس حتى وقف ومعه بعير له، ثم قال: قتل عتبة بن ربيعة، وشيبة بن ربيعة، وأبوالحكم بن هشام، وأمية بن خلف، وفلان وفلان، فعد رجالاً ممن قتلوا ببدر من أشراف مكة، ثم ضرب في لبة بعيره، ثم أرسله في المعسكر فما بقي خباء من أخبية العسكر إلا أصابه نضح من دمه. فبلغت الرؤيا أباجهل، فقال: وهذا نبي آخر من بني المطلب، سيعلم غدًا من المقتول إن نحن التقينا.

ثم أنزل الله عز وجل ليلة المعركة على المسلمين مطرًا، قال علي: أصابنا من الليل طش من المطر، فانطلقنا تحت الشجر والحجف نستظل من المطر، وبات رسول الله ﷺ قائمًا يصلي، ويقول: اللهم إن تملك هذه العصابة لا تعبد بعدها في الأرض، اللهم نصرك، وجعل أبوبكر يلتزمه من ورائه ويسوي عليه رداءه، ويقول مشفقًا عليه: يارسول الله بعض مناشدتك ربك، فإنه سينجز لك ما وعدك.

يقول ابن العربي: كان رسول الله ﷺ في مقام الخوف، وكان أبوبكر في مقام الرجاء، وكان مقام الخوف في ذلك اليوم أكمل.

وكان في الصفوف أبناء عفراء الثلاثة [معاذ ومعوذ وعوف].

جاء في الصحيحين عن عبدالرحمن بن عوف: إني لفي الصف يوم بدر، إذ التفت فإذا عن يميني وعن يساري فتيان حديثا السن، فكأن لم آمن بمكانهما، إذ قال لي أحدهما سرًا من صاحبه: ياعم أرني أبا جهل، فقلت: ياابن أخي، ما تصنع به؟ قال: عاهدت ربي إن رأيته أن أقتله أو أموت دونه، وقال الآخر لي سرًا من صاحبه مثله، فما سرني أنني بين رجلين مكانهما، ثم أشرت لهما إليه، فشدا عليه مثل الصقرين حتى ضرباه، وهما ابنا عفراء.

وروى ابن عباس عن معاذ بن عفراء قال: سمعت القوم وهم في مثل الحرجة [الشجر الملتف حول بعضه] وأبوجهل فيهم، وهم يقولون: أبوالحكم لا يخلص إليه، فلما سمعتها جعلته من شأني، فقصدت نحوه، فلما أمكنني حملت عليه، فضربته ضربة عظيمة، فطنت قدمه بنصف ساقه [قطعت] وضربني ابنه عكرمة على عاتقي فطرح يدي، فتعلقت بجلدة من جنبي، واجهضني القتال عنه [شغلني عنه القتال لأجهز عليه] ولقد قاتلت عامة يومي وإني لأسحبها خلفي، فلما آذتني وضعت قدمي عليها وتمطيت حتى طرحتها.

رجل الله

عرف معاذ بن عفراء ﷺ ربه منذ وصله به رسول الله ﷺ عند العقبة في منى، ومنذ عرفه لم يبعد عنه طرفة عين، وإن عبرنا بدقة لقلنا إنه منذ عرفه، وهو دائم القرب به، يعمل كل شيء يقربه إليه ويحببه فيه، تعلّم من معلمه ومرشده وهاديه قول الله تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا... ﴾ (العنكبوت ٦٩)، فهو في جهاد دائم ليهتدي إلى سبيل الله. جاهد عقيدته الموروثة، وعبدالله وحده، وقطع كل العلائق غير علاقته به، وبكل ما فيه مرضاة له. وجاهد نفسه التي توسوس له، وتزين له مباهج الحياة، فامتدت مطامحه إلى متع أبهج وأكثر متعة.

وجاهد الشح الذي أُحضر النفوس، وغلب على التجار، فوقى نفسه شحها، ومن يُوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون.

سمع من النبي ﷺ، وتعلم وفقه في الدين، فوزن عمله بميزانه بحيث لا يميل ميزانه عن هوى أو جهاله.

حدث معاذ القرشي قال: طفت مع معاذ بن عفراء بعد العصر وبعد الصبح، فلم يصلّ فسألته، فقال: قال رسول الله ﷺ: لا صلاة بعد صلاتين، بعد الغداة حتى تطلع الشمس، وبعد العصر حتى تغرب الشمس.

وتكفل بأبناء أخيه شهيد بدر معوذ، وبرعت منهم الربيّع، فصارت مرجعًا للعلم والفتوى، وكان يرسلها بالهدايا للنبي ﷺ فتقبس من عمله، وتنال من بركته، وعطاياه.

قالت الربيع: أرسل معي عمي معاذ قناعًا من رطب وقطفًا من عنب للنبي ﷺ، فناولني حليًا من ذهب أتاه من صاحب البحرين، وقال لي تحلي بها. وكان يصحبها معه إذا غزا مع النبي ﷺ.

قال أحمد بن زهير: سمعت أبي يقول: الربيع بنت معوذ بن عفراء من المبايعات تحت الشجرة. وقال موسى بن هارون: صحبت النبي ﷺ ولها قدر عظيم.

وسمع معاذ قول النبي ﷺ: " إن صدقة المسلم تزيد في العمر، وتمنع ميته السوء، ويذهب الله بها الكبر والفقر والفخر ". وقوله: " إن الصدقة لتطفيء غضب الرب وتدفع ميتة السوء ".

يقول: عبدالرحمن بن أبي ليلى: كان معاذ بن عفراء لا يدع شيئًا إلا تصدق به، فلما ولد له استشفعت امرأته بأخواله فكلموه، وقالوا له: إنك قد أعلت فلو جمعت لولدك؟ قال: أبت نفسي إلا أن أستتر بكل شيء أجده من النار.

فلما مات ترك أرضًا كان يقول عنها ــ وعليه ملاءة صفراء ما تساوي ثلاثة

دراهم — ما يسرني الأرض بملاءتي هذه.

قرأ معاذ قول الله تعالى: ﴿ فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ ۝ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ ۝ فَكُّ رَقَبَةٍ ﴾ (البلد ١١-١٣). فعرف معاذ فضيلة عتق الرقاب، فأصبح لا يجد وسيلة لهذه القربة إلا سلكها.

يروي وهب بن جرير عن أبيه: كان عمر بن الخطاب ﷺ يأمر بحلل تنسج لأهل بدر، فكان يبعث إلى معاذ منها، فقال معاذ لأفلح مولى أبي أيوب: يا أفلح، بع هذه الحلة. يقول أفلح: فبعتها بألف وخمسمائة درهم، ثم قال: اذهب وابتع لي رقابًا فاشتريت له خمس رقاب، ثم قال: والله إن امرءا اختار قشرين [إزارًا ورداء] يلبسهما على خمس رقاب يعتقها لغبين الرأي، ثم قال للأعبد: اذهبوا فأنتم أحرار.

فبلغ عمر أنه لا يلبس ما يبعث له إليه، فاتخذ له حلة غليظة أنفق عليها مائة درهم. فلما أتاه بها رسول عمر قال معاذ: ما أراه بعثك بها إليّ. قال الرسول: بلى والله. فأخذ معاذ الحلة فأتى بها عمر، فقال: يا أمير المؤمنين، بعثت إلي بهذه الحلة؟ قال: نعم، إن كنا نبعث إليك بحلة مما نتخذ لك ولإخوانك، فبلغني أنك لا تلبسها.

فقال: يا أمير المؤمنين، إني وإن كنت لا ألبسها فإني أحب أن يأتيني من صالح ما عندك. فأعاد له عمر حلته.

ورحل رجل الله إلى ربه بعد مقتل أمير المؤمنين عثمان، ﷺ.



فروة بن عمرو البياضي

من الخزرج الذين سلمت لهم السيادة على يثرب قبل الهجرة النبوية الشريفة، بعد أن كان يتنازع على السيادة عليها ثلاثة أطراف، وهم اليهود والأوس والخزرج، فحينا يتغلب اليهود فتكون لهم السيادة، وعندئذ يقوم حلف كراهية بين الأوس والخزرج إذ يشتركان حينئذ في كراهية أن يسودهم اليهود، فإذا ما تغلب العرب على اليهود استيقظت العداوة بينهما- أعني الأوس والخزرج - حتى ينحسم النزاع بتغلب أحد الفريقين فتتم له السيادة.

وأن تكون السيادة لإحدى الطوائف الثلاث، فهي سيادة التسلط والقهر وتصفية الحسابات، وانعدام الثقة.

فالفريق الذي تمت له الغلبة ذاق مرارة الذل والهوان إذا كانت السيادة لأحد خصميه، وبالأحرى عدوّيه.

إن كلمة (العداوة) هي طبيعة العلاقة الدائمة بين سكان يثرب، والوصول إلى السيادة عليها يعني الاستبداد والقهر والجور من الفريق الغالب، ويعني الخسف والخنوع من الفريقين المغلوبين، والفرقاء الثلاثة يدركون أن الغالب حريص على بقاء سيادته فهو يبالغ في التسلط وأن الفريقين المنهزمين حريصان على إزالته وإسقاطه، ويتحينان الفرصة للقضاء عليه، واستذلاله، فالشرخ كبير بين العرب واليهود، ولعله أشد اتساعاً بين العرب أنفسهم، ولذلك أمتن الله عليهم بنعمة إذهاب العداوة من صدورهم فذكّرهم قائلاً " **واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخوانا**"

ولا شك أن شفاء غيظ القلوب من أجل النعم لما يترتب عليه من طيب النفوس، وصفاء الحياة، والتفرغ للمهام الجليلة التي هي أولى بشغل القلوب، وتدبير العقول.

إن المسلمين موعودون بالاستخلاف في الأرض، والاستخلاف يعني التمكن منها والتسلط عليها بالعمل والجد لإعمارها وتمهيدها لتكون صالحة لحياة آمنة راضية أنيسة لأهلها، لا ينشغل فيها مسلم عن الضرب فيها بالخوف على نفسه أو حرمه، ولايتشتت بين جهاد الأعداء ومكابدة الأحقاد والغل على أخيه، وما أشقها مكابدة، وما أثقلها حياة

تتحملها.

إن الفطرة السليمة يؤودها هذا الحمل الثقيل، وتتحين الفرصة، وتتلمس السبل للتخفف من هذا الوقر الذي يثقل على ظهرها، ويخنق أزاهير الحب في جنباتها، ويجللها بالسواد الحالك.

لا عجب - والشأن كذلك - أن يسارع الأوس الإسلام للتخلص جبروت أبناء عمومتهم الخزرج، ولعلهم - بفهم أدق - يريدون أن يتخلصوا من عبء العداوة والبغضاء التي أفسدت حياتهم.

ولا عجب - كذلك - أن يسارع الخزرج إليه وهم السادة المتحكمون الذين يعدون التاج لكبيرهم حتى يعينوه ملكاً على يثرب، فهم مثل إخوانهم يتبرمون بما لا قبل لهم به من أمراض النفوس.

أما الفريق الثالث - وهم اليهود - فهم الذين كفروا من بني إسرائيل الملعونون على لسان داود وعيسى بن مريم بسبب كفرهم وعدوانهم فقد ناصبوا الإسلام العداوة منذ الوهلة الاولى وهم وحدهم بين نظرائهم الذين وصلهم خبره في كتبهم، ويعرفون أنه الحق، لأنهم لا يستيطعون الحياة إلا بنفوس مريضة، وقلوب تشتعل بنيران الكراهية والخلاف، فالله عز وجل لا يشفي إلا صدور قوم مؤمنين.

كان فروة من سابقي الأنصار إلى الإسلام، وشهد العقبة وبايع النبي ﷺ، ثم عاد إلى المدينة وقد أكسبته البيعة حساً إيمانياً قوياً، جعله ينكر ما كان يفعل هو وقومه، من عبادة الأصنام، ويتعجب كيف أقرت عقولهم هذا الإرث، وعاشت به مصدقة أو خانعة لسلطان هذه الأحجار والأخشاب والنصب، يتقربون إليها، ويذبحون عليها ويلتمسون منها النفع والضر، وهي التي لا تملك لنفسها نفعاً ولا ضرا، ولا موتاً ولا حياةً ولا نشورا.

أفضى فروة بهمومه إلى صديقه زياد بن لبيد فوجده قد أصابه نفس التبدل وأهاجه ذات التفكير، وهو مثله يبحث عن التكفير، وحقيقة أن الإسلام يجب ما قبله، لكن الحقيقة كذلك أن كثيراً من قومهم بني بياضة - بل أكثرهم - ما زالوا يدينون للأصنام ويخنعون لسلطانها، وما زالوا يستمعون لمصعب ويعاندون ويصدون عن الحق.

لم يقنع فروة بمجرد أنه أسلم فأنجى نفسه من النار، وإنما كان راغباً في أن يبصّر قومه بالحق فتشملهم رحمة الله وهي قريبة من المحسنين، وإذا كانت الدعوة القولية لم تجد الصدى المرجو منها، فلا مناص من بيان عملي يكشف بجلاء عجز الأصنام، وعدم قدرتها على أن تمنع الضر عن نفسها، ومن لا يستطيع أن يحفظ نفسه فقد أثبت عجزه عن حفظ غيره.

انطلق فروة وزياد بن لبيد يلقنان قومهما درساً لا يشك في صدقة شـــاكّ فكانـــا يتربصان حتى يجن الليل ويسكن الناس، فيتسللان إلى مرابض الأصنام فيكسرون منها مـــا يشاء الله لهم أن يكسروا، مترسمين في ذلك خطى أبيهم الخليل عليه السلام حين تخلف عن الخروج مع قومه في يوم زينتهم ثم راح يجعل أصنامهم جذاذا إلا كبيرهم ليتحداهـــم بـــه فيسألوه من كسر هذه الأصنام، وكما رجع قوم إبراهيم إلى أنفسهم فقالوا إنكـــم أنتـــم الظالمون، فقد رجع بنو بياضة إلى أنفسهم موقنين بعجز أصنامهم، لكـــن قـــوم إبراهيـــم نكسوا على رؤوسهم وكابروا فضلوا وأضلوا، بينما نبذ بنو بياضة ضلالهم، ونفضوا عـــن عيونهم غشاوة الكفر فأبصروا نور اليقين ودخلوا في دين الله أفواجا.

اطمأن قلب فروة وزياد إلى نجاة قومهم، فانشغلوا بتعليم أنفسهم أن يكون الإسلام همهما تسير حياقما على منهجه، ويكون هو همه وفقاً لما جاء به، أما زياد فقد خرج إلى مكة ليحمل مع الطليعة ويتعلم معها، فلا يعود إلى المدينة إلا مهاجرا بعد هجرة النبي ﷺ فيضيف إلى رصيده شرف الهجرة بعد شرف النصرة، فيسمى مهاجرياً أنصارياً، وأما فروة - وكان ذا مال - فقد بقي في المدينة ينشغل بجد في تثمير ماله وتنميته لأن فهمه العميـــق توصل إلى أن الدعوة في حاجة إلى المال في الأيدي بمثل ما هي في حاجـــة إلى الإيمـــان في القلوب.

إن من النتائج اليقينية لبيعة العقبة أن المدينة ستكون مـــهجر المضطريـــن في مكـــة وغيرها بسبب إسلامهم، وليس من الأخوة أن يخرج هؤلاء من أراضيهم وأهليهم وأموالهم ثم يكابرون في المدينة هم ضرورات الحياة من مأكل ومسكن والمال يمكن أن يوفـــر لهـــم ذلك.

كما أن المدينة هي مهجر النبي ﷺ، وبهجرته يصبح في الجزيرة مركـــزان للثقـــل، مركز الكفر في مكة ومركز الإسلام في المدينة، فالصراع قائم وقـــادم لا محالـــة، فـــالحق والباطل لا يجتمعان، ولن يقبل أحدهما بالتعايش مع الآخر، وهذا الصـــراع يـــأخذ مـــن الأنفس كما يأخذ من الأموال، وبهذا الفقه يصبح استثمار المال عملاً عبادياً ويصبح بذل والوقت فيه من الأعمال المتقبلة المقرونة بالإيمان.

كان فروة طالباً للعلم الذي وصفه الشاطبي في الموافقات بأنه العلم البـــاعث علـــى العمل الذي لا يخلي صاحبه جارياً مع هواه كيفما كان.

وكان يعمل بمقتضى علمه، فإذا وجد الناس يجهرون بالقرآن فلا يستطيع من يستمع أن يميز ما يسمع روي لهم عن النبي ﷺ " **لا يجهر بعضكم بالقرآن على بعض** ".

وكان يعدّ نفسه ليبذله في سبيل الله وفاء ببيعته مع الله، فإذا انتدب الناس لغزوة أو سرية كان في الصف لا يولي دبره إلا متحرفاً لقتال أو متحيزاً إلى فئة، وإنه ليكفيه شهوده

بدرا ليكون من الذين كأن الله قد اطلع عليهم ثم قال لهم افعلوا ما شئتم فقد غفرت لكم.

وإذا كان لكل واحد من الناس سمة تميزه بالإضافة لما عنده من سمات الكمال، فإن ما كان يميز فروة أنه كريم سمح مضياف، والكرم عند فروة خصلة فطره الله عليها تبدّت في جاهليته، ونمت في إسلامه لكنها اتخذت طابعا عبادياً فريداً يلتحق بالأصل الذي ذكرناه من قبل وهو بذل الجهد في استثمار أمواله من زاوية عبادية.

* * *

قال ابن هشام : سميت سنة تسع من الهجرة بأنها سنة الوفود.

وقال ابن اسحق : لما افتتح النبي ﷺ مكة، وفرغ من تبوك، وأسلمت ثقيف وبايعت ضربت إليه الوفود من كل وجه.

وإنما كانت العرب تربص بإسلامها أمر هذا الحي من قريش، لأن قريشاً كانوا إمام الناس وهاديتهم، وأهل البيت والحرم وصريح ولد إسماعيل بن إبراهيم، وقادة العرب لا ينكرون ذلك، وكانت قريش هي التي نصبت الحرب لرسول الله ﷺ وأصرت على خلافه، فلما افتتحت مكة ودانت له قريش ودوّخها الإسلام عرفت العرب أنهم لا قبل لهم بحرب رسول الله ﷺ ولا عداوته فدخلوا في دين الله أفْواجا.

وقال عمرو بن مسلمة: كانت العرب تلوم بإسلامهم الفتح فيقولون: اتركوه وقومه فإن ظهر عليهم فهو نبي صادق، فلما كانت وقفة الفتح بادر كل قوم بإسلامهم وبدر قومي بإسلامهم.

وبعض الوفود كان يأتي إلى المدينة اتقاء لخطر المسلمين فكان إسلامهم ينقصه الإيمان كما أخبر الله عز وجل " قالت الأعراب آمنا، قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ولما يدخل الإيمان في قلوبكم وإن تطيعوا الله ورسوله لا يلتكم من أعمالكم شيئا ".

ومن الوفود من كان يأتي طالباً للعطاء مثل وفد بني تميم إذ قال لهم النبي ﷺ اقبلوا البشرى يا بني تميم فقالوا بشرتنا فأعطنا فرئي ذلك في وجه النبي ﷺ، أي لم يعجبه طمعهم في الدنيا، وما بدا من إعراضهم عن الآخرة. ثم جاء وفد آخر من بني تميم ليفاخروا النبي ﷺ، وأبرزوا تحديهم في صورة عابها الله عز وجل عليهم إذ جاءوه من وراء جدار بيته ينادونه بأصوات عالية تقض المضجع وتزعج النفس : يا محمد اخرج إلينا، فأذاه صياحهم ثم خرج إليهم فقالوا له : يا محمد جئناك نفاخرك ونريد أن تأذن لخطيبنا وشاعرنا، وكان الناس قد اجتمعوا على صياحهم حتى امتلأ بهم المسجد، فقال النبي ﷺ :

قد أذنت لخطيبكم فليقل، فقام عطارد بن حاجب فقال : الحمد لله الذي له علينا الفضل والمن – وهو أهله الذي جعلنا ملوكاً، ووهب لنا أموالاً عظاماً نفعل فيها المعروف،

وجعلنا أعزة أهل المشرق وأكثره عدداً وأيسره عدة، فمن مثلنا في البأس، ألسنا برءوس الناس وأولي فضلهم، فمن فاخرنا فليعدد مثلما عددنا، وإنا لو نشاء لأكثرنا فيما أعطانا وإنا نعرف بذلك، أقول هذا لأن تأتوا بمثل قولنا، وأمر أفضل من أمرنا، ثم جلس، وهذه الخطبة كان جهزها من قبل أن يأتي من أجل المفاخرة، ولم يمهله النبي ﷺ فقال لثابت بن قيس بن شماس الخزرجي : قم فأجب الرجل في خطبته.

فقام ثابت فقال : الحمد لله الذي السموات والأرض خلقه، قضى فيهن أمره ووسع كرسيه علمه، ولم يك شيء قط إلا من فضله، ثم كان من قدرته أن جعلنا ملوكاً واصطفى من خيرته رسولاً، أكرمه نسباً، وأصدقه حديثاً، وأفضله حسباً، فأنزل عليه كتاباً وائتمنه على خلقه، فكان خيرة الله من العالمين، ثم دعا الناس إلى الإيمان به، فأمن برسوله الله المهاجرون من قومه وذوي رحمه، أكرم الناس أحساباً، وأحسنهم وجوها وخير الناس فعالاً، ثم كان أول الخلق إجابة واستجاب لله حين دعاه رسوله ﷺ نحن، فنحن أنصار الله ووزراء رسوله، نقاتل الناس حتى يؤمنوا، فمن أمن بالله ورسوله منع ماله ودمه، ومن كفر جاهدناه في الله أبداً، وكان قتله علينا يسيرا، أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم وللمؤمنين والمؤمنات، والسلام عليكم.

وقام شاعر الوفد الزبرقان بن بدر لينشد، فبعث النبي ﷺ من استدعى حسان بن ثاب ليسمعه وهو يقول :

نحن الكرام فلا حيٌ يعادلنا ... منا الملوك وفينا تنصبُ البيع
وكم قسرنا من الأحياء كلهم ... عند النصاب وفضل العز يتبع
ونحن يُطعم عند القحط مطعمنا ... من الشواء إذا لم يؤنس الفزع
بما ترى الناس تأتينا سراقم ... من كل أرض هوياً ثم نصطنع
فننحر الكوم عبطاً في أرومتنا ... للنازلين إذا ما أنزلوا شبعوا
فما ترانا إلى حي نفاخرهم ... إلا استفادوا وكانوا الرأس تقتطع
فمن يفاخرنا في ذاك نعرفه ... فيرجع القوم والأخبار تستمع
إنا أبينا ولم يأب لنا أحد ... إنا كذلك عند الفخر نرتفع

ثم قال النبي ﷺ : قم يا حسان فأجب الرجل فيما قال.

فقال حسان :

إن الذوائب من فهم وإخوانهم ... قد بيّنوا سنة للناس تُتَّبَع
يرضى بها كل من كانت سريرته ... تقوى الإله وكل الخير يصطنع
قوم إذا حاربوا ضروا عدوهم ... أو حاولوا النفع في اشياعهم نفعوا

سجية تلك منهم غير محدثة　　　إن الخلائق -فاعلم- شرها البدع
إن كان في الناس سباقون بعدهم　　　فكل سبق لأدنى سبقهم تبع
لا يرفع الناس ما أوهت أكفهم　　　عند الدفاع ولا يوهون مارفعوا
إن سابقوا الناس يوماً فاز سبقهم　　　أو وازنوا أهل مجد بالندى منعوا
اعفة ذكرت في الوحي عفتهم　　　لا يطمعون ولا يرديهمُ طمعُ
لا يبخلون على جار بفضلهم　　　ولايمسهمُ من مطمع طبع
إذا نصبنا لحي لم ندب لهم　　　كما يدب إلى الوحشية الزرع
نسمو إذا الحرب نالتنا مخالبها　　　إذا الزعانف من أظفارها خشعوا
لا يفخرون إذا نالوا عدوهم　　　وإن أصيبوا فلا خور ولا هلع
كأنهم في الوغي والموت مكتنع　　　أسد بحلية في أرساغها فدعُ
خذ منهم ما أتوا عفوا إذا غضبوا　　　ولا يكن همك الأمر الذي منعوا
فإن في حربهم فاترك عداوتهم　　　شرا من عليه السم والسلع
أكرم بقوم رسول الله شيعتهم　　　إذا تفاوتت الأهواء والشيع
أهدى لهم مدحتي قلب يوازره　　　فيما أحب لسان حائك صنع
فإنهم أفضل الأحياء كلهم　　　إن جد في الناس جدُّ القول أو شمعوا

وقال ابن هشام إن الزبرقان قال :

أتيناك كيما يعلم الناس فضلنا　　　إذا اختلفوا عند احتضار المواسم
بأنا فروع الناس في كل موطن　　　وأن ليس في أرض الحجاز كدارم
وأنا نذود المعلمين إذا انتخوا　　　ونضرب رأس الأصيد المتفاقم
وإن لنا المرباع في كل غارة　　　نغير بنجد أو بأرض الأعاجم

فقام حسان فأجابه :

هل المجد إلا السودد العود والندى　　　وجاه الملوك واحتمال العظائم
نصرنا وأوينا النبي محمدا　　　على انف راض من معدٍّ وراغم
بحيٍّ حريد أصله وثراؤه　　　بجابة الجولان وسط الأعاجم
نصرناه لما حل بين بيوتنا　　　بأسيافنا من كل باغ وظالم
جعلنا بنينا دونه وبناتنا　　　وطبنا له نفساً بفيء المغانم
ونحن ضربنا الناس حتى تتابعوا　　　على دينه بالمرهفات الصوارم
ونحن ولدنا من قريش عظيمها　　　ولدنا نبي الخير من آل هاشم

بني دارم لا تفخـــروا، إن فخركـــم ... يعود وبالاً عنـــد ذكـــر المكـــارم
هبلتـــم علينـــا تفخـــرون وأنتـــم ... لنا خول من بـــين ظـــئر وخـــادم
فإن كنتـــم جئتـــم لحقـــن دمـــائكم ... وأموالكم ان تقســـموا بالمقاســـم
فـــلا تجعلـــوا لله نـــدا وأســـلموا ... ولا تلبسوا زيـــا كـــزيّ الأعـــاجم

فقال الأقرع بن حابس – زعيم الوفد – وأبي، إن هذا المؤتى له، لخطيبه أخطب من خطيبنا، ولشاعره أشعر من شاعرنا، ولأصواقم أعلى من أصواتنا.

قال ابن اسحق : فلما فرغ القوم اسلموا، وأجازهم النبي ﷺ فأحسن جوائزهـــم وكان منهم الزبرقان بن بدر، وقيس بن عاصم، وكان أحد فصحائهم عمرو بن الأهتـــم تركوه عند رحالهم لأنه أصغرهم سنا، فقال قيس – وكان يبغض عمرو – يا رسول الله: أنه كان منا رجل تركناه في رحالنا وهو غلام حدث، وأزرى به، فأمر له النبي ﷺ بمثل ما أمر لهم، وحين بلغ عمرا ما قال فيه قيس قال يهجوه

ظللت مفترش الهلباء تشتمني. ... عند الرسول فلم تصدق و لم تصـــب
سدناكم سؤددا زهوا وسؤددكم ... باد نواجذه مقـــع على الذنب

فقال النبي ﷺ : لعمرو حين أتاه – والقوم جالسون عنده – أخبرني عن الزبرقـــان بن بدر، فقال عمرو : مطاع في أدْنيه شديد العارضة، مانع لما وراء ظهره.

فقال الزبرقان : يا رسول الله، أنا سيد تميم والمطاع فيهم والمجاب، أمنعهم من الظلم وأخذ لهم حقوقهم، وهذا يعلم ذلك – يشير إلى عمرو – وهو يعلم أنني أفضل مما قـــال، ولكنه يحسدني، فقال عمرو : أنا أحسدك، فو الله إنك للئيم الخال، حديث المال، أحمـــق الوالد مضيع في العشيرة، والله يا رسول الله لقد صدقت فيما قلت أولاً، وما كذبت فيما قلت أخرا، ولكني رجل إن رضيت قلت أحسن ما علمت، وإذا غضبت قلت أسوأ مـــا علمت، ولقد صدقت في الأولى والأخرى جميعا.

فقال النبي ﷺ : إن من البيان لسحرا.

وفي هذا الوفد وأذاهم للنبي ﷺ حين علت أصواقم ينادونه من وراء الحجرات قال الله تعالى : " **إن الذين ينادونك من وراء الحجرات أكثرهم لا يعقلون، ولو أنهم صـــبروا حـــتى تخرج إليهم لكان خيراً لهم والله غفور رحيم** ".

وبسبب موقف بني تميم هذا هجاهم أحد الشعراء فقال

تميم بطرق اللؤم أهدى من القطـــا ... ولو سلكت طرق الرشاد لضلـــت
ولوانّ برغوثا علـــى ظـــهر قملـــة ... رأتـــه تميـــم مـــن بعيـــد لولـــت

ولكن البخاري ومسلم أخرجا عن أبي هريرة قوله : لا أزال أحب بني تميم بعد ثلاث سمعتهن من رسول الله يقولها فيهم.

هم أشد أمتي على الدجال.

وكان منهم سبية عند عائشة، فقال : اعتقيها فإنها من بني إسماعيل.

وجاءت صدقاتهم فقال : هذه صدقات قوم - أو قومي.

كان فروة يراقب حركة الوفود وهي تقدم بالطاعة والخضوع لسلطان الإسلام ويدرك أن دوافعها ليست سواء، ويؤذيه بعض التصرفات الجافية التي تبدر+ من بعض الوفود، ويرجو أن يدخل الإسلام في قلوبهم لينضموا إلى قاعدته الحصينة التي ترد عنه كيد الكائدين، وقد تعلم أن تأليف القلوب يمكن أن يذلل عسيرها ويذل كبرها، فنهض يستقبل وفدا من الأزد قادماً من اليمن بزعامة صرد بن عبد الله الأزدي، فأخذهم إلى بيته وأحسن ضيافتهم، وتحدث إليهم، واستمع منهم وعلّمهم، وبصّرهم، وهيأهم لمقابلة النبي ﷺ.

رأى صرد ومن معه المدى الذي غيره الإسلام في الإنسان، في خلقه وأدبه، وفي إنسانيته وأخوته، وفي وجدانه وشعوره، وفي عقله وتفكيره، ورأوا في فروة بياناً عملياً للإنسان الذي أعاد الإسلام صياغته، فأدركوا أن هذه هي الفطرة التي فطر الله عليها الناس، صبغة الله ومن أحسن من الله صبغة، فذهبوا إلى النبي ﷺ لا لكي يتعلموا وقد علمهم فروة، ولا ليسألوه عن الإسلام وقد أجابهم مضيفهم، وإنما ذهبوا ليبايعوه على الإسلام، وعلى الجهاد في سبيل الله، وليشيدوا بكرم فروة بن عمرو البياض وحسن ضيافته التي حببت إليهم الإسلام، وأدخلت فيهم الإيمان.

طلب صرد من النبي ﷺ أن يكلفه هو وقومه بعمل جهادي يتقربون به إلى الله عز وجل ويكون دليلاً على صدق بيعتهم، فأمره أن يجاهد بمن أسلم معه من يليهم من أهل الشرك من قبائل اليمن.

عاد صرد ومن معه إلى ديارهم يدعون إلى الإسلام وينذرون القبائل من حولهم بحرب لا تبقي ولا تذر إذا لم يخضعوا للإسلام ويكفوا شرهم المستطير من حولهم، ويوقفوا ما توارثوه من إغارة وسلب لأموال الخلق بغير حق، وكانت قبائل جُرش هي الأقرب إليهم فبعثوا منهم رجلين إلى المدينة يستطلعان الأخبار ويتحققان من كلام صرد بن عبدالله، ولم يعلم صرد بأمر الرجلين فخرج بمن أسلم معه إلى جرش، وعلموا بخروجه فامتنعوا منه بقبائل خثعم فحاصرهم شهرا ثم رجع عنهم وكمن برجاله عند جبل كان يقال له جبل كشر، فظنوا أنه ولى عنهم فخرجوا يطلبونه فعطف عليهم فقتلهم قتلاً

شديداً.

وبعد صلاة العصر في مسجد المدينة قال النبي ﷺ : بأي بلاد الله جبل شكر، فقام الجرشيان فقالا : يا رسول الله ببلادنا جبل يقال له كشر وكذلك يسميه أهـــل جـــرش، فقال : إنه ليس بكشر ولكنه شكر (غيرّ اسمه) فقالا : ما شأنه يا رسول الله، قـــال : إن بدن الله لتنحر عنده الآن.

فجلس الرجلان إلى أبي بكر أو عثمان يستفهمان عن معنى قول النبي ﷺ عن البدن التي تنحر عند الجبل، فقال : ويحكما، إن رسول الله ﷺ ينعي لكما قومكما، فإنهم يقتلون الآن، فقوما إليه فاسألاه أن يدعو الله فيرفع عن قومكما، فقاما إليه فسألاه ذلك، فقـــال : اللهم ارفع عنهم. رجع الجرشيان إلى قومهما فوجدوهم قد أصيبوا يوم أخبر عنهم رسول الله ﷺ، ورفع عنهم البلاء حين دعا لهم، فجاء وفد جرش بمن بقي منهم حتى قدموا على رسول الله ﷺ : فأسلموا، وحسن إسلامهم.

* * *

وفد آخر من اليمن استقبله فروة واستضاف أفراده وأكرمهم مدة إقامتهم بالمدينـــة إكراماً لضيف النبي ﷺ. وهو وفد بجيلة يقودهم جرير بن عبد الله البجلي رضي الله عنـــه في مائة وخمسين رجلاً، أطعمهم فروة وأسكنهم وبسط لهم عقيدة الإسلام وشرائعه وآدابـــه، حتى إذا تهيأت نفوسهم للإسلام أذن لهم في أن يقابلوا رسول الله ﷺ.

كانت أخبار ضيف فروة ترد إلى النبي ﷺ، وحلّ جرير صرّة ملابسه فلبس أحسنها وتزين لهذا اللقاء الذي يفصل بين مرحلتين من حياته، مرحلة الجاهلية الـــتي يســـتدبرها، ومرحلة الإيمان التي يستقبلها، وحاشا أن تكون الأولى حياة، وحاشا للثانية أن تكون مجرد حياة، لأنها هي الحياة، لأنه في الأولى كان يعيش في الدنيا بضألتها وغرورها وعماها، أما في الثانية فهو يعيش للآخرة التي هي الحيوان لو كانوا يعلمون.

يقول جرير : لما دنوت من المدينة أنخت راحلتي ثم حللت عتيبتي (صرة ملابســه) ثم لبست حلتي، ثم دخلت المسجد فإذا رسول الله ﷺ يخطب، فرماني النـــاس بـــالحدق، فقلت لجليسي (الذي يجلس بجانبه) يا عبد الله، هل ذكرني رسول الله ﷺ ؟ قال : نعم ذكرك بأحسن الذكر، بينما هو يخطب إذ عرض له في خطبته، وقال : يدخل عليكم مـــن هذا الباب، أو من هذا الفج من خير ذي يمن إلا على وجهه مسحة ملك، قـــال جريـــر: فحمدت الله عز وجل على ما أبلاني.

قال جرير : ثم بعث إلى رسول الله ﷺ - ليتقرب منه - فقال : يـــا جريـــر، لأي شيء جئت؟ قلت : أسْلم على يديك يا رسول الله : قال : فألقى عليّ كساءً ثم أقبل على

أصحابه فقال : " إذا اتاكم كريم قوم فأكرموه " يشير النبي ﷺ إلى رضاه عن فعل فـــروة معهم، ثم قال : يا جرير أدعوك إلى أن تشهد أنه لا إله إلا الله، وأني رسول الله، وأن تؤمن بالله واليوم الأخر، والقدر خيره وشره، وتصلى الصلاة المكتوبة، وتؤدي الزكاة المفروضة ففعلت ذلك، فكان بعد ذلك لا يراني إلا تبسمّ في وجهي.

ثم قال جرير : يا رسول الله، اشترط عليّ فأنت أعلم بالشرط، قال : أبايعك على أن تعبد الله ولا تشرك به شيئا، وتقيم الصلاة وتؤتي الزكاة وتنصح المسلم، وتـــبرأ مـــن الشرك.

وقال جرير: ما حجبني رسول الله ﷺ منذ اسلمت ولارأني قط إلا ضحك وتبسم.

وطالت إقامة جرير ووفده في ضيافة فروة البياضي وكنف النبي ﷺ، حتى قال لـــه يوما يا جرير : ألا تكفيني ذا الخلصة، وهو بيت كانت تقدسه قبيلته قبيلة بجيلة وقبيلة خثعـــم ويضاهئونه بالكعبة ويسمونه الكعبة اليمانية. فقال : يا رسول الله، إني لا أثبت على الخيل فضربه في صدره مرات وقال : اللهم ثبته واجعله هادياً مهديا، فلم يسقط بعد ذلك عـــن فرس، وخرج بالمائة والخمسين الذين اسلموا معه إلى ذي الخلصة فخر بها وحرّقها حـــتى تركها مثل الجبل الأجرب، وبعث إلى النبي ﷺ بشيرا، فبرّك النبي ﷺ على جرير ومن معه خمس مرات، فقال فيه الشاعر

لـــولا جريـــر هلكـــت بجيلـــة نعـــم الفـــتى وبئـــس العشـــيرة

فقال عمر ﷺ : ما مُدِح من هُجي قومُه.

وقال عمر : جرير يوسف هذه الأمة لشدة حسنه وعفته وأدبه.

وبينما كان جرير مرة في مجلس عمر بن الخطاب خرج ريح من أحد الجالســـين، فقال عمر : عزمت على صاحب هذه الرائحة الإ قام فتوضأ فقال جرير : علينـــا كلنـــا فاعزم، فقال عمر عليكم كلكم عزمت، ثم قال : يا جرير ما زلت ســـيدا في الجاهليـــة والإسلام.

ولزمته بركة النبي ﷺ حتى أحصن لسانه عن الكلام وكان يقول : الخرس خير من الخلابة، والبكم خير من البذاء.

وفي خلافة عمر ﷺ جاءه جرير من عند سعد بن أبي وقاص من العراق فقال لـــه عمر : كيف تركت سعدا في ولايته، فقال : تركته أكرم الناس مقدرة وأحسنهم معذرة، هولهم كالأم البرة، يجمع لهم كما تجمع الذرة (صغار النمل) مع أنه ميمون الأثر، مرزوق الظفر، أشد الناس عند البأس، وأحب قريش إلى الناس، قال له : فأخبرني عن حال الناس :

قال كسهام الجعبة، منها القائم الرائش، ومنها العضل الطائش، وابن أبي وقـــاص ثقافـــها يغمز عضلها ويقيم ميلها، والله أعلم بالسرائر.

قال عمر : فأخبرني عن إسلامهم، قال : يقيمون الصلاة لأوقاتها، ويؤدون الزكـــاة لولاتها، قال عمر : الحمد لله، إذا كانت الصلاة، أوتيت الزكاة، وإذا كانت الطاعة كانت الجماعة.

ولعل لفروة كفلا من كل عمل صالح قام به جرير، حيث كان من الذين دعوه إلى الهدى، ومهدوه للإسلام، ومن دعا إلى هدى كان له مثل أجور من اتبعه لا ينقص ذلـــك من أجورهم شيئا.

يلفت الاهتمام في حياة فروة بن عمرو البياضي الأنصاري ﷺ أنه يقـــوم بـــاجل الأعمال وهو في الظل، لم يفته مشهد مع النبي ﷺ، ولم يختلف عن مكرمة ينهض إليـــها وبها أصحاب العزائم، ولم يكن سلبياً يقنع بأنه مسلم مجاهد، وينصـــرف لادارة شئـــون حياته، بل كان فردا فاعلا في تثبيت دعائم دولته الجدية، ولكنه مثل الذي يخفي وجهـــه حتى لا تبرز صورته.

وعلمه استثمار المال أن إنفاقه في سبيل يزيده لأن الله تعالى يخلفه، فـــهو في تجـــارة دائمة مع الله عز وجل يقرضه مدى يدية، ثم يقبض المقابل أضعافاً مضاعفة.

كما علمه استثمار المال دقة التقدير، فكان النبي ﷺ ينتدبه ليخرص له ثمار التمر في نخيل خيبر.

والخرص هو أن يذهب فيرى البلح في الأقناء قبل أن ينضج ثم يقدر قيمته كيـــف تكون بعد أن ينضج ليحسب كم يؤدي من ثمره للنبي ﷺ، والعادة في الخرص أنه تقديري قد يزيد قليلاً أو كثيرا، ولكن خرص فروة على وجه الخصوص لم يكن يزيد ولا ينقـــص وإنما يصبح الثمر كما قال.

لا يعرف على وجه التحديد تاريخ وفاة فروة، ولكن الشيئ المتيقن أنه كان حيـــاً وقت استشهاد أمير المؤمنين عثمان بن عفان ﷺ الله عنه، والسبب في هذا اليقين أن الإمام مالك ﷺ أخرج في الموطإ حديثه عن عدم الجهر بالقرآن " إلا يجهر بعضكم بالقرآن على بعض " ولم يذكر اسمه، فتأول بعضهم أن الإمام تعمد عدم ذكر اسمه لما تردد أنه أعان على قتل عثمان ﷺ، وقد أنكر أكثر أهل العلم أن يكون فروة قد فعل ذلك، فربما كانت لـــه أراء في بعض ممارسات ذي النورين، ولم يكن في ذلك وحده، ولكن ما يعصمه مـــن أن يعين على قتله أنه من أهل بدر الذين بمغفرة الله لهم عصموا من الفسوق بعد الإيمان.

ذهب فروة بن عمرو إلى ربه محملا بأوسمة يغبط عليها

وسام السبق إلى الإسلام.

ووسام العقبة، ووسام النصرة.

ووسام بدر ووسام الحديبية.

ووسام الكرم والسخاء فالسخيّ قريب من الله قريب من الناس، ترفع له الدرجات، وتتزين له الجنات



سالم مولى أبي حذيفة

هذا أشهر نسب لسالم - وأما أضوء نسب له فهو سالم من الصالحين، وثم نسبة أخرى أنيطت به وهي سالم بن معقل.

كان سالم عبدا تملكه امرأة من الأوس هي ثبيتة بنت يعار الأنصارية من بني عبيد الأوسي،رهط أنيس بن قتادة، ومن ثم فلا يعرف له نسب، إلا ما تردد أنه من أهل اصطخر، وأن اسمه سالم بن معقل.

ولكن مالك بن الحارث قال: كان زيد بن حارثه معروفاً بنسبه، وكان سالم مولى أبي حذيفة لا يعرف نسبه، فكان يسمى: سالماً من الصالحين.

هاجر أبو حذيفة إلى المدينة بامرأته سهلة بنت سهيل بن عمرو، وفي المدينة تزوج ثبيتة بنت يعار مولاة سالم، وأرادت ثبيتة أن تقدم لنفسها عند الله فأعتقت عبدها الصالح القارئ للقرآن، ولم تشترط أن يكون ولاؤه لها، وإنما أعتقته سائبة لوجه الله تعالى.

أما أبو حذيفة فقد التقت روحه بروح سالم فتآلفتا طبقاً لقول النبي ﷺ : الأرواح جنود مجندة ما تآلف منها ائتلف، وما تنافر منها اختلف، جمعهما حب الله ورسوله، وجمعهما الإيمان والإخلاص، وجمعهما العمل لنصرة دين الله، والجهاد في سبيله.

طلب منه أبو حذيفة أن يجعل له ولاءه، ثم تبناه فصار يدعى سالم بن أبي حذيفة، فنال سالم بذلك وسامين وسام الأنصار لكونه عتيق امرأة من الأوس، ووسام المهاجرين باعتبار الولاء ثم التبني لأبي حذيفة، ومن نافلة القول أن نذكر بأن الله عز وجل كتب في القرآن أنه رضى عن النبي والمهاجرين والأنصار، فأصاب سالم الرضا من جانبيه وكان المهاجرون والأنصار يختصمون فيه، كل يحاول أن يجعله خالصاً له، فقد كان قارئاً جيد الحفظ جميل التلاوة فكان يؤم المهاجرين في مسجد قباء وفيهم كبار الصحابة ومنهم أبو سلمة وعمر، ولكنه كان أقرأهم، حتى قال فيه النبي ﷺ :" الحمد لله الذي جعل في أمتي مثله ".

ونصح أصحابه فيما رواه الشيخان وأصحاب السنة (خذوا القرآن من أربعة – عبد الله بن مسعود – وسالم مولى أبي حذيفة – وأبي بن كعب – ومعاذ بن جبل).

وذكر ابن حجر رواية ابن المبارك أن أم المؤمنين عائشة احتبست عن النبي ﷺ، فقال لها ما حبسك، قالت : " سمعت قارئا يقرأ، فذكرت من حسن قراءته، فأخذ رداءه وخرج فإذا هو سالم مولى أبي حذيفة قال: "الحمد لله الذي جعل في أمتي مثلك".

ثم رفع القرآن من شأن سالم بإبطاله عادة التبني ﴿ **ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ اللَّهِ فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ** ﴾ (الأحزاب ٥).

فإذا ضممنا هذه الآية الكريمة إلى الحديث الشريف قبلها، لدلنا ذلك على أن الإسلام هو دين الحق الذي لا يحاسب الناس على شرف نسبهم، ولا وجاهة عائلاتهم، ولا رفيع مناصبهم، لأنه رفع نسب الجميع إلى آدم عليه السلام، ثم جعل الإسلام نسباً وثيقاً، والتقوى وحدها وسيلة الرفعة والكرامة، فالناس سواسية كأسنان المشط، "وكلكم لآدم، وآدم من تراب، ولا فضل لعربي على أعجمي، ولا لأبيض على أسود ولا أحمر إلا بالتقوى".

وفي الكتاب العزيز ﴿ **يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ** ﴾ (الحجرات ١٣). فكل هذه العلائق الدنيوية من أبوة وبنوة وخلة، ما هي إلا لتجري سنة الله في خلقه بأن يؤوي الكبير الصغير، وأن يحمل الشاب القوي ذلك الشيخ الضعيف، وليس للآخرة من هذه العلائق شئ، وليس فيها منها شئ إلا ما كان قائماً على تقوى الله، وإلا ما كان منها لله.

فإذا ما عاد الناس إلى ربهم تقطعت هذه العلائق، ﴿ **فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ** ﴾ (المؤمنون ١٠١). كما أن علاقات القربى والصداقة والمحبة إذا لم تكن لله فإنها تنقلب إلى خصومة وعداوة ﴿ **الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ** ﴾ (الزخرف ٦٧).

هناك يفر المرء من أخيه وأمه وأبيه وصاحبته وبنيه، لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه.

ثم منحدر أدنى تهوي إليه هذه العلائق بين المجرمين إذ يود المجرم لو يفتدي من عذاب يومئذ ببنيه وصاحبته وأخيه، ومن في الأرض جميعاً حتى ينجو بنفسه.

كان ما بين سالم وأبي حذيفة أبقى من الحياة، وأنقى من الصداقة، وأقوى من الخلة حيث قرب بينهما المشرب، وألف قلبيهما الإيمان وحدد وجهتهما الجهاد، وربطت بينهما العروة الوثقى، وأضاف إليها أبو حذيفة بعداً دنيوياً مهما وإن تضامن قدره بالنسبة للأبعاد

الأخرى إلا إنه يرمز إلى الشأو الذي رفع الإسلام به سالما العبد العتيق مجهول النسب، إذ زوجه ابنة أخيه فاطمة بنت الوليد بن عتبة.

شهد سالم بدراً وما تلاها من مشاهد، وفي كل مشهد كان يفي ببيعه مع الله رغبة في الشهادة، ونصرة للدين، وفداء للنبي ﷺ فكانت تكتب له الحياة من حيث طلب الموت، فكان يستثمر ما كتب له من الحياة في التفقه في الدين، والتجويد لحفظ القرآن والتخلق بأخلاق القرآن، والتحلي بحلى الإسلام وهي وفيرة وجليلة.

وفي أثناء ذلك ومن أجله وبسببه تزيد الخلة بين سالم وأبي حذيفة، فمنذ كان سالم ابنا له وقد اعتاد أن يراه في بيته حيث يحب أن يراه في النهار أو في الليل.

تشاهد سهلة بنت سهيل زوج أبي حذيفة أن زوجها - على عظيم حرصه لأن يلزمه سالم - يعتريه التغير حين يدخل سالم عليه في بيته، قد يخفي هذا التغير على جميع الناس لكنه لا يخفي على هذه الزوجة الحصيفة، فهل هي غيرة أبي حذيفة، و لم لا فالمسلم غيور على عرضه، لكنه سالم وأنت لا تستغني عنه، لعل هذه المؤمنة الحكيمة قد استكنهت ما يكابده زوجها ويكتمه ولعلها خشيت أن يكون هذا مدخلاً للشيطان ليلقي ظلال الشك على النفس السليمة فيصرفه أو يشغله بنفسه عن المهام التي يجب أن يشتغل بها المؤمن، وهي تحب زوجها وتكره أن تراه سقيم النفس أو مضطرب الفكر، فتلجأ إلى الملاذ الذي يلجأ إليه من حزبه أمر أو صعب عليه التبصر.

أخرج مسلم عن أمنا عائشة رضى الله عنها : أن سالما كان مع أبي حذيفة، فأتت سهلة بنت سهيل بن عمرو رسول الله ﷺ فقالت: إن سالما بلغ مبلغ الرجال، وأنه يدخل عليّ، وأظن في نفس أبي حذيفة شيئاً من ذلك، فقال: أرضعيه تحرمي عليه، قالت يا رسول الله إن له شارباً، قال أعلم أن له شارباً، أرضعيه تحرص عليه ".

قالت أم سلمة زوج النبي ﷺ إن أزواج النبي قلن لعائشة ما نرى هذا إلا رخصة لسالم رخصها له رسول الله ﷺ.

والذي يهمنا من هذا الحديث هو دلالته العظيمة، ولعل أزواج النبي ﷺ قد تولين الإجابة عن سؤال كان بالضرورة سيثار، وهو هل يجوز لمرآة تكون زوجة لرجل أن ترضع رجلاً آخر من ثديها، ويصبح بذلك ابنها من الرضاعة ؟

لقد جاءت الإجابة على ألسنة أمهات المؤمنين بأن ذلك كان رخصة لسالم وحده.

ثم يأتي السؤال الذي يليه وهو : لماذا سالم تكون له هذه الرخصة ؟

وربما تكون الإجابة فيما عرضناه من شدة الخلة بين سالم وأبي حذيفة، ولكن هذه الإجابة قد توسع دائرة الجدل فيأتي التساؤل المنطقي : هل إذا حدث مثل هذه الخلة بين

رجلين يمكن أن يترخص لهما في هذا الأمر ؟

والإجابة : نعم هذا ممكن إذا تحققت ثلاثة شروط كلها غير ممكنة.

- أن يكون الابن الذي سيرضع هو سالم من الصالحين.

- أن يكون الأب أبا حذيفة بن عتبة بن ربيعة.

- أن يكون الذي يرخص هو النبي ﷺ، حيث لا يملك أحد أن يرخص في أمور الشريعة إلا الله تعالى منـزل الكتاب، أو رسوله الذي أمر المسلمون بالأخذ عنه ﴿ **وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا** ﴾ (الحشر ٧) والأمر من النبي ﷺ تشريع بمثل ما هو من الله عز وجل : ﴿ **وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ** ﴾ (الأحزاب ٣٦).

ولم يصل إلينا من الروايات أن النبي ﷺ رخص في رضاع الكبير لأحد غير سالم، وفي هذا إشارة إلى عفة سالم ونبله وبعده عن الشبهات، ودفعاً للخلة بين سالم ومولاه الذي هو بالضرورة أبوه، وزوجته هي أم سالم من الرضاعة، وفتح بذلك لسالم صفحة في كتاب الفقه عنوانها إرضاع الكبير.

ولأن سالماً يعدّ في الأنصار، فقد أخى النبي ﷺ بينه وبين أمين الأمة أبي عبيدة بن الجراح.

ولكونه يعدّ في المهاجرين فقد أخى بينه وبين معاذ ابن ماعص الأنصاري، وقد وفى سالم لأخويه واستمتع بهذه النسبة الإيمانية، غير أن الذي يجمع بينه وبين أبي حذيفة كان أكبر من هذا وأجل، إنه حب في الله بلغ الغاية التي جاء ذكرها في الحديث الشريف عن رجل كان مرتحلاً إلى بلد أخر ليزور أخا له في الله، فأوقف الله على مدرجته ملكاً يسأله إن كان سبب الزيارة صلة رحم أو قضاء دين أو استقضاء حق أو شركة تجارة، فأجاب الرجل بأنه يزوره لا لشيء إلا لأنه يحبه في الله، فجاءته البشرى بأن الله يحبه كما أحب فيه.

ومن حبهما في الله، وحب الله لهما أن كلا منهما يعين أخاه على فعل الطاعات، ويعصم أخاه من الزلل، وينبهه من الغفلة، وإذا نودي للجهاد قميئا معاً، وخرجا معاً، وتواصيا على الحق والصبر، فأصبح ذكر أحدهما يستدعي ذكر الآخر، ورؤية أحدهما تستشرف بها العين رؤية الأخر، فلم يبعدا عن مكان فيه عزة المسلمين، ولم يختلفا عن مشهد فيه نصرة للدين، ولم تفقدهما غزوة من غزوات النبي ﷺ.

رآهم المولى عز وجل في بدر حيث يحب أن يراهما، كما رآهما في أحد مع جند الله وقد أراد المولى عز وجل أن يرفع فيها أقواماً فيتخذهم شهداء.

وفي يوم الفتح الأكبر كانا مع الذين طهر الله عز وجل بهم مكة من إثم الشرك ورجس المشركين.

ثم بعث النبي ﷺ خالدا ومعه قبائل من العرب وسليم بن منصور ومدلج بن مرة، فوطئوا بني جذيمة، فلما رآه القوم رفعوا السلاح في وجهه، فقال لهم خالد مهدداً :"ضعوا السلاح فإن القوم قد أسلموا"، فقال رجل من جذيمة اسمه جحدم وقال :"ويلكم يا بني جذيمة، إنه خالد، والله ما بعد وضع السلاح إلا الأسار، وما بعد الأسار إلا ضرب الرقاب والأعناق، والله لا أضع سلاحي أبداً فأخذه رجل من قومه، فقالوا : يا جحدم، أتريد أن تسفك دماءنا إن الناس قد أسلموا ووضعت الحرب وأمن الناس، فلم يزالوا به حتى نزعوا سلاحه ووضع القوم سلاحهم.

ولما وضعوا السلاح أمر بهم خالد فكتفوا ثم عرضهم على السيف فقتل منهم من قتل، ولكن رجلاً من القوم انفلت منهم فأتي رسول الله ﷺ فأخبره بما جرى، فسأله: هل أنكر عليه أحد؟ قال: نعم، قد أنكر عليه رجل ربعة أبيض فنهره خالد فسكت عنه، وأنكر عليه رجل آخر طويل مضطرب، فاشتدت مراجعتهما، فقال عمر بن الخطاب: أما الأول يا رسول الله، فابني عبد الله، وأما الأخر فسالم مولى أبي حذيفة.

ثم دعا النبي ﷺ عليا فقال: اخرج إلى هؤلاء القوم فانظر في أمرهم، واجعل أمر الجاهلية تحت قدميك.

فخرج عليّ حتى جاءهم ومعه مال فدفع ديات القتلى، وما أصيب لهم من الأموال حتى إنه ليدي ميلغة الكلب، حتى إذا لم يبق شئ من دم ومال إلا ودّاه، وبقيت معه بقية من المال، فقال هلم حين فرغ منهم: هل بقى لكم دم أو مال لم يود لكم؟ قالوا : لا، قال: فإني أعطيكم هذه البقية من المال احتياطاً لرسول الله ﷺ مما لا يعلم ولا تعلمون، ثم رجع فقال له النبي ﷺ : أحسنت، وأصبت، ثم استقبل القبلة قائماً شاهراً يديه حتى إنه ليرى ما تحت منكبية يقول : اللهم إني أبرأ إليك مما صنع خالد بن الوليد، ثلاث مرات.

وفي رواية للإمام أحمد عن ابن عمر أن خالداً حين دعا بني جذيمة إلى الإسلام فلم يحسنوا أن يقولوا أسلمنا، فجعلوا يقولون: صبأنا صبأنا، فبدا من ظاهرهم أنهم مصرون على الكفر، فأمر خالد أن يؤخذوا أسرا وقتلا، ودفع إلى كل واحد من المسلمين أسيراً حتى إذا أصبح يوماً أمر خالد أن يقتل كل رجل أسيره، يقول ابن عمر، فقلت: والله لا أقتل أسيري، ولا يقتل أحد من أصحابي أسيره. وقال مثل ذلك سالم، ولكنه لم يكترث لحدة خالد بل قابل حدة القائد بحدة المسلم حين يرى أن الحق معه ليبلغ حجته ويبرئ ذمته فكان شديد المراجعة، ولكنه لم يخرج على القائد ويفارق الكتيبة أو يؤلب الناس، وكان خالد محقاً فيما ظنه رفضاً وإباء للإسلام، ولكن فقه سالم وابن عمر وحسن تبصرهما، رأيا

أنه تجاوز لأن القوم أعلنوا خضوعهم وانقيادهم حتى مع جهلهم بالإسلام، وقد أثنى النبي ﷺ على من أنكر على خالد، وأعلن براءته من فعله أمام الله عز وجل، ولكنه لم يعزله، ربما لأنه عذره، وربما لأن مثل هذا الخطأ في الحروب وارد، وربما لأن الخير الذي فيه، وحسن بلائه في الجهاد أكبر وأعظم من مثل هذه الهنات، التي وإن كانت تحسب عليه، لكنها ضئيلة بالقياس لما يحسب له من كونه سيف الله المسلول.

ونحن نعتذر لخالد بما بلغنا من روايات تبين أن بني جذيمة لم يعلنوا إسلامهم وهم مقبلون على الدين أو موقنون به، ونكتفي بشاهد واحد نثبته هنا لطرافته، رواه الزهري عن ابن أبي حدرد الأسلمي قال: كنت يومئذ في خيل خالد بن الوليد، فقال فتى من بني جذيمة وهو في سني، وقد جمعت يداه إلى عنقه، ونسوة مجتمعات غير بعيد منه، قال: يا فتى، قلت: ما تشاء؟ قال: هل أنت آخذ بقيودي هذه فقائدي إلى هؤلاء النسوة، حتى أقضي إليهن حاجة ثم تردني فتصنع بي ما بدا لكم؟ قلت: والله إنه ليسير ما طلبت، فأخذت بقيوده فقدته حتى وقفته عليهن، فقال: اسلمي حبيش على نفذ العيش.

أريتك إذا طالبتكم فوجدتكم ... بحلية أو ألفيتكم بالخوانق
ألم يك أهلاً أن ينوّل عاشق ... تكلف إدلاج السرى والودائق
فلا ذنب لي قد قلت إذ أهلنا معا ... أثيبي بود قبل أحدى الصفائق
أثيبي بود قبل أن يشخط النوى ... وينأى الأمير بالحبيب المفارق
فإني لا ضيعف لسر أمانة ... ولا راق عيني عنك بعدك رائق
سوى أن ما نال العشيرة شاغل ... عن الود إلا أن يكون التوامق

قالت: وأنت فحييت عشراً وتسعاً وثمانية تترى.

قال: ثم انصرفت به فضربت عنقه. وذكر أشياخ ممن حضرها قالوا: فقامت إليه حين ضربت عنقه فأكبت عليه، فما زالت تقبله حتى ماتت عنده.

ولكن الجهر بالإسلام وحد كاف لصمة الدماء ولذلك أنكر عليه سالم، وأثقل في لومه لكنه لم يخرج عن طاعته، وعند النبي ﷺ أنكر على خالد ما فعل، وبرئ إلى الله من فعله، ورضي عن معارضة سالم له، وعدم خروجه عليه.

أما في يوم اليمامة حين واجه خالد بالمسلمين رجال مسيلمة الكذاب فقد كان أبو حذيفة يحمل راية المهاجرين حتى إذا اشتد الوطيس صاح يقول: يا أهل القرآن زينوا القرآن بالفعال، فقال زيد بن الخطاب والله لا أتكلم اليوم حتى نهزمهم أو ألقى الله فأكلمه بحجتي، عضوا على أضراسكم أيها الناس، واضربوا في عدوكم، وامضوا قدماً، واستشهد زيد وأبو حذيفة وعبد الله بن حفص الذي حمل الراية بعده، فقال خالد: أعطوا الراية سالماً

حامل القرآن، فلما أعطى الراية قال: ما أعلم لأي شيئ أعطيتمونيها، قلتم صاحب قرآن وسيثبت كما ثبت صاحبه قبله حتى مات، قالوا: أجل، فانظر كيف تكون؟ فإنا نخشى أن نؤتى من قبلك، فقال: بئس حامل القرآن أنا لو أتيتم من قِبلي.

فلما اشتدت حملة المرتدين وانكشف المسلمون صاح سالم: ما هكذا كنا نفعل مع رسول الله ﷺ، فحفر لنفسه حفرة ثم أشرع سيفه يغمده في الصدور والنحور، وكانت رايته هدفاً تترى إليها موجات المرتدين موجة بعد موجة بهدف إسقاطها حتى أصيبت يمناه التي تحمل الراية بسيف بترها فالتقطها بيده اليسرى وهو يردد: ﴿ وَكَأَيِّنْ مِنْ نَبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ ﴾ (آل عمران ١٤٦).

رأي المسلمون حرص سالم على أن تظل راية المسلمين عالية وأحسوا بالخطر فاندفعوا بائعين أنفسهم لله، ويثور الغبار وتلتحم الأجساد، ويخر الشهداء من المسلمين والقتلى من الكافرين ويسقط مسيلمة الكذاب وبه كان المرتدون يشعرون بالقوة، وبموته ملأ الخوف قلوبهم ودارت الدائرة عليهم، ولكن سهما غادرا يصيب مقتلاً من سالم فيهن الجسد ويهرع إليه المسلمون وهو في آخر أنفاسه، فلا تشغله آلام ذلك الجسد الذي باعه لله منذ خالط الإيمان قلبه، يسألهم لمن الدائرة؟ يقولون: إن الله أنجز وعده وأعز جنده فيبتهج، ثم يسأل عن خليله أبي حذيفة فيبشرونه بأنه قد نال مثله الشهادة، فيقول سالم: أضجعوني إلى جواره، يقولون له فإنك إلى جواره، فتختال ابتسامة الرضا بحسن الخاتمة على وجهه وهو يسلم آخر أنفاس الدنيا ويستقبل أول أنسام الجنة. يقول شهود اليمامة، فوجد رأس سالم عند رجلي أبي حذيفة أو رأس أبي حذيفة عند رجلي سالم.

في خلافة الفاروق ﷺ باع ميراث سالم فبلغ مائتي درهم، فأرسلها إلى المسلمة الصالحة الجليلة التي أعتقته فردته إليه قائلة: لقد أعتقته لله، لا أبتغي من وراء عتقه شيئا، فكانت بذلك تعطي درساً في إخلاص العمل لله، وعدم إشراك المنافع الدنيوية فيه، فضمه عمر إلى بيت المال.

يذكر ابن عبد البر في الاستيعاب أن عمر ﷺ عندما طعن قال للناس من حوله: لو كان سالم مولى أبي حذيفة حياً لوليته الخلافة، ومن قبل طالما أثنى عليه.

لم يكن لسالم – إذ قال عمر ذلك – حياة تمكنه من أي يتولى أمر الخلافة ولكنه حيٌّ حياة هي أبقى وأخلد وأطيب، قال عنها رب العزة: ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ۞ فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ (آل عمران ١٦٩-١٧٠).

وهو حيٌّ بما ترك من ذكرى طيبة تملأ القلوب غبطة، وتهب للناس مثلاً أعلى

تستشرف إليه النفوس الكبار، التي تحار في مرادها الأجسام.

عن عبد الله بن عمر ﷺ تعالى عنه قال :سمعت رسول الله ﷺ يقول : " استقرئوا القرآن من أربعة، فذكر ابن مسعود وسالما مولى أبي حذيفة، وأبي بن كعب، ومعاذ بن جبل ".

وعن ابن عمر قال : لما قد المهاجرون الأولون العصبة – عند قباء – قبل مقدم النبي ﷺ كان يؤمهم سالم – مولى أبي حذيفة، كان أكثرهم قرآناً.

وقال عبد الله بن الأرقم: حضرت عمر ﷺ عند وفاته مع ابن عباس، والمسور بن مخرمة فقال عمر : سمعت رسول الله ﷺ يقول : إن سالما شديد الحب لله عز وجل، لو كان لا يخاف الله عز وجل ما عصاه.

قال عبد الرحمن بن غنم فلقيت بن عباس فذكرت ذلك له فقال، صدق عبد الله بن الأرقم، انطلق بنا إلى المسور بن مخرمة حتى يحدثك به، فجئنا المسور، فقلت ان ابن عبد الله ابن الأرقم حدثني بهذا الحديث، قال حسبك، لا تسل عنه بعد ابن الأرقم.

وحدث شهر بن حوشب قال : قال عمر بن الخطاب ﷺ لو استخلفت سالما مولى أبي حذيفة، فسألني ربي ما حملك على ذلك لقلت: ربّ سمعت نبيك ﷺ وهو يقول: إنه يحب الله حقاً من قلبه.

وروى سالم عن النبي ﷺ أنه قال: ليجاءن بأقوام يوم القيامة معهم الحسنات مثل جبل تهامة، حتى إذا جئ بهم جعل الله أعمالهم هباء ثم قذفهم في النار.

فقال سالم: يا رسول الله بأبي أنت وأمي جلِّ لنا هؤلاء القوم حتى نعرفهم، فو الذي بعثك بالحق إني أتخوف أن أكون منهم. فقال: يا سالم : أما إنهم كانوا يصومون ويصلون، ولكنهم إذا عرض لهم شئ من الحرام وثبوا عليه، فأدحض الله تعالى أعمالهم.



عوف بن عفراء

أبوه الحارث بن رفاعة من بني مالك بن النجار.

وأمه عفراء.

وأخواه معاذ ومعوذ

خمسة أسماء، أنور من النور وأضوء من الضياء.

كل اسم منهما هو سماء.

حظهم من الدنيا - باختيارهم - هو الأسماء

وحظهم في الآخرة - برحمة ربهم ووعده - روح وريحان، ومناجاة رب غير غضبان وأما عوف.. وما أدراك ما عوف.

لقي العدو حاسرا فأضحك الرحمن.

وغمس يده في دمه فأزعج الشيطان.

حديث الستة

خرج اليثربيون إلى مكة للحج والتجارة، كما هي عادتهم في الأشهر الحرم، يخرجون حيناً في أشهر الحج شوال وذي القعدة وذي الحجة، وقد تطول الرحلة إلى المحرم، أو يخرجون في رجب شهر الله الحرام حيث تغمد السيوف وتعلق الأقواس، ويكف الناس عن بعضهم وتنعم الجزيرة بالأمن، ويظللها السلام.

وكان النبي ﷺ في مكة يترقب هذه المواسم، ويترصد القبائل يعرض عليها الإسلام أو يطلب منها الحماية : ألا رجل يمنعني حتى أبلغ رسالة ربي، وكانت قريش تصد الناس عنه، وعمه أبو لهب يفسد أراء الناس فيه، ويغير قلوبهم عليه، فمن القبائل من يهزأ به، ومنهم من يعده خيراً حتى يتركه، ومنهم من يستشعر صدقه ولكن قومه يأبون عليه ذلك، والنبي ﷺ يصدع بما يؤمر ويعرض عن المشركين، فواجبه أن يبلغ وليس عليه هداهم لأن الله هو الذي يهدي من يشاء، وقد أيأسه الله تعالى من أهل مكة قائلاً له: ﴿ إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ

الْمَوْتَى وَلا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ ﴿٨٠﴾ وَمَا أَنْتَ بِهَادِي الْعُمْيِ عَنْ ضَلالَتِهِمْ إِنْ تُسْمِعُ إِلا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ مُسْلِمُونَ ﴾ (النمل ٨٠-٨١).

وإذا كان المكيون قد صموا أذانهم عن الحق، وعموا عن الرشد والهداية، فقد أرادوا أن يطفئوا نور الله، ويحجزوا بينه وبين الناس حتى تظل لهم سيادتهم على العرب دينيا وتجارياً واجتماعياً، فلم يفتروا عن إيذاء النبي ﷺ ومن تبعه وتحذير الأخرين منه، أو منهم إن هم اتبعوه وسلكوا سبيل الهداية.

حتى كان رجب الذي خرج فيه عوف بن عفراء مع أخيه معاذ إلى مكة للنسك والتجارة وهناك في منى عند العقبة كان يوم، وكان في هذا اليوم لقاء.

كان يوماً حافلاً باتصالات النبي ﷺ، ثم كان اللقاء بينه وبين الستة اليثربيين.

الذين كان من بينهم عوف.

عن اليوم واللقاء أخرج أبو نعيم ما رواه ابن عباس عن على بن أبي طالب قال: خرج النبي ﷺ يعرض نفسه على القبائل وأنا معه وأبو بكر إلى منى حتى دفعنا إلى مجلس من مجالس العرب، فتقدم أبو بكر ﷺ فسلم - وكان أبو بكر مقدماً في كل خير - وكان رجلاً نسابا.

فقال: ممن القوم ؟

قالوا: من ربيعة.

قال: وأي ربيعة أنتم ؟ أمن هامها أم من لهازمها ؟

قالوا: بل من هامها العظمى.

قال: فمن أي هامتها العظمى ؟

قالوا: ذهل الأكبر.

قال: أمنكم عوف الذي كان يقال: لا حر بوادي عوف ؟

قالوا: لا.

قال: فمنكم بسطاس بن قيس أبو اللواء ومنتهى الأحياء ؟

قالوا: لا.

قال: فمنكم الحوفزان بن شريك، قاتل الملوك وسالبها أنفسها ؟

قالوا: لا.

قال: فمنكم جساس بن مرة بن ذهل، حامي الذمار ومانع الجار ؟

قالوا : لا.

قال : فمنكم المذدلف صاحب العمامة الفردة.

قالوا : لا.

قال : فأنتم أخوال الملوك من كندة ؟

قالوا : لا.

قال : فأنتم أصهار الملوك من لخم ؟

قالوا : لا.

قال أبو بكر : فلستم من ذهل الأكبر، بل أنتم ذهل الأصغر.

قال عليّ : فوثب إليه غلام يدعى دغفل بن حنظلة الذهلي، حين بقل وجهه فأخذ بزمام ناقة أبي بكر وقال

إن على سائلنا أن نسأله — والعبء لا نعرفه أو نحمله

يا هذا إنك سألتنا فأخبرنا و لم نكتمك شيئا، ونحن نريد أن نسألك.

فمن أنت ؟

قال أبو بكر : رجل من قريش.

فقال الغلام: بخ، بخ، أهل السؤدد والرئاسة، قادمة العرب وهاديها، فمن أي قريش ؟

قال : رجل من بني تميم بن مرة.

قال الغلام : أمكنت والله الرامي من سواء الثغرة، أفمنكم قصي بن كلاب الذي قتل بمكة المتغلبين عليها، وأجلي بقيتهم، وجمع قومه من كل أوب حتى اوطنهم مكة ثم استولى على الدار وأنزل قريشاً منازلها فسمته العرب مجمعاً، وفيه يقول الشاعر :

أليس أبوكم كان يدعى مجمعًا — به جمع الله القبائل من فهر

قال أبو بكر : لا

قال : فمنكم عبد المناف الذي أنتهت إليه الوصايا وأبو الغطاريف السادة ؟

قال : لا.

قال الغلام : فمنكم عمرو بن عبد مناف هاشم الذي هشم الثريد لقومه ولأهل مكة، ففيه يقول الشاعر :

عمرو العلا هشم الثريد لقومه — ورجال مكة مسنتون عجاف

سنوا إليه الرحلتين كليهما	عند الشتاء ورحلة الأصياف
كانت قريش بيضة فتفلقت	فالمخ خالصة لعبد مناف
الرائشين وليس يعرف رائش	والقائلين هلم للأضياف
والضاربين الكبش يضرب بيضه	والمانعين البيض بالأسياف
لله درك لو نزلت بدارهم	منعوك من أزل ومن إقراف

فقال أبو بكر : لا

قال الغلام : فمنكم عبد المطلب شيبة الحمد، وصاحب عير مكة، ومطعم طير السماء والوحوش والسباع في الفلا، كأن وجهه قمر يتلألأ في الليلة الظلماء ؟

فقال أبو بكر : لا

قال : أمن أهل الإفاضة أنت ؟

قال: لا

قال : أمن أهل الحجابة أنت ؟

فقال أبو بكر : لا.

قال : أفمن اهل الندوة أنت ؟

قال : لا.

قال الغلام : أفمن أهل السقاية أنت ؟

قال : لا.

قال : أفمن أهل الرفادة أنت ؟

قال : لا.

قال الغلام : أفمن الفيضين أنت ؟

فقال أبو بكر : لا.

ثم جذب أبو بكر ﷺ زمام ناقته من يده فقال له الغلام صادف در السيل درٌّ يدفعه يهيضه حيناً وحيناً يرفعه.

ثم قال : أما والله يا أخا قريش، لو ثبت لخبرناك أنك من زمعات قريش، ولست من الذوائب.

قال عليّ : فاقبل إلينا رسول ﷺ يبتسم، ثم قلت لأبي بكر : لقد وقعت من الأعرابي على باقعة.

فقال أبو بكر : أجل : إنه ليس من طامة إلا ولها طامة، والبلاء موكل بالقول.

قال عليّ : ثم انتهينا إلى مجلس عليه السكينة والوقار، فإذا مشـــايخ لهـــم أقـــدار وهيئات، فتقدم أبو بكر، فسلم – وكان مقدماً في كل خير – ثم قال لهم : ممن القوم ؟

قالوا : من بين شيبان بن ثعلبة.

فالتفت أبو بكر إلى رسول الله ﷺ فقال : بأبي أنت وأمي ليس بعد هؤلاء من عـــز في قومهم – وفي رواية ليس وراء هؤلاء عذر في قومهم – وهؤلاء غرر في قومهم، وهـــؤلاء غدر الناس.

وكان في القوم مفروق بن عمرو، وهانئ بن قبيصة، والمثنى بن حارثة، والنعمان ابن شريك، وكان أقرب القوم إلى أبي بكر مفروق بن عمر، وقد غلب عليهم بياناً ولســـاناً، وكانت له غديرتان تسقطان على صدره، فكان أدنى القوم مجلسا من أبي بكر، فقال له أبو بكر : كيف العدد فيكم ؟

قال مفروق : إنا لنـــزيد على ألف، ولن تغلب ألف من قلة.

قال أبو بكر : فكيف المنعة فيكم ؟

قال : علينا الجهد ولكل قوم جد.

قال أبو بكر : فكيف الحرب بينكم وبين عدوكم ؟

قال : إنا أشد ما نكون لقاء حين نغضب، وإنا لنؤثر الجياد على الأولاد، والسلاح على اللقاح، والنصر من عند الله يديلنا مرة، ويديل علينا مرة.

ثم قال مفروق : لعلك أخو قريش.

فقال أبو بكر : إن كان بلغكم أنه رسول الله، فها هو ذا.

قال مفروق : بلغنا أنه يذكر ذلك.

ثم التفت مفروق إلى رسول الله ﷺ فجلس، وقال أبو بكر يظله بثوبه.

فقال رسول ﷺ : أدعوكم إلى شهادة أن لا إله إلا الله، وحده لا شريك له، وأني رسول الله، وأن تؤووني، وتنصروني حتى أؤدي عن الله الذي أمرني به، فإن قريشـــاً قـــد تظاهرت على أمر الله وكذبت رسوله، واستغنت بالباطل عن الحق، والله هو الغني الحميد.

قال مفروق : وإلام تدعو أيضاً يا اخا قريش ؟

فتلا رسول الله ﷺ: ﴿ قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُـــمْ أَلا تُشْرِكُـــوا بِـــهِ شَيْئًـــا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلا تَقْتُلُوا أَوْلادَكُمْ مِنْ إِمْلاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَـــا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلا بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُـــمْ تَعْقِلُـــونَ

﴿ وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ (الأنعام ١٥١-١٥٢).

فقال مفروق : وإلام تدعو أيضاً يا أخا قريش ؟ فو الله ما هذا من كلام أهل الأرض، ولو كان من كلامهم لعرفناه.

فتلا رسول الله ﷺ: ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ (النحل ٩٠).

فقال مفروق : دعوت والله يا أخا قريش إلى مكارم الأخلاق، ومحاسن الأعمال، ولقد أفك قوم كذبوك وظاهروا عليك، وكأنه أحب أن يشركه في الكلام هانئ بن قبيصة.

فقال : وهذا هانئ بن قبيصة شيخنا، وصاحب ديننا.

فقال هانئ : قد سمعت مقالتك يا أخا قريش، وصدقت قولك، وإني أرى أن تركنا ديننا، وإتباعنا إياك على دينك لمجلس جلسته إلينا ليس له أول ولا آخر، لم نتفكر في أمرك، وننظر في عاقبة ما تدعو إليه زلة في الرأي، وطيشة في العقل، وقلة نظر في العاقبة. وإنما تكون الزلة مع العجلة، وأن من ورائنا قومنا نكره أن نعقد عليهم عقداً، ولكن ترجع ونرجع، وتنظر وننظر.

وكأنه أحب أن يشركه في الكلام المثنى بن حارثة، فقال: وهذا المثنى بن حارثة شيخنا وصاحب حربنا.

فقال المثنى: قد سمعت مقالتك، واستحسنت قولك يا أخا قريش، وأعجبني ما تكلمت به، والجواب هو جواب هانئ، وتركنا ديننا، وأتباعنا إياك لمجلس جلسته إلينا وإنا إنما نزلنا بين صريّين، أحدهما من اليمامة والأخر من السماوة.

فقال رسول الله ﷺ : وما هذان الصريان ؟

قال المثنى : أما أحدهما فطفوف البر وأرض العرب، وأما الأخر ففارس وأنهار كسرى وإنما نزلنا على عهد أخذه علينا كسرى أن لا نحدث حدثاً، ولا نؤوي محدثاً، ولعل الأمر الذي تدعونا إليه مما تكرهه الملوك، فأما ما يلي بلاد العرب فذنب صاحبه مغفور، وعذره مقبول، وأما ما كان يلي بلاد فارس، فذنب صاحبه غير مغفور، وعذره غير مقبول، فإن أردت أن ننصرك ونمنعك مما يلي العرب فعلنا.

فقال رسول ﷺ : ما أسأتم الرد إذ أفصحتم بالصدق، إنه لا يقوم بدين الله إلا من حاطه من جميع جوانبه.

ثم قال رسول الله ﷺ : أرأيتم أن لم تلبثوا يسيرا حتى يمنحكم الله بلادهم وأموالهم، ويفرشكم بناتهم، أتسبحون الله وتقدسونه؟

فقال النعمان بن شريك : اللهم إن ذلك لك يا أخا قريش.

فتلا رسول الله ﷺ: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ۞ وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا ﴾ (الأحزاب ٤٥-٤٦).

ثم نهض رسول الله ﷺ قابضاً على يدي أبي بكر.

قال عليّ : ثم دفعنا إلى مجلس الأوس والخزرج فما نهضنا حتى بايعوا النبي ﷺ، قال عليّ : وكانوا صدقاء صبراء، فسر رسول الله ﷺ من معرفة أبي بكر بأنسابهم.

قال : فلم يلبث إلا زمنا يسيرا حتى خرج النبي ﷺ إلى أصحابه فقال لهم : أحمدوا الله كثيراً، فقد ظفرت اليوم أبناء ربيعة بأبناء فارس، قتلوا ملوكهم، واستباحوا عسكرهم، وكان شعار ربيعة : محمد.. فنصروا، وبي نصروا.

قال عليّ : وكانت الوقعة بقراقر إلى جانب ذي قار.

وفيها يقول الأعشى :

فدى لبني ذهل بن شيبان ناقتي ... وراكبها عند اللقاء وقلت

هموا ضربوا بالحنوحنو قراقر ... مقدمة الهامرز حتى تولت

فلله عينا من رأي من فوارس ... كذهل بن شيبان بها حين ولت

فثاروا وثرنا والمودة بيننا ... وكانت علينا غمرة فتجلت

عبر العرض

فيما رويناه من عرضه ﷺ نفسه الكريمة على القبائل، وغيره الكثير تحفل به كتب السيرة ويشتمل كتابنا في مواضع منه على جملة منها – عبر يجب أن يتمثلها الداعي إلى الله. لأنها سبيله إلى التوفيق في دعوته، ﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا ﴾ (الأحزاب ٢١).

من هذه العبر، ضرورة الإيمان العميق بالدعوة، فالداعي المسلم يقر بأن الإسلام الذي هداه الله إليه، وأمره بالدعوة إليه حق خالص لأنه هدى الله وما عداه باطل وضلال ﴿ قُلْ إِنَّ الْهُدَى هُدَى اللَّهِ ﴾ (آل عمران ٧٣)، ﴿ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلا الضَّلالُ ﴾ (يونس ٣٢).

وقد صار هذا اليقين عند الداعي مُسلَّمة لا يتطرق إليها الريب، ولا تحتاج إلى إعادة نظر، وأن أي تحول عن هذا اليقين يعني أتباع الهوى وفيه ضياع الإيمان.

﴿ قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ قُلْ لا أَتَّبِعُ أَهْوَاءَكُمْ قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا

﴿ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُهْتَدِينَ ﴾ (الأنعام ٥٦).

وهذا الإيمان العميق بإسلام قائم – عند الداعي – على علم قطعي، وبينة راسخة لا شك فيها، واكذب المبطلين سببه أنهم لا يبصرون الحق لا لأنه يخفي، ولكـــن لعمـــي في بصائرهم، وموت لقلوبهم ﴿ قُلْ إِنِّي عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَكَذَّبْتُمْ بِهِ مَا عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ إِنِ الْحُكْمُ إِلا لِلَّهِ يَقُصُّ الْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ ﴾ (الأنعام ٥٧).

وهذه البينة التي أقام عليها الداعي إيمانه العميق ثابتة لا تتزعزع، مهما صادفه مـــن محن وشدائد، ومهما كانت حاله من ضعف وقلة، ومهما كان حال الكفـــار مـــن قـــوة ومنعة، حتى لو بقى وحده في الأرض، وأن الكفرة لن يصلوا إليه بكفرهم وضلالهم، ﴿ لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لا يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ بِشَيْءٍ إِلا كَبَاسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَالِغِهِ وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلا فِي ضَلالٍ ﴾ (الرعد ١٤).

وهذا الإيمان العميق ضروري للداعي في عصرنا الحاضر الذي انزوت فيـــه كلمـــة الإسلام وعلت كلمة الكفر، ونضب معين الإيمان في النفوس، وازدادت محن المســـلمين، وصار للكفر دولة تحميه، وتقذف بالباطل على الحق وكثير الشبهات والشكـــوك حـــول جدارة الإسلام بقيادة العالم والحياة وتتمثل هذه الدولة فيمن يتحكمون في السلطة الزمنية لا في المجتمعات التي تدين بالكفر، لكن كذلك في المجتمعات التي تدين بالإسلام، فتجمـــع على المسلمين هم أعداء الإسلام وهم أدعياء الإسلام ممن يملكون الجبروت والسطوة.

ويزيد من هذه المحنة طائفة من أدعياء العلم رضوا بأن يكونوا بطانة السوء، بـــاعوا دينهم بدنياهم، وتستروا وارء كلمة الإسلام ليروجوا للضلال، ففسدوا وأفسدوا وضلـــوا وأضلوا.

وعلى الداعي الذي تمكن الإيمان من قلبه أن لا يندهش لهذه المحن ولا يجزع لها، بل يجعلها حافزاً له، لبذل الجهد والعرق والمال والمهجة في سبيل إعلاء كلمة الله، وتشخيص أمراض المسلمين والبحث عن العلاج لكي يستعيدوا دولتهم، وإنها بإذن الله لقادمه.

ومن هذه العبر أن لا يتعجل الداعية نصر الله بعد أن وثق في وعد الله، لأن التعجل يفسد عليه حسن التبصر، وقد كان النبي ﷺ في محن متتالية من قومه وكان معرضاً للقتل، وكان يعرض نفسه على القبائل ليجيروه من تدبير قريش، وقد أتيحت له الفرصـــة حـــين عرضت عليه ربيعة أن تجيره من العرب، لكنها لا تتعهد بأن تجيره من الفرس، فرفـــض – على ما فيه من شدة – وقال إن هذا الأمر لا ينهض به إلا من أحاط به من جوانبة.

ومن هذه العبر دوام الرجاء وعدم القنوط، وهذا الرجاء يحمله على الأخذ بأســـبابه لا يستصغر سبباً، فقد يتحقق هذا الرجاء على ما يبدو أنه أهون الأسباب ويكـــون هـــو

أمتنها وأقربها طريقاً لتحقيق أمل الداعي في إعلاء كلمة الله عز وجل، وقد كان النبي ﷺ يعرض نفسه على العدد الكثير من القبيلة ثم لا يجد أذاناً تصغى، ثم مرّ على النفر الستة الرواد عوف بن عفراء وأصحابه، وكانوا مشغولين بحلق رءوسهم بعد أداء نسكهم، فلم يستصغر عددهم، ولم يستقل بهم، أو يصرفه انشغالهم وإنما عرض نفسه الكريمة عليهم، فكانوا صدقاء صبراء كما وصفهم عليّ ﷺ، وحملوا مشعل الأمل وجذوة الإيمان في قلوبهم.

لقد نثر النبي ﷺ البذرة الحية في القلوب الخصبة، راجياً من الله الزارع أن يتعهدها ويحفظها من الافة، وقد استجاب الله تعالى لرجائه، فإذا البذرة زرع أخضر فأخرج الزرع شطأه فأزره فاستغلظ فاستوى على سوقه يعجب الزراع ليغيظ بهم الكفار.

رجل الإسلام

عاد عوف مع الستة إلى المدينة مبشراً بالإسلام، وشهد العقبتين،ولزم مصعب بن عمير، فلا يكفي أن الله شرح صدره إلى الإسلام، وإنما هو في حاجة إلى من يتعهده بالرعاية ويكفل له المناعة ضد الداء القديم، ويبصره بمعالم الدين ويثبته عليه.

لقد طلب عوف والمسلمون معه من أهل المدينة أن يرسل إليهم النبي ﷺ عالماً لبيباً ليس فقط ليدعو إلى الإسلام – وقد كانوا يفعلون ذلك بين أهليهم وأقاربهم – وإنما لأنهمحديثو عهد بالدين ولا ينبغي أن يتركوا وشأنهم، إذ قد تبقى فيهم بقايا كثيرة أو قليلة من هذا المرض القديم لا ينتبهون لوجوده فيهم فيعرضهم للانتكاس أو السير على غير هدى وهم يحسبون أنهم مهتدون.

لزم عوف بن عفراء مصعب كما لزم النبي ﷺ بعد هجرته إلى المدينة حتى يربي نفسه على معاني الإسلام ويصوغ سلوكه وفق معانيه، فصفت نفسه وامتلأت بحقائق الإسلام وأصبح من الطليعة الأولى والكتيبة المظفرة يتحمل مالا يطيقه غير جيله من البلاء في سبيل الله ونصرة دينة.

لقد وجد عوف نفسه منجذبة إلى غاية عليا ينقضي عمره ولا ينتهي من التحليق إلى أفاقها الرحيبة، هذه الغاية هي الله تعالى، والعمل على إرضائه، والتلذذ بذكره، والتنعم بعبادته، والتطلع إلى ما عنده.

وهي غاية ليس في طلبها تحاسد ولا تباغض، وإنما يفيض فيها الأنس والمحبة والغبطة والتنافس ﴿ لِمِثْلِ هَذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ ﴾ (الصافات ٦١)، ﴿ وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ ﴾ (المطففين ٢٦)، وهي لا تنال بالأماني والخيالات، وإنما بالسفر إلى الله عز وجل، والرحيل بالروح إلى رضاه، والتزود بالتقوى لهذا السفر الطويل.

اتصل عوف بكتاب الله تعالى تعلماً وتلاوة وتأملاً وفهماً، وفتح منافذ قلبه ليغمره ذلك الضياء العلوي، فيذكيه حرارة، ويغمره نوراً، ويغسله من كل أدرانه، ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ (الإسراء ٨٢).

تعلق قلب عوف بالله عز وجل فلا يفتر لسانه عن ذكره، ولا يخلو منه قلبه.

وأنس بمناجاة الله فلا يستوحش إلا إذا اغفل عنه، وحاشاه أن يكون من الغافلين.

ونعم بطاعته، وتلذذ بها ونشط لها، قال الجنيد " علامة المحب دوام النشاط في طاعة الله "، لا يندم عوف – وهو التاجر – على أي شيء يفوته من الدنيا، ولكنه يكون أشد ندماً إذا فاتت منه ساعة خلت من ذكر الله عز وجل.

أصبح عوف يؤثر ما يحبه الله على ما يحبه هو في ظاهره وباطنه، ولا يبالي بما يصيبه من جراء هذا الإيثار.

وأحب عوف لقاء الله فالمحب حريص على لقاء حبيبه، وإذا كان هذا اللقاء لا يأتي إلا بالموت فأهلاً به، ما دام هو طريق الوصول لمن يحب.

الخاسر ليضحك الرب

تحقق رجاء عوف رضي الله عنه وهو عظيم الرجاء، وواتته الفرصة ليحقق بالفعل ما كان كامناً في القلب وتنطوي عليه الجوانح.

يزعم عوف لنفسه أنه يحب الله عز وجل ويؤثر مرضاته.

يحدث عوف نفسه بأنه من عصبة المضاء والفناء عبر جهاد مستبصر وطاعة واعية، وكمال الإيمان بالجنة يدفعه إلى سباق الطاعة والصفاء القلبي، كما يدفعه إلى الجهاد ليكون ضمن الزمرة الأولى التي تدخل الجنة.

يرى عوف أنه طهر قلبه من الأخلاط والشوائب المردية التي تغر وتخدع وتسرق حقيقة الانتساب إلى زمرة القلب الواحد، وأن الحرمن راعي وداد لحظة، أو انتمى لمن أفاده لفظة كما يقول الشافعي، وهذه الدعوة علمته معنى الوداد، وأفادته كل الألفاظ.

يعدّ عوف نفسه من الذين يسارعون إلى الطاعة فيما يحبون ويكرهون، وفي المنشط والمكره، ويصدع بالحق فيما يحب ويبغض، ويتلقاه عزيمة لا رخصة فيها، وحزماً لا تردد فيه، وجدا لا هوادة فيه.

لقد تلقى عوف هذا الواجب راضياً، ومضى به قدماً، واحتمله صابراً، وهو حلو عنده وإن كان أمر، ونافع وإن به أضر.

لقد واتتك الفرصة يا عوف، وفيها اختبار لما زعمته لنفسك، وامتحان لما تظنك فيه

من وداد للدعوة وطاعة للداعية، وحب لرب الداعية رب العالمين.

هذا أذان الجهاد يا عوف يصدع في الآفاق، إذان لم يعلن من قبل، ولن يعلن من بعد بهذه الصورة.

إن أذان الجهاد في بدر متفرد بطبيعته، كما أن بدراً غزوة متميزة بأدائها.

فبعد بدر وجب على كل مسلم أن يخرج مع النبي ﷺ إذا خرج لغزوة، أما في بدر " فمن كان ظهره حاضراً وأراد أن يصحبنا فليصحبنا ".

وأنت يا عوف رجل تاجر، وقافلة يثرب على وشك القدوم مثل قافلة مكة، وقدوم القافلة موسم نصف سنوي للتجار، ولا تثريب عليك إذا انتظرت موسمك والمسلمون سينتفعون بتجارتك.

أتراك ستفكر في الأمر، وتعقد الموازنة، وتحسب الربح والخسارة.

وما له لا يفكر ويحسب، ويبحث عن الربح إن الربح مطلبه، ومطلب كل تاجر، وإذا لم يفكر في الربح ويسلك مسلكه فليس بتاجر.

لقد حسبها عوف وحسمها، حساب العقل والقلب والروح حين انضوى ثلاثتها تحت كنف الإيمان والحب لله ولرسوله ولدعوته وللمؤمنين إخوانه.

وحسمها عوف حين تنسّم عرف الجنة تحت ظلال السيوف، والتذّ مذاق التقوى حين تزود بها منذ التقى بالنور في منى وهو يحلق رأسه.

ثم أفلتت القافلة، وبقيت ذات الشوكة، وقد ودّ كثير من المؤمنين لو كانت غير ذات الشوكة لهم.

إنه جهاد ذو شوكة هذا المرة، وهذه المرة فقط، جهاد كتب حيث لم تتأهب النفوس لجهاد، لكن عوفا كان متأهباً، لقد حمل معه عدة الحرب من المدينة، وبعد أشيروا عليّ أيها الناس.. فقد قام عوف ولبس درعه، وأعلن تأهبه للقاء وعد الله.

أقيمت الصفوف في مواجهة الصفوف، ومشى القائد في صف المسلمين يحثهم على الجهاد ويحذرهم من الغفلة والقنوط، ويذكرهم بالله ويدعوهم إلى نصره، ويبشرهم بثوابه، حتى وقف أمام عوف، وضع يده الشريفة على درعه، واطمأن على يقظته وعلو روحه، وحسن استعداده، وكاد أن ينقل خطوه إلى المقاتل الذي يليه، لكن صوت عوف أوقفه وصرف نظره إليه.

قال عوف : يا رسول الله.

قال النبي ﷺ : نعم.

قال عوف : ماذا يضحك الربَّ من عبده ؟

قال : غمسه يده في دم العدو حاسرا.

اشتعل القتال، فإذا عوف يسرع فينـــزع درعه من على جسده النبيـــل، ويخـــترق الصفوف حتى يقبل على عبد الرحمن بن عوف فيقف بجواره هو وأخوه، ويخـــاف عبـــد الرحمن على نفسه فإن الذين عن يمينه وشماله شابان صغيران قد لا تكون عندهمـــا الخـــبرة القتالية فلا يستطيع أن يبذل كل طاقته في الجهاد لخوفه أن يؤتى من قبلهما، فـــإذا همـــا يسألانه عن أبي جهل ثم لما عرفاه قصدا إليه.

إن عوفاً يريد أن يضحك ربه، فلا بد أن يغمس يده في دم العدو، وها هو أصبـــح حاسراً فقد رمى عنه درعه، ومن أشد عداوة لله من أبي جهل، فليضحك ربه حتى يرضى فلن يغمس يده أول مرة إلا في دم أبي جهل،عدو الله وعدو رسوله، هذا الذي يجـــول في الصفوف فيضرب عن يمينه وشماله لا يريد أن يبقى أحدا من المسلمين، ويريد أن يطفـــئ نور الله، ويأبى الله إلا أن يتم نوره.

رأي عبد الرحمن بن عوف أنه في أشد مأمن بهذين الشابين.

وجاهد عوف نفسه الشابة التي كم حلمت من قبل أن تعب من أطـــايب الحيـــاة، فحملها على أن تشتاق إلى أطايب الجنان.

وجاهد الدنيا التي تزينت لشبابه، وأرته زينة تخفي عقمها وجدبها.

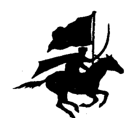
وجاهد الشيطان الذي قال للإنسان اكفر فلما كفر قال إني برئ منك.

وجاهد الخوف من الموت حين أحب لقاء الله، ومن أحب لقاء الله أحب الله لقاءه.

أبت نفس عوف الطموحة إلا أن تعمد إلى شيطان الإنس أبي جهل لتخوص معه معركتها.

وأبت نفس عوف أن يقتله أحد غير أبي جهل حتى يلقي ربه بحجته، فطعن أبا جهل حتى أنفذ سيفه فيه، وبقى أبو جهل حياً لينال شرف قتله أكثر من مسلم، وبقى في عوف رمق يستطيع أن يجاهد به حتى تلقى طعنة أخيرة من عكرمه سمع بعدها زجـــل الملائكـــة بالتسبيح، وشم عرف الجنة، وصافحت وجهه النسمات الكريمة، وتنامى إلى سمعه حفيف أوراق طوبى، تلك الشجرة في الجنة التي يسير الراكب في ظلها مائة عام ولا يقطعه.

﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ طُوبَى لَهُمْ وَحُسْنُ مَآبٍ ﴾ (الرعد ٢٩).



يعلي بن أمية

تميمي حنظلي، يدعىَ كثيرا بـــ يعلى بن منية، ومنية هي أمه، ويدعى بها تقديــــرا وإجلالا لها، فهي أخت السابق المهاجر، فاتح الأمصار ومنشئها عتبة بن غزوان، وعمـــة الزبير بن العوام حواري النبي ﷺ.

لا يختلف كتاب السير على شهوده حنين والطائف وتبوك، وما بعد ذلـــك مـــن سيرته، ولكنهم يختلفون اختلافاً بيناً فيما دون ذلك، فبينما ينكر ابن الأثير أن يكون يعلي قد أسلم قبل الفتح، فإن أبا أسحق بن منده يثبت له السبق في الإسلام والهجرة، ويثبته في أهل بدر.

ولابن منده شواهد من كتب الحديث تدل على أنه قديم إسلام وأن النبي ﷺ كان يبعثه على بعض سراياه، منها ما أخرجه الإمام أحمد عن خالد بن دريك عن يعلي بن أمية قال : كان النبي ﷺ يبعثني في سرايا، فبعثني ذات يوم في سرية، وكان رجل يركب ثقلي، فقلت له : ارحل فإن النبي ﷺ قد بعثني في سرية، فقال: ما أنا بخارج معك، قلت : ولم ؟ قال : حتى تجعل لي ثلاثة دنانير، قلت : الأن حيث ودعت رسول الله ﷺ، ما أنا براجـــع إليه، ارحل ولك ثلاثة دنانير، فما رجعت من غزاتي ذكرت ذلك للنبي ﷺ، فقال : ليس له من غزاته هذه، ومن دنياه ومن أخرته إلا ثلاثة دنانير.

يفهم من هذه الرواية أ، النبي ﷺ كان معتادا على أن يعث يعلي أميرا على بعـــض أصحابه سرية، وأن هذا الرجل الذي كان يصحبه في سراياه، لم يرد أن يخـــرج في هـــذه السرية احتساباً لله عز وجل، وإنما رأي أن يخرج مرتزقاً يأخذ أجرا في مقـــابل شـــهوده السرية، وكفى بها ثمناً بخساً في مقابل لغدوة في سبيل الله أو روحة خير من الدنيا وما فيها، وفي مقابل أن لا يجتمع في جوف مسلم غبار خروج في سبيل الله ودخان جهنم.

وفي رواية عند ابي داود والنسائي، أن النبي ﷺ تحدث إلى يعلي بن أمية قائلاً : إذا أتتك رسلي فأعطهم ثلاثين درعاً وثلاثين بعيرا، فقال له يعلي، أعارية مضمونة يا رســـول الله، أم عارية مؤداة، فقال النبي ﷺ : بل عارية مؤداة.

قال بن حزم : حديث حسن، ليس في شيئ مما يروي في العارية خبر يصح غيره.

وفي الحديث برهان ناصع على فقه يعلي لطول صحبته للنبي ﷺ، فقد ذكر الصنعاني في سبل السلام : العارية المضمونة هي التي تضمن بالقيمة إن تلفت، أم العارية المؤادة، فهي التي تعود عينها إلى المعير، وإن تلفت لا يضمن المستعير قيمتها إلا إذا كان تلفها لإهماله في حفظها.

ومعلوم أن أغلب سرايا النبي ﷺ وغزواته كانت قبل الفتح، أما بعد الفتح وما صاحبه من غزوات الطائف وهوازن وحنينا ثم تبوك، فقد دخل الناس في دين الله أفواجا، وكانت وفودهم تترى على المدينة تدين بالولاء لله ولرسوله، فأن يكون النبي ﷺ معتادا على أن يبعث يعلي في سراياه شاهدا على قدم إسلامه لأن هذه السرايا لا بد أن تكون قبل الفتح، مع الإشارة إلى أننا لا يشغلنا توثيق هذا الأمر، لأن الذي يعنينا هو أن نترجم لرجل من أهل بدر، وكان له بلاؤه ومواقفه الواضحة، وله قدره في المسلمين، وله أدوار أثرت في مسيرة الإسلام على ما سوف نعرضه بإيجاز يجلي هذه المواقف والأدوار، ويخرجها من الزوايا التي عزل فيها المؤرخون أسماء كان الوفاء والحق حافزين على أن توضع أما م البصائر والأبصار فربما ينقشع ببروزها ضباب غطى على رؤية وجه الحقيقة في أحداث الإسلام الكبيرة.

في خلافة الصديق ارتدت الجزيرة عن الإسلام غير مكة والمدينة، وتعددت أسباب الردة بين مدعين للنبوة، وبين مانعين للزكاة يزعمون أنهم كانوا يعطونها للنبي ﷺ ولن يعطوها لأبي بكر، وكان رأي الصحابة بين رافض للردة عن الدين عازم على استئصالها ولكنه يرى الصبر على مانعي الزكاة حتى ينتهي أمر المتنبئين، وبين من هو على رأي أبي بكر في أن ردّ أي ركن للدين هو ردة عنه، فاستوى الجميع في الصفة، ووجبت مقاتلتهم، ثم شرح الله صدور المسلمين لهذا الرأي وجيش الصديق الجيوش وعقد منها في يوم واحد أحد عشر لواءً، وليست هي كل الجيوش التي سيرها، وكتب مع كل قائد جيش كتاباً يقرؤه على من بعث لقتالهم يستتيبهم، ويحذرهم من عاقبة ضلالهم ويعذر الله إليهم قبل أن يأخذهم بسيوف المؤمنين، وقد استعمل أبا بكر يعلي ابن امية على بلاد حلوان، فأعادها إلى الإسلام، فولاه عاملاً عليها حتى مات الصديق ﷺ، وعرف عمر عنه سخاءه وجوده وخبر حنكته وخبرته، وقدر بلاءه في نصرة دين الله فولاه على بعض بلاد اليمن، فبقى بها مدة خلافة الفاروق، ثم بلغ عمر أن يعلي قد حمى لنفسه حمى، أي اقتطع لنفسه أرضاً ترعى فيها أنعامه، فغضب عمر غضباً شديداً، وأرسل إليه يأمره أن يأتيه إلى المدينة ما شياً على رجليه، فمشى خمسة أيام أو ستة حتى بلغ صعدة ن فبلغه موت عمر فركب حتى يكون ذلك أسرع في وصوله إلى المدينة في هذه الظروف العسيرة.

وإن حسب عزل يعلي لعمر لحزمه والتماسه الورع في عماله والزهـد في الدنيـا، وحرصه على أن لا تكون الإمارة مغنما لمن يستعمله، فإنه لا يُحسب على يعلي لأن عمر ﷺ عزل من هم أظهر منه بين الناس في العمل للإسلام وحسن البلاء فيه، ألم يعزل سعد ابن أبي وقاص وهو المبشر بالجنة ؟ بل وعزل خالد بن الوليد وأرسل إليه من اقتسم معـه ماله لبيت المال حتى أخذ إحدى فردتي نعله، واتصلت أسباب يعلي بعثمان ﷺ، فقربـه وكان يرجع إليه في أموره، وولاه صنعاء، وكان أثيرا عنده في درجة زيد ابن ثابت جامع القرآن ﷺ حتى قال الشاعر ينوه بهذه الصلة وهو يتحدث عن عثمان

إذا ما دعا يعلى وزيد بن ثابت لأمر ينوب الناس أو لخطوب

ثم استعمله عثمان على الجند، وهناك بلغه أمر فتنة الناس على عثمان فأقبل لينصره فسقط عن بعيره في الطريق فانكسرت فخذه فلم يقدم إلى مكة إلا بعد انقضـاء الحـج ومقتل عثمان.

دخل يعلي إلى مكة فوجدها كالمرجل تغلي مما أصاب الناس من الفزع، وما دخلهم من الحزن لمقتل عثمان، ووجد فيها طائفة تحفز الناس على المطالبة بثأره، وبعضهم كـان يؤلب عليه في حياته، ووجد أمهات المؤمنين يبكين عثمان، وقد أقمن في مكة بعد الحـج حتى بلغهن نبأ موته، ولم يدرك يعلي كما لم يدرك كثير من المسلمين مكائد أصحاب عبد الله بن سبأ اليهودي الذي تولى كبر تأليب الناس على عثمان، وقـد ورج أصحابـه في الأمصار كلها، وفي مكة على وجه الخصوص أنهم هم الذين ولوا عليا أمر المسلمين، وأنـه من حزبهم يرضى عن قتلهم عثمان، ولن يقتص منهم.

كبر على يعلي وهو صاحب النبي ﷺ أن يعطل أحد حدًا من حدود الله وهو ما لم يفعله النبي ﷺ ولا فعله أحد من خلفائه الثلاثة، وقيل له إن طلحة والزبير وعددا من رءوس الصحابة طلبوا من علي إقامة الحد على القتلة، فاعتذر إليهم بأن لهؤلاء مددا وأعوانا، وأنه لا يمكنه ذلك في يومه هذا، فاستأذن طلحة والزبير في الاعتمار، فأذن لهما فخرجا إلى مكة ومعهما خلق كثير.

لكن الذي أكد ليعلي أن المطالبة بإقامة الحدود، ومقاتلة علي من أجلها هو الاختيـار الراجح ما كان من مجيء أم المؤمنين عائشة إلى مكة، ومطالبتها بإقامة الحد على قتلة عثمـان، فدخلت المسجد حيث اجتمع عليها طلحة والزبـير وخلق كثير من سادات الصحابة وأمهات المؤمنين، فقامت عائشة في الناس تخطبهم وتحثهم على القيام بطلب دم عثمان، وذكرت ما قام به أولئك الخوارج من قتله في بلد حرام وفي شهر حرام، ولم يراعوا جوار رسول الله ﷺ، وقد سفكوا الدماء، وأخذوا الأموال، فاستجاب الناس لها، وطاوعوها على ما تراه من المصلحـة، وقالوا لها، حيثما سرت سرنا معك، فقال قائل : نذهب إلى الشام، فقال بعضهم إن معاوية قد كفاكم أمرها، وقال آخرون : نذهب إلى المدينة فنطلب من علي أن يسلم لنا قتلـة عثمـان

فيقتلوا، وقال أخرون بل نذهب إلى البصرة فنتقوى من هنالك بالخيل والرجال، ونبدأ بمن هناك من قتلة عثمان، وكان بقية أمهات المؤمنين قد وافقن عائشة على السير إلى المدينة، فما اتفق الناس على المسير إلى البصرة خالفن في ذلك وقلن : لا نسير إلى غير المدينة، وخرج يعلي إلى المسجد وهو كسير على سرير، فإن وفاءه لعثمان، وحرصه على ما رأه حقاً بعد أن سمع ما سمع يمنعانه من المكث في قبضة المرض، والناس يجهزون للطالبة بثأره، وعندما رأه الناس يدخل المسجد، استشرفوا إليه واجتمعوا عليه، وأخبروه بما انتهوا إليه من الرأي، فقال من خرج يطلب بدم عثمان فعليّ جهازه، لقد جئت من اليمن بأموال كثيرة لنصرة عثمان، وإن لم يدعني الله لنصرته وهو حي، فإني أنصره ميتاً، فجهز الناس بستمائة بعير وستمائة ألف دينار فحملت عليه في هودجها، وسار الناس صحبة عائشة في ألف فارس، وسار معها أمهات المؤمنين إلى ذات عرق ففارقنها هناك وبكين للوداع، وتباكي الناس وكان ذلك اليوم يسمى يوم النحيب، وارتحل مع الناس يعلي بكسوره وعجزه.

وعلم عليّ بخروج القوم إلى البصرة، فخرج إليهم رغم تحذيره ابنه الحسن وعبد الله بن سلام له، ولكنه قال لهم إنه راغب في الإصلاح لا في الحرب وكانت عائشة كذلك راغبة في الإصلاح، و لم تدرك قصد أمير المؤمنين في تأخيره قتل قتلة عثمان، فقد كانوا ألوفاً، وقد غرستهم السبئية في كل قطر، فإذا وضع سيفه فيمن قام بتنفيذ القتل، فإنهم سيضعون سيوفهم على رقاب كل المسلمين، وتعظم الفتنة أشد مما هي مستعرة، فكان يتربص حتى يحكم قبضته على البلاد ثم يقيم حكم الله، ومن أجدر منه للقيام به ؟

كان حسنو النية من الفريقين يسعون للم الشمل، وكان السبئيون بباطنيتهم وخديعتهم يثيرون الضغائن، ويشحذون الحمية حتى أفلت الزمام وأوقدت الحرب، واعتزل الفتنة جماعة من كبار الصحابة، واصطلى بنارها آخرون، وقتل في معركة الجمل طلحة والزبير، و لم تخمد المعركة إلا بعد أن عقر أصحاب علي جمل أم المؤمنين، ثم أسرعوا يحتملون هودجها خوفاً عليها من الدهماء والحمقى، ولقد حاول بعضهم أن ينتقص منها فزجره أمير المؤمنين وقال لهم إنها زوجة نبيكم في الدنيا والآخرة.

بعد أن فرغ الناس من أمر الجمل، وتربصوا يستعدون لمواجهة عسكر معاوية، فإن كثيرا منهم راجعوا قناعاقم، ومحصوا اجتهاداقم فرجعت عائشة إلى المدينة وقد اعتزلت الفتنة وأثنت على أمير المؤمنين ولحق طلاب الدنيا ومثيرو الفتنة من عسكرها بمعاوية، وكذلك لحق به من بقى على اجتهاده بأن عليا عطل حدا من حدود الله وأن مقاومته واجبة حتى يقيم الحدود، بينما لحق بعلي من أنا والحق عقله واهتدى إلى أنه كان يقاتل عليا وهو له ظالم، وأنه يدور مع الحق وأن الحق معه حيث دار، ومن هؤلاء يعلي الذي جهز جيش الجمل، فإنه فاء، و لم يكابر فانضم بكل ثقله إلى عليّ، واعتذر لله عن خطئه الذي هو مأجور عليه حيث لم يكن دافعه

عداوة لعليّ، ولا هوى في نفسه، ومن اجتهد وأخطأ فله أجر واحد، وقد نالــه إن شـــاء الله، ومن اجتهد وأصاب فله أجران، وقد حصل عليها إن شاء الله، وزاد عليهما أجــر الشـــهادة، حيث اتخذه الله شهيداً في معركة صفين وهو يقاتل على الحق تحت راية أمير المؤمنـــين علـــيّ، فرضي الله عنهما.







ثعلبة بن حاطب

من بني عمرو بن عوف.

أنصاري من الذين شهد الله عز وجل في كتابه أنه رضي عنهم ﴿ لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ... ﴾ (التوبة ١١٧).

وقوله تعالى: ﴿ وَالسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ (التوبة ١٠٠).

آخى النبي ﷺ بين ثعلبة بن حاطب الأنصاري، وبين معتِّب بن الحمراء حليف بني مخزوم، وكان قديماً في الإسلام وهاجر الهجرتين : هجرة الحبشة والهجرة إلى المدينة المنورة.

شهد ثعلبة بدراً، وكان شجعان المسلمين يومها كأنما يساقون إلى الموت وهم ينظرون قال تعالى : ﴿ كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ ۝ يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَمَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنْظُرُونَ ﴾ (الأنفال ٥-٦).

قال أبو أيوب الأنصاري : قال لنا رسول الله ﷺ ونحن بالمدينة : إني أخبرت عن عير أبي سفيان، أنها مقبلة، فهل لكم أن نخرج قبل هذه العير لعل الله أن يُغنمناها، فقلنا نعم، فخرج وخرجنا، فما سرنا يوماً أو يومين قال لنا : ما ترون في قتال القوم فإنهم قد أخبروا بخروجكم ؟ فقلنا : لا والله ما لنا طاقة بقتال العدو، ولكنا أردنا العير، ثم قال لنا : ما ترون في قتال القوم ؟ فقلنا مثل ذلك حتى تكلم المقداد بن عمرو فقال : إنا لا نقول لك كما قال قوم موسى لموسى : أذهب أنت وربك فقاتلا إنا هاهنا قاعدون، قال : فتمنينا معشر الأنصار أن لو قلنا كما قال المقداد أحب إلينا من أن يكون لنا مال عظيم.

وقال ابن عباس : أمر النبي ﷺ الناس أن يتهيئوا للقتال، وأمرهم بالشوكة يوم بدر فكره ذلك أهل الإيمان.

وسبب هذه الكراهة أنهم كانوا يريدون مجاهدةً يستعدون لها ويلبسون الحديد، ويحملون السلاح ومعهم الخيول والرماة، وكل ذلك لم يكن ميسوراً لهم في ذلك الوقت،

حيث فرضت المعركة وهم بعيد عن المدينة ولا وقت للتهيؤ. فلما أدركو أن هذا أمـــر الله كانوا أسرع إلى الإجابة وأحرص على الوفاء، فكان مدد الله بالملائكة، وكان نصـــــر الله الذي وعد به من ينصره.

روي رفاعة الزرقي البدري قال : جاء جبريل إلى النبي ﷺ فقال : ما تعدون أهـــل بدر فيكم، قال : من أفضل المسلمين، أو كلمة نحوها، قال جبريل : وكذلك من شــــهد بدراً من الملائكة.

نسوق هذا الكلام عن أهل بدر، وسوف نسوق بعده كلاماً قد يطول عن النفـــاق لأن ثعلبة بن حاطب رضي الله عنه الأنصاري البدري قد أجمع كتاب السير على أنه شهد بدرا – وهم يختلفون حول الكثير – في حين يختلف المفسرون حول طبيعـــة إيمانـــه، ولا نتوقف طويلاً عن من يشهدون له بالإيمان لأن الله عز وجل ورسوله ﷺ قد شهد لأهـــل بدر بالإيمان، وإنما وقفتنا ستكون مع روايات الذين يتهمونه بالنفاق، ويروون عنه في ذلك روايات هي جديرة بالمناقشة إن لم يكن بالرد وعدم القبول.

روايات ابن كثير

قال تعالى: ﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ عَاهَدَ اللَّهَ لَئِنْ آتَانَا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّـــالِحِينَ ۝ فَلَمَّا آتَاهُمْ مِنْ فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ ۝ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ۝ أَلَمْ يَعْلَمُـــوا أَنَّ اللَّـــهَ يَعْلَـــمُ سِـــرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ وَأَنَّ اللَّهَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ﴾ (التوبة ٧٥-٧٨).

قال ابن كثير : يقول الله تعالى : ومن المنافقين من أعطى الله عهده وميثاقه لئن أغناه من فضله ليصدقن من ماله، وليكونن من الصالحين، فما وفى بما قال، ولا صدق فيما ادعى فأعقبهم هذا الصنيع نفاقاً سكن قلوبهم إلى يوم يلقونه تعالى يوم القيامة عياذاً بالله من ذلك.

يقول ابن كثير : أن سبب نزول هذه الآية الكريمة أن ثعلبة بن حاطب قال للنـــبي ﷺ : أدع الله أن يرزقني مالاً، فقال النبي ﷺ، ويحك يا ثعلبة، قليل تؤدي شكره خير من كثير لا تطيقه، ثم قال ثعلبة مرة أخرى، فقال له : أما ترضى أن تكون مثل نبي الله، فـــوا الذي نفسي بيده لو شئت أن تسير الجبال معي ذهباً وفضة لسارت، قال : والذي بعثـــك بالحق لئن دعوت الله فرزقني مالاً لأعطين كل ذي حق حقه.

فقال النبي ﷺ : الله ارزق ثعلبة مالاً.

قال : فاتخذ غنما فنمت كما ينمي الدود، فضاقت عليه المدينـــة فتنحـــى عنـــها، فنـــزل وادياً من أوديتها حتى جعل يصلي الظهر والعصر في جماعة ويترك ما ســـواهما، ثم

نمت وكثرت فتنحى حتى ترك الصلوات إلا الجمعة، وهي تنمي كما تنمى الدود حتى ترك صلاة الجمعة، فطفق يتلقى الركبان يوم الجمعة ليسألهم عن الأخبار، فقال رسول الله ﷺ : ما فعل ثعلبة، فقالوا يا رسول الله، اتخذ غنما فضاقت عليه المدينة، فأخبروه بأمره، فقال : يا ويح ثعلبة، يا ويح ثعلبة، وأنزل الله جل ثناؤه ﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً ﴾ (التوبة ١٠٣)، ونزلت فرائض الصدقة، فبعث النبي ﷺ رجلين على الصدقة من المسلمين، رجلاً من جهينة، ورجلاً من سليم، وكتب لهما كيف يأخذان الصدقة من المسلمين، وقال لهما : مرّا بثعلبة وبفلان – رجل من بن سليم – فخذا صدقاقهما.

فخرج الرجلان حتى أتيا ثعلبة، وأقراه كتاب النبي ﷺ، فقال : ما هذه إلا جزية، ما هذه إلا أخت الجزية، ما أدري ما هذا ؟ انطلقا حتى تفرغا ثم عودا إليّ، فانطلقا، وسمع بهما السلمي، فنظر إلى خيار أسنان إبله فعزلها للصدقة، ثم استقبلهما بها، فلما رأوها قالوا : ما يجب عليك هذا، وما نريد أن نأخذ هذا منك، فقال : بلى فخذوها، فإن نفسي بذلك طيبة، وإنما هي صدقة، فأخذاها منه، ومرّا على الناس فأخذا منهم الصدقة، ثم رجعا إلى ثعلبة، فقال : أروني كتابكما، فقرأه فقال ما هذه إلا الجزية، ما هذه إلا أخت الجزية، انطلقا حتى أرى رأيي، فانطلقا حتى أتيا النبي ﷺ، فلما رآهما قال : يا ويح ثعلبة قبل أن يكلمهما، ودعا للسلمي بالبركة، فأخبراه بالذي صنع ثعلبة، والذي صنع السلمي، فأنزل الله تعالى: ﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ عَاهَدَ اللَّهَ لَئِنْ آتَانَا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ (التوبة ٧٥).

قال : وعند رسول الله ﷺ رجل من أقارب ثعلبة فسمع ذلك، فخرج حتى أتاه، فقال : ويحك يا ثعلبة، قد أنزل الله فيك كذا وكذا.

فخرج ثعلبة حتى أتى النبي ﷺ فسأله أن يقبل منه صدقته، فقال : الله منعني أن أقبل منك صدقتك.

فجعل ثعلبة يحثو على رأسه التراب، فقال له النبي ﷺ : هذا عملك، قد أمرتك فلم تطعني، فلما أبى رسول الله ﷺ أن يقبل صدقته رجع إلى منزله، فقبض رسول الله ﷺ و لم يقبل منه شيئا، ثم أتى أبا بكر ﷺ بعد أن استخلف فقال : يا أمير المؤمنين، أقبل صدقتي، فقد علمت منزلتي من رسول الله ﷺ، وموضعي من الأنصار فأقبل صدقتي، فقال أبو بكر: لم يقبلها منك رسول الله ﷺ، وأبى أن يقبلها، فقبض أبو بكر و لم يقبلها.

فلما ولي عمر ﷺ أتاه فقال: يا أمير المؤمنين، أقبل صدقتي، فقال : لم يقبلها منك رسول الله ﷺ ولا أبو بكر وأنا أقبلها منك، فقبض عمر و لم يقبلها.

فلما ولي عثمان ﷺ أتاه فقال: أقبل صدقتي، فقال : لم يقبلها منك رسول الله ﷺ

ولا أبو بكر ولا عمر وأنا أقبلها منك، فلم يقبلها منه،، فهلك ثعلبة في خلافة عثمان.

ثم قال ابن كثير : وقوله تعالى : بما أخلفوا الله ما وعدوه.. أي أعقبهم النفـــاق في قلوبهم بسبب إخلافهم الوعد وكذبهم، كما في الصحيحين : أية المنافق ثلاث : إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا ائتمن خان.

وقوله: ﴿ أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ ﴾ (التوبة ٧٨)، يخبر الله تعالى أنـــه يعلم السر وأخفى، وأنه أعلم بضمائرهم وإن أظهروا أنه حصل لهم أموال تصدقوا منـــها، وشكروا عليها، فإن الله أعلم بهم من أنفسهم، لأنه تعالى علام الغيوب، أي يعلم كل غيب وشهادة، وكل سر ونجوى، ويعلم ما ظهر وما بطن، وقبل مناقشة هذه الروايات إليك بحثاً في النفاق.

بحث في النفاق

من المنافق ؟

المنافق في الاصطلاح الشرعي هو الذي يظهر غير ما يبطن ويخفي، فإن كان الذي يخفيه التكذيب بأصول الإيمان فهو المنافق الخالص، وحكمه في الآخرة حكم الكافر، وقد يزيد عليه في العذاب لخداعه المؤمنين بما يظهره لهم من الإسلام.

قال تعالى : إن المنافقين في الدرك الأسفل من النار.

وإن كان الذي يخفيه غير الكفر بالله ورسوله، فإنما هو شئ من المعصية لله، وهـــو الذي فيه شعبة أو أكثر من شعب النفاق.

متى يكون النفاق ؟

عندما يكون دين الله ظاهرا، وأهله في منعة منه، فإن الناس يدخلـــون في ديـــن الله أفواجاً، وتضعف قوة الكفر أو تستأصل، ويذهب سلطان الكافرين خوفاً مـــن ســـطوة المسلمين. فعند ذلك يبطن بعض الناس كفرهم ويظهرون إسلامهم.

فالنفاق لايوجد إذا سيطرت دولة الكفر حيث ساد الكفر فلا خوف عليه إن أظهر كفره وناصب الإسلام عداءه ونهض لحربه.

غير أنبعض الذين كتبوا في موضوع النفاق، أجازوا أن يوجد النفاق في مكة ولهـــم في ذلك مقاصد لا علاقة بها بالتحقيق العلمي.

والجبن والكفر داعيان إلى النفاق، فالكفر هو ما يبطنه، والجبن هو الـــذي يجعـــل المنافق يظهر خلاف ما يبطنه، فالمنافق جبان خوار ضعيف القلـــب لايحســـن الكيـــد ولا يستطيع التدبير إلا في الظلام، وإذا لقى المؤمنين أظهر لهم أنه مؤمن ﴿ وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا

قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ ﴾ (البقرة ١٤).

والمنافق بذلك أسوأ من الكافر وأكثر ضررا، لأنه يساويه في الكفر، ويمتاز عليه بالخداع والتضليل، وإمكان تسلله إلى صفوف المسلمين، فيكون إيذاؤه شديدا والحذر منه قليلا بخلاف الكافر الذي لا يحصل فيه الاشتباه، ولا يمكن أن يخدع المسلمين بحقيقته الظاهرة.

إمارات النفاق

يقوم النفاق على الكفر الباطن، والأصل أن ما في القلوب يكون خافياً على الآخرين، غير أن ما تعلمه المسلمون من إمارات النفاق، هي التي تجعلهم يحكمون على الشخص بالنفاق إذا ظهرت عليه إماراته، سواء كان المنافق كافرا أو كان مصدقاً لكن فيه بعض إمارات النفاق.

والمعيار لامارات النفاق هو المعيار الذي يستمد من كتاب الله وسنة النبي ﷺ.

ونلاحظ هنا أن بعض الناس يسمون عدداً من إمارات النفاق بغير اسمها، ويرجعونها إلى المجاملة ومحاسن الأخلاق، والحقيقة أن محاسن الأخلاق هي ما أرساها الإسلام ودعا إليها، وأن مساوئ الأخلاق هي ما حذر منها الإسلام ونهى عنها. فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم قارعة أو يحل عليه عذاب أليم. ومن إمارات النفاق..

أولاً : مرض القلب

وهو فساده الذي يختل منه إدراك صاحبه وإرادته فلا يرى الحق أو يراه على خلاف ما هو عليه، ويبغض الحق النافع ويحب الباطن الضار، ومريض القلب يؤذيه مالا يؤذي صحيح القلب، فهو يستثار لأقل شك، ويتزلزل لأدنى فتنة، وإذا ظل على مرضه فإنه يزداد شكا وزلزلة واستثارة للشر، قال تعالى: ﴿ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا ﴾ (البقرة ١٠)، وقال تعالى: ﴿ لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ ﴾ (الحج ٥٣).

ثانياً : اللدد في الخصومة والعزة بالإثم.

قال تعالى: ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللَّهَ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ ۝ وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفَسَادَ ۝ وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴾ (البقرة ٢٠٤-٢٠٦).

فالمنافق له لسان يعطيك من طرفه حلاوة ليخفي ما يحمل قلبه من عداوة وشرسة

فيكذب إذا تكلم، ويغدر إذا عاهد ويفجر إذا خاصم، وهمته منصرفة إلى الإفساد وإهلاك ما ينفع الناس من حرث ونسل، ويغضب إذا ذكره أحد بضلاله أو نهاه عن غيه أو أمره بطاعة الله عز وجل، أو حتى قال له اتق الله وتب إليه مما أنت فيه من قول سقيم وسعي مفسد وارجع إلى الحق، فإذا هو يغضب حمية لنفسه وهو غضب لهبه من نار جهنم، وهي في النهاية جزاؤه.

ثالثاً : العمل على إفساد الأرض وادعاء الإصلاح.

قال تعالى: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لا تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ۝ أَلا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِن لا يَشْعُرُونَ ﴾ (البقرة ١١-١٢).

والفساد هو الكفر قولاً وعملاً، وهو عمل المعصية والدعوة إليها، وليس أكبر من المعاصي إفسادا للأرض، فصلاح الأرض بالطاعة، وفسادها بالمعصية، وفساد المنافقين كفرهم وشكهم وتكذيبهم ومخادعتهم الله ورسوله والمؤمنين، وموالاتهم لأعداء الدين ومحاربتهم لأولياء الله والداعين إليه.

رابعاً : وصفهم المسلمين بالسفه

قال تعالى: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ أَلا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِن لا يَعْلَمُونَ ﴾ (البقرة ١٣).

والسفيه هو الجاهل الضعيف الرأي، قليل المعرفة بمواضع المصلحة والمضار.

والحقيقة أن السفاهة محصورة فيهم، ومن تمام جهلهم أنهم لا يعرفون ما فيهم من الجهالة والضلالة.

خامساً : الإفساد بين المؤمنين

قال تعالى: ﴿ لَوْ خَرَجُوا فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلا خَبَالاً وَلأَوْضَعُوا خِلالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴾ (التوبة ٤٧).

يحرص المنافقون على إضعاف المسلمين وتفريق صفوفهم، وأشغالهم فيما بينهم.

ولقد يحزن المسلمون على بعد بعض الناس عنهم، وعدم العمل معهم ظناً منهم أنهم منهم وأنهم يكثرون ويقوون بهم إذا خرجوا معهم، ولكن اله يعلم أنهم لو خرجوا مع المسلمين ما زادوهم إلا فساداً بالوقيعة فيما بينهم، وبث بذور الفتنة وفي المسلمين من يستمع إليهم ويطيعونهم، ويستجيبون لحديثهم وكلامهم، ويطلبون النصيحة منهم، لأنهم لا يعرفون حالهم وفي هذا خطر عظيم على المسلمين.

سادساً : الكذب والخوف وكراهية المسلمين

قال تعالى: ﴿ وَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ وَمَا هُمْ مِنكُمْ وَلَكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ ۞ لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَأً أَوْ مَغَارَاتٍ أَوْ مُدَّخَلاً لَوَلَّوْا إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ ﴾ (التوبة ٥٦-٥٧).

فالمنافق كذّاب حلاف وقد جاء في الحديث :" أية المنافق ثلاث، إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا أؤتمن خان وإذا خاصم فجر ".

فهم يحلفون بالله أُنهم من المسلين، والحقيقة أنهم جبناء وهذا دافعهم إلى الكذب، إذ لو أكتشف المسلمون أمرهم فسوف يعاقبونهم على ضلالهم.

وكرههم للمسلمين يجعلهم لا يطيقون رؤيتهم ولا يرغبون في مصاحبتهم،، فيصيبهم الهم والحزن كلما رأوا عزة الإسلام وأهله، وحتى لا يروا ذلك فإنهم يودون أن لا يروهم أبداً حتى ولو في حصن أو مغارات أو نفق في الأرض، ولو وجدوا شيئا من ذلك لأسرعوا إليه ليغيبوا عن المسلين فلا يروهم.

سابعاً : يطعنون في أهل الحق

قال تعالى: ﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِنْ لَمْ يُعْطَوْا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ ﴾ (التوبة ٥٨).

فالمنافقون لا يحبون الحق والعدل، ورضاهم وسخطهم لأنفسهم، فإن أعطوا شيئاً من متاع الدنيا رضوا، وإن لم يعطوا سخطوا، ورموا أهل الحق بالظلم، وكان هذا ديدنهم مع النبي ﷺ. فقد كانوا يعيبون طريقته في تقسيم الغنائم أو الصدقات، فإذا كبر نصيبهم رضوا، وإذا منعوا ذلك لعدم استحقاقهم غضبوا وسخطوا، وهذه عادتهم مع الناس، فهم يرضون عن الشخص الذي يعطيهم ما يأملون، ويغضبون على الشخص الذي لا يعطيهم، وهم في الحالين ينظرون بمقياس مصالحهم، لا مقياس الحق والعدل.

ثامناً : السخرية من المؤمنين

قال تعالى: ﴿ الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لا يَجِدُونَ إِلا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ (التوبة ٧٩).

فكل ما يفعله المؤمنون من خير هو مثار سخرية المنافقين، فلو تصدق عبد الرحمن بن عوف بألف قالوا : إنه يرائي بصدقته، وإذا تصدق أبو الهيثم بن التيهان بصاع قالوا : إن الله لغني عن صدقة هذا، فهم يسخرون منهم على كل حال في اليسر والعسر والمرور في الطريق.

قال تعالى: ﴿ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ ۝ وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ۝ وَإِذَا انْقَلَبُوا إِلَى أَهْلِهِمُ انْقَلَبُوا فَكِهِينَ ۝ وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَؤُلَاءِ لَضَالُّونَ ۝ وَمَا أُرْسِلُوا عَلَيْهِمْ حَافِظِينَ ﴾ (المطففين ٢٩-٣٣).

تاسعاً : الإضرار بالمؤمنين

وهم يتسترون وراء عمل مشروع لعمل شئ غير مشروع مثل الإضرار بالمسلمين أو التفرق بينهم.

قال تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَى وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ۝ لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ ﴾ (التوبة ١٠٧-١٠٨).

وهي محاولة من محاولات المنافقين لتفريق كلمة المسلمين، وتضليلهم حيث بنوا مسجداً قريباً من مسجد قباء الذي يسع كل المسلمين من حوله، وذلك ليتفرق جمع المسلمين بين المسجدين، ومن ناحية أخرى ليلتقوا فيه تحت مظلة الإسلام فيكيدون للمسلمين دون أن يؤخذ عليهم أو يفطن لهم، ويكون مكاناً يتجمع فيه من يحاد الله ورسوله، وإذا سألهم المسلمون عن سبب بنائهم هذا المسجد ولا ضرورة تدعو إليه حلفوا كاذبين أنهم ما أرادوا إلا الحسنى والخير للمسلمين ليصلى فيه ذو الحاجة والعلة، والله يشهد إنهم لكاذبون.

وقد أخبر الله تعالى نبيه ﷺ بسوء نيات هؤلاء المنافقين، وأمره أن يهدمه ولا يصلي فيه، وأن مسجد قباء الذي أسس على التقوى من أول يوم هو أحدر بالعبادة وأحق باجتماع المسلمين فيه.

يقول سيد قطب : وهذا المسجد ما يزال يتخذ في صور شتى تلائم ارتقاء الوسائل الخبيثة التي يتخذها أعداء الدين، تتخذ في صورة نشاط ظاهره الإسلام وباطنه تشويه الدين وتمويهه وتمييعه، وتتخذ في صورة أوضاع ترفع لافتة الدين عليها لتختفي وراءها وهي ترمي هذا الدين، وتتخذ في صورة تشكيلات وتنظيمات وكتب وبحوث تتحدث عن الإسلام.

ومساجد الضرار الكثيرة هذه يتحتم كشفها وإنزال اللافتات الخادعة عنها، وبيان حقيقتها للناس وما تخفيه وراءها، ولنا أسوة في كشف مسجد الضرار على عهد النبي ﷺ.

عاشراً : فرحهم بالمعصية ودعوة الناس إليها

قال تعالى: ﴿ فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَافَ رَسُولِ اللَّهِ وَكَرِهُوا أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَالُوا لَا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ ﴾ (التوبة ٨١). إن قلب المنافق أسود منكوس فقد خلا من المعرفة والدين، ومن ثم يترك الإيمان بالله، ويفرح بقعوده عن الجهاد في سبيل الله، ويوصي غيره من المنافقين بترك الجهاد لما فيه من المشقة مع شدة الحر، وينسى لجهله وضلاله أن نار جهنم أشد حرا من الدنيا، وأن العاقل من يتحمل الحر القليل خوفاً وطلباً للنجاة من الحر الكثير.

حادي عشر : موالاة الكافرين والتربص بالمؤمنين

قال تعالى: ﴿ بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ۞ الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَيَبْتَغُونَ عِنْدَهُمُ الْعِزَّةَ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ۞ وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذًا مِثْلُهُمْ إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا ۞ الَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِنَ اللَّهِ قَالُوا أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ وَإِنْ كَانَ لِلْكَافِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوا أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُمْ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا ﴾ (النساء ١٣٨-١٤١).

المنافق يوالي الكافرين، ويساعدهم على المؤمنين، ويخلص الود لهم، وإذا خلا بهم أظهر حقيقته فقال إني معكم، لأن المنافقين حريصون على إزالة دولة المسلمين، وعلى انتصار الكافرين، ولكن لأنهم خائبو الرجاء فهم يريدون أن يستفيدوا من الطرفين، فإذا كانت الغلبة للمسلمين ادعوا أنهم معهم فهم شركاء في الغنيمة، وإذا كانت الغلبة للكافرين قالوا لهم، نحن الذين مزقنا وحدة المسلمين وساعدناكم في الخفاء، فالمنافقون يصانعون الكفار والمسلمين معاً للمنفعة العاجلة لكنهم يتمنون لو تزول دولة المسلمين بشرط أن لا يكلفهم ذلك مشقة أو قتالاً.

ثاني عشر : التكاسل عن العبادات والرياء بها

قال تعالى: ﴿ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالَى يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ۞ مُذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَلَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا ﴾ (النساء ١٤٢-١٤٣).

فالمنافقون خادعون، يخادعون الله، ويخادعون الناس، أما وجه مخادعتهم لله فهو اعتقادهم أن أمرهم بمثل ما خفي على الناس سيخفي على الله عز وجل، وهذا من الجهل

المطبق لأن الله تعالى يعلم السر وأخفى، وكم كشف الله لهم من سرّ، وهتك من ستر ولكنهم ينسون، فيوقعهم الله تعالى في شر أعمالهم.

ومن صفاتهم كذلك تكاسلهم عن أداء العبادات، فهم يؤخرون الصلاة عن أول وقتها وإذا اضطروا إليها تضليلاً للآخرين يقومون كسالى لعدم إخلاصهم، وبمجرد مجاراة للناس ولا يذكرون الله إلا قليلا.

جاء في الحديث عن صفات المنافقين : تلك صلاة المنافق، تلك صلاة المنافق، تلك صلاة المنافق، يجلس يرقب الشمس، حتى إذا كانت بين قرني الشيطان قام فنقر أربعاً لا يذكر الله فيها إلا قليلا.

ثالث عشر : التحاكم إلى الطاغوت

قال تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلالاً بَعِيدًا ۞ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُودًا ۞ فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَاءُوكَ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنْ أَرَدْنَا إِلا إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا ۞ أُولَئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُلْ لَهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ قَوْلاً بَلِيغًا ﴾ (النساء ٦٠-٦٣).

من صفات المنافقين أنهم يزعمون أنهم يؤمنون بما أنزل الله على رسوله محمد ﷺ وما أنزل على رسله من قبل، إنهم يقولون هذا بألسنتهم، أما عند العمل فهم يريدون أن يتحاكموا إلى الباطل إذا لم يوافق الحق هواهم، ومن الباطل تلك القوانين التي يضعونها معطلين بها أحكام الدين التي وردت في الكتاب والسنة، وقد أمرهم الله تعالى بالبراءة منها، ولكن الشيطان يستحوذ عليهم ليبعدهم بعداً بعيداً عن الحق حين يوسوس لهم بالتحاكم إلى غير ما أنزل الله، فكيف حالهم إذا أصابهم شر بسبب بعدهم عن الهدى ثم أتوا إلى النبي ﷺ يقسمون باغلظ الإيمان أنهم كانوا يقصدون الخير والإصلاح والتوفيق، وهم يعلمون أن حسن النوايا مع ضلال العمل لا يؤدي إلى القبول : إذ أن العمل لا يقبل إلا إذا كان صواباً وصحبه الإخلاص. إن الله تعالى يعلم ما في قلوب هؤلاء، فهو يعلم السر وأخفى، ومن أجل أيمانهم التي أقسموها، فإن الله يأمر نبيه بأن يكل سرائرهم إلى الله عز وجل، وإنما عليه أن لا يعنفهم، ولكن يعظهم، ويحسن النصيحة ليدركوا – أن لم يكونوا قد أدركوا – أن العمل لا بد فيه من الصواب وحسن النية.

الفرق بين المنافق والعاصي

بعبارة موجزة : المنافق في قلبه مرض، والعاصي في إيمانه ضعيف والمنـــافق مرضــه يتعداه إلى غيره، إذ أن نفاقه لا يكون إلا من أجل الإضرار بالمؤمنين أو إفساد حيـــاقمم أو ممالأة أعدائهم عليهم.

والمعصية غالباً ما تكون قاصرة على العاصي، فهو محب لله ولرسوله وللمؤمنــــين، وهو حريص على أن تكون كلمة الله هي العليا وكلمة الذين كفروا السفلى.

ولكن العاصي تنتابه الغمرة أحياناً، ويصغي لوسوسة الشيطان حيناً أخر،ويميل مـــع هوى نفسه مرة، فيخالف قليلاً أو كثيراً، ويفرط أحياناً في الواجبات، والمسلم بصفة عامة ليس معصوماً من الخطأ، ولكنه مطالب بالتوبة، وقد جاء في الحديث " كل ابن أدم خطاء، وخير الخطائين التوابون ".

وقال الله تعالى : ونفس وما سواها فألهمها فجورها وتقواها.

ولكن : لماذا يعصي المسلم وهو مؤمن بالله ورسوله واليوم الأخر، ومؤمــــن بـــأن معصيته الله عز وجل تؤدي إلى سخطه وعذابه ؟

فالإيمان قد يضعف في قلب المسلم فتغلبه شهوته، ويقبل إغراء الشيطان فـــيرتكب المعصية لأن العقاب وعيدٌ في الآخرة، ولذائذ الحياة شئ حاضر، والنفس مجبولـــــة علـــى سيطرة المشاهد الحاضرة عليها مهما كانت عواقب الحاضر مرة، وعاقبة الغائب شهية، ولا يمنعها من سطوة الحاضر إلا قوة الإيمان، قال تعالى : بل تؤثرون الحياة الدنيا، وقال تعالى : كلا بل تحبون العاجلة، وتذرون الآخرة.

والعاصي جاهل بقدر ربه وحق ربوبيته وألوهيته وعظمته وكمال إنعامه، وكمـــال فقر الإنسان إليه، وعدم خفاء شئ من عمل الإنسان على خالقه، وكذلك هـــو جـــاهل بأضرار الذنوب فتغمسه في لذة عاجلة مع أن نسبة العاجلة وما فيها من شهوات إلى لذائذ الآخرة كنسبة ما يبقى على الإصبع من ماء البحر إذا غمسه فيه.

يقول ابن كثير : قال مجاهد وغير واحد من أهل العلم : كل من عصى الله خطأ أو عمداً فهو جاهل حين عملها، حتى ينـــزع عن الذنب، وقال قتادة : إن أصحاب النـــبي ﷺ كانوا يقولون : كل ذنب أصابه عبد فهو جهالة، وعن ابن عباس : من جهالته عمل السوء.

ومن جهل العاصي اتكاله على رحمة الله التي وسعت كل شئ، ونسى أنها قريب من المحسنين وأن من صفات المؤمنين أنهم يفعلون من الخير ما يفعلون، وهم في وجل مـــن الله عز وجل أن لا يقبل منهم، وأن من لوازم الرجاء في رحمة الله عز وجل التوصـــــل إليـــها

بأسبابها من العمل الصالح، فمثله كمثل الذي يحرث أرضه، ويلقي فيها البذور ويتعـــهدها بالرعاية، ثم يستشرف رحمة الله لينمو بذره ويكبر زرعه، وليس مثل الذي يترك أرضه يباباً فلا يضع بذراً ولا يسقي ماءً فأنى له أن ينتظر منها حصاداً أو يرجو من الله لها إنباتاً، وقـــد استفاض العلم عند الخاصة والعامة، والصغير والكبير أن السفينة لا تجري على اليبس.

فالعاصي إنسان يستحق الشفقة لأنه مثل الذي وقف على حافة واد سحيق في ليلـــة ظلماء، يُخاف عليه من السقوط فيها، يحاول الداعي أن يجنبهم هذا السقوط، ويبذل جهده لتخليصهم من الهلاك، ولكنه لا يحتقره ولا يستصغر شأنه، وإن استصغر فيه المعصية، ومـــن حقه أن يغضب منه، وأن يبين له جرمه في حق ربه وفي حق نفسه، ولكنه لا يـــــأس مـــن استنقاذه، والأخذ على يده.

أما المنافق فهو إنسان جدير بالاحتقار والمبارزة بالعداوة لأنه تجاوز حافـــة الحفـــرة وهوى إلى دركها الأسفل كما قال الله تعالى ﴿ **إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَـــنْ تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا** ﴾ (النساء ١٤٥).

أهل بدر بين المعصية والنفاق

حكم الله عز وجل على الكافرين بالنار، أمر بتبشيرهم بها حيناً " بشر المنافقين بأن لهم عذاباً أليما " ووصف مكانهم فيها حيناً أخر ﴿ **إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الأَسْفَلِ مِنَ النَّـــارِ وَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا** ﴾ (النساء ١٤٥).

ولكنه تعالى جعل أمر العصاة راجعاً إليه إما يعذبهم وإما يتوب عليهم، فقد يتجاوز عز وجل عن معصيتهم، وقد يتوبون عنها فتغفرها التوبة وقد يفعلون من الخير ما يثقـــل ميزان الحسنات فتذهب الحسنات السيئات.

وقد بشر النبي ﷺ أهل بدر بالمغفرة فأخرجهم يقيناً من دائـــرة النفـــاق لكنـــه لم يخرجهم من دائرة المعصية، ولكن معاصيهم مغفورة يقيناً، " أعملوا ما شئتم فقد غفـــرت لكم " والفعل " أعملوا " في هذه السياق لن يكون للطاعات، إذ أن الطاعات لا تحتاج إلى تعقيب بقوله فقد غفرت لكم، ولكن المعصية هي التي تقتضي هذا الجواب.

وقد روت لنا كتب السيرة معاصي لأهل بدر منها الكبير ومنها الصغير، وكـــانت معاصيهم تقابل بالسماحة أو التجاوز من النبي ﷺ، ولكنها لا تسقط الحد إن كان لها حد معلوم.

أخطأ مسطح بن أثاثة حين أذاع حديث الإفك عن أمنا عائشة – رضي الله عنها – وأقيم عليه حد القذف.

وأخطأ أوس بن الصامت حين ظاهر من زوجته، وفيهما أنزلت آيات الظـــهار في

صدر سورة المجادلة، وأعانه النبي ﷺ في كفارته.

وأخطأ حاطب بن أبي بلتعة خطأ جسيما حين أذاع سر النبي في رسالة بعث بها إلى أهل مكة، وكاد هذا الخطأ أن يفسد خطط المسلمين للفتح لولا أن تداركتهم عناية الله عز وجل فأعلم رسوله بالرسالة وجاءوا بها من الطريق ونزل فيه صدر سورة الممتحنة تصفه بالإيمان وتعاتبه على جريمته، وأراد الصحابة قتله فقال لهم النبي : إنه شهد بدرا.

وجاء عبد لحاطب هذا يشكو من قسوته للنبي ﷺ، ويقول : يا رسول الله ليدخلن حاطب النار، فقال النبي ﷺ : كذبت، لا يدخل النار أحد شهد بدرا والحديبية.

وجاء أحد الناس فأسر إلى النبي ﷺ أنه يتهم مالك ابن الدخشم البدري أنه من المنافقين، فرفض النبي ﷺ هذا الاتهام، وقال إن الله نهاه عن اتهام هؤلاء بهذه الصفة، ثم سمع رجلا يسبه فغضب النبي ﷺ وقال لا تسبوا أصحابي.

نخلص من كل ما تقدم إلى عدة نتائج

الأولى : أن أهل بدر معصومون من النفاق.

الثانية : أن المعصية جائزة في حق البدريين، وقد حدث ذلك من بعضهم.

الثالثة : أن معاصيهم لن تدخلهم النار بفضل الله تعالى وقد وعدهم بذلك.

الإنصاف في أمر ثعلبة

لم يختلف أحد من كتاب السير في شهود ثعلبة بن حاطب بدرا مثلما لم يختلفوا في سبقه إلى الإسلام، وفي مؤاخاة النبي ﷺ بينه وبين معتب بن الحمراء.

ربط بعض المفسرين بين ثعلبة، وبين أسباب نزول الآيات الكريمة عن مانعي الصدقة التي رويناها في أول هذا الحديث.

ومن القصة المروية عن سبب النزول نقتطف الأفكار التالية

– أن أحد الناس طلب دعاء النبي ﷺ له ليكثر ماله، وألح في الطلب، ونصحه النبي ﷺ بأن القليل الذي يؤدي شكره خير من الكثير الذي يبطره.

– أن أموال الرجل كثرت ببركة دعاء النبي ﷺ فانسلخ من إيمانه شيئاً فشيئاً – ترك الجماعة – اعتباره الزكاة نوعاً من الجزية.

– حكم الله عز وجل على هذا الرجل بالنفاق الذي يستمر معه إلى يوم القيامة " فأعقبهم نفاقاً في قلوبهم إلى يوم يلقونه ".

– فضح الله عز وجل سريرة هذا الرجل، بأنه وعد فأخلف، وبما أنه فسق عن الدين، ومن أجل ذلك لم يقبل أحد من الخلفاء قبول صدقته حتى مات.

وكل ما ذكر في هذه النتائج يستحيل أن يوصف به أحد من أهل بدر، وقد ثبت بما لا يدع مجالاً للشك أن ثعلبة منهم.

فإما أن تكون الرواية ملفقة على ثعلبة، وإما أن هناك ما يسمى ثعلبة بن حاطب غير البدريّ حدثت له هذه القصة.

أما ثعلبة بن حاطب الأنصاري البدري، فهو – بإذن الله – من الذين رضي الله عنهم للإسلام والنصرة والأخوة، ورضي الله عنهم لشهوده بدرا، وكأن الله قد اطلع على أهل بدر فقال لهم أعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم.

وعن ثعلبة وإخوانه سأل جبريل رسول الله ﷺ : ما تظنون أهل بدر فيكم ؟

فقال النبي ﷺ : من خيرنا.

فقال جبريل : ونحن نعد الملائكة الذين شهدوا بدرا كذلك.



أبو قتادة الأنصاري

سيد الفرسان.

فارس رسول الله ﷺ :

مُفلح الوجه.

مبارك الشعر والبشرة.

تلك ألقاب ودعوات النبي ﷺ له.

أما أوسمة الخلد التي حملها من قبل فمنها :

السابق إلى الإسلام.

الأنصاري.

بطل بدر وأحد والمشاهد كلها.

اسمه الحارث أو النعمان بن ربعي

وكنيته : أبو قتادة.

ولقبه الأنصاري.

وقومه بنو سلمة بن الخزرج.

وإن أردت المزيد وجدت، فلأبي قتادة في مضمار الفضل مزيد وأي مزيد.

فهو التقي العابد، راوي سنة النبي ﷺ، ومعلم الناس فقهه، الباحث عن الجماعة، والداعي إليها.

دخل الإسلام المدينة، وأبو قتادة قد عبر إلى العقد الرابع ببضع سنين وغلبت عليه الفروسية، فما أن يقال الفارس، حتى يتبادر إلى الأذهان أبو قتادة قبل غيره.

ودخل أبو قتادة في الإسلام فوضع نفسه وفروسيته تحت تصرف الإسلام فسمي - مع بعض الصناديد - فارس رسول الله ﷺ، ولم يجعل أبو قتادة منذ إسلامه لنفسه حظاً في فروسيته، ولا حظاً في نفسه، ومع ذلك فقد كانت حظوظ الدنيا المقسومة له تأتيه وهي

راغمة، مصداق قول النبي ﷺ : من كانت الآخرة همه جمع الله شمله، وجعل غناه بين عينيه، وجاءته الدنيا وهي راغمة.

ومع أن أبا قتادة علم بين الصحابة، فإن الرواة قد اختلفوا في شهوده بدرا، فبعضهم لا يذكره في أهل بدر، بينما يروي خبر وفاته على هذه الصورة : ومات أبو قتادة بن الحارث في خلافة علي ﷺ وقد شهد معه مشاهده كلها، وصلى عليه عليّ فكبر سبعاً، وقال أكبرّ عليه سبعاً لأنه بدريّ، وفي رواية، إنه كبرّ عليه ستاً لأنه شهد بدراً، وكبرّ مثل ذلك على بدريّ أخر هو سهل بن حنيف.

ولعل من غفل عن عده في أهل بدر استند إلى أن أبا قتادة فارس و لم يكن يوم بدر غير فرسين أحدهما للمقداد والآخر لأبي بردة، ولكن الخروج إلى بدر لم يكن في الأصل للقتال ﴿ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ... ﴾ (الأنفال ٧).

فارس أحد

جاء في الصحيح : أُحد جبل يحبنا ونحبه، وزاد في رواية وهو على باب الجنة، ولما انهزم المشركون في بدر تلك الهزيمة الثقيلة، وقُتل أشرافهم أصحاب القليب، ورافقتهم المرارة إلى مكة، رأى بعضهم أن يعتبروا القافلة كأنها لم تفلت من المسلمين، وقالوا : يا معشر قريش، إن محمدا قد وتركم، وقتل خياركم فأعينونا بهذا المال على حربه لعلنا ندرك منه ثأراً ... ففعلوا.

وفيهم نزل قول الله تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ ﴾ (الأنفال ٣٦).

ثم قام أبو سفيان بتعبئة قريش وأحلافها وأحابيشها، ومن حولها وجاورها من العرب.

اسر أبو عزة الجمحي يوم بدر ثم من عليه النبي ﷺ من أجل كثرة عياله وقلة ماله، فقال له صفوان بن أمية : يا أبا عزة، إنك امرؤ شاعر فأعنا بلسانك واخرج معنا، فقال إن محمدا منّ عليّ فلا أريد أن أظاهر عليه.

قال : صفوان : بلى فأعنا بنفسك ولك عليّ إن رجعت أن أغنيك، وإن قتلت أن أجعل بناتك مع بناتي يصيبهن ما أصابهن من عسر ويسر، فخرج أبو عزة يسير في تهامة ويدعو بني كنانة ويقول :

أيا بني عبد مناة الرزام	أنتم حماة وأبوكم حام
لا يعدوني نصركم بعد العام	لا تسلموني لا يحل إسلام

وخرج نافع بن عبد مناف الجمحي إلى بني مالك بن كنانة يحرضهم ويقول

يا مال مـــال الحسب المقـدّم ... أنشـد ذا القـربى وذا التذمـم
من كان ذا رحم ومن لم يرحم ... الحلف وسط البلد المحـرّم

عند حطيم الكعبة المعظم

ودعا جبير بن مطعم غلاماً له حبشاً يقال له وحشي يقذف بحربة له قذف الحبشة قلما يخطئ بها، فقال له : أخرج مع الناس، فإن أنت قتلت حمزة عم محمد بعمى طعيمـــة فأنت حر.

فخرجت قريش بحدها وحديدها، وجدها وأحابيشها، ومن تابعها من بني كنانـــه وأهل تهامة، وخرجوا ومعهم نساؤهم لإثارة حفائظهم حتى لا يفروا، ونزلوا ببطن السبخة من قناة على شفير الوادي مقابل المدينة.

فلما سمع بهم رسول الله ﷺ والمسلمون قال لهم : قد رأيت والله خيرا رأيت بقـــرا يذبح، ورأيت في ذباب سيفي ثلما ورأيت أني أدخلت يدي في درع حصينـــة، فأولتـــها المدينة.

وكان رأي النبي ﷺ أن يقيم المسلمون في المدينة، فإن هاجمتهم قريش قاتلوها فقال أناس لم يكونوا شهدوا بدرا : نخرج يا رسول الله إليهم نقاتلهم بأحد، ورجوا أن يصيبهم من الفضيلة ما أصاب أهل بدر، فما زالوا برسول الله ﷺ حتى لبس عـــدة الحـــرب، ثم ندموا، وقالوا يا رسول الله أقم فالرأي رأيك، فقال ما ينبغي لنبي أن يضع أداته بعـــد مـــا لبسها حتى يحكم الله بينه وبين عدوه، وقال لهم يومئذ : إني رأيـــت أني في درع حصينـــة فأولتها المدينة، وأنني مردف كبشاً وأولته كبش الكتيبة، ورأيت أن سيفي ذا الفقار فـــلّ، فأولته فلاً فيكم، ورأيت بقرا يذبح، فبقر والله خير.

واستعمل على المدينة عبد الله بن أم مكتوم وخرج في ألف رجل بينما جمعت قريش ثلاثة آلاف رجل، ورجع عبد الله بن أبي بن سلول من الطريق بثلاثمائة وقال : أطاعـــهم وعصاني، ما ندري علام نقتل أنفسنا هنا أيها الناس، فاتبعهم عبد الله بن عمرو بن حـــرام فقال : يا قوم أذكركم الله أن لا تخذلوا قومكم ونبيكم عند ما حضر من عدوهم، فقالوا لو نعلم أنكم تقاتلون ما أسلمناكم، ولكننا نرى أن لن يكون قتال، فلما استعصوا عليـــه وأبوا إلا الانصراف قال : أبعدكم الله أعداء الله فسيغني الله عنكم نبيه.

وعلى الجانب الآخر قال أبو سفيان لأصحاب اللواء من بني عبد الدار : يا بني عبد الدار قد وليتم لواءنا يوم بدر فأصابنا ما قد رايتم، وإنما يؤتى الناس من قبل رايـــاتهم، إذا زالت زالوا، فإما أن تكفونا لواءنا وإما أن تخلوا بيننا وبينه فنكفيكموه، فهموا به وتواعدوه وقالوا : نحن نسلم إليك لواءنا ؟ ستعلم غدا إذا التقينا كيف نصنع، وكان هذا الذي يريده

أبو سفيان منهم.

وعدّل النبي ﷺ صفوف المسلمين، وأجلس جيشاً من الرماة عددهم خمسون تحت إمرة عبد الله بن جبير فوق الجبل، وقال لهم بعدأن وضعهم في مواضعهم : إن رأيتمونا تخطفنا الطير فلا تبرحوا حتى أرسل إليكم، وإن رأيتمونا ظهرنا على عدونا وأوطأناهم فلا تبرحوا حتى أرسل إليكم، ثم لما التقى الجمعان أظهر الله المسلمين وفر المشركون فقال أصحاب عبد الله بن جبير، الغنيمة، أي قوم، الغنيمة، ظهر أصحابكم، فقال عبد الله بن جبير : أنسيتم ما قال لكم رسول الله ﷺ، قالوا : إنا والله لنأتين الناس فلنصيبن من الغنيمة، فلما أتوهم، تنبه المشركون لترك الرماة منازلهم، ولم يبق مع عبد الله إلا عدد قليل، فكر المشركون، وفوجئ المسلمون بكرتهم فاختلفت صفوفهم، وتمكن المشركون منهم، وأعدوا كميناً للنبي ﷺ فتدافع إليه المشركون من كل ناحية ليقتلوه خاصة بعد فرار من فر من المسلمين، فثبت حول حفرته أبطال أشاوس، ومقاتلون صناديد يفدونه بأنفسهم، ويتلقون الأسهم عنه بوجوههم، منهم طلحة والزبير، وأبو طلحة وسهل بن حنيف وعلى بن أبي طالب وقتادة بن النعمان، وأبو قتادة بن ربعيّ، الذي أذاه بعد ذلك تمثيل بعض المشركين بقتلى المسلمين، فطلب من النبي ﷺ أن يأذن له في أن يمثل بجثث المشركين، فمنعه النبي ﷺ وقال له يا أبا قتادة : إن قريشاً أهل أمانة من بغاهم العواثر أكبه الله تعالى إلى فيه، وعسى أن طالت بك مدة أن تحقر عملك إلى أعمالهم، وفعلك إلى فعالهم، لولا أن تبطر قريش لأخبرتها بما لها عند الله، فقال أبو قتادة والله يا رسول الله ﷺ، ما غضبت إلا لله ورسوله، فقال : صدقت، بئس القوم كانوا لنبيهم.

خير فرساننا

حظي أبو قتادة بن ربعي بهذا الوسام في غزوة ذي قرد وهو اسم لبئر ماء، وتسمى غزوة الغابة – الشجر الملتف – على بعد بعض يوم من المدينة.

وكانت إبل النبي ﷺ ترعى في هذا المكان وتبيت فيه، وكان أبو ذر يعمل مع رعاتها، فكان يتعبه طول الطريق، فطلب من النبي ﷺ أن يأذن له في أن يأخذ امرأته وولده ويقيم بهما هناك، على أن يحرس الإبل في المساء حيث يذهب الراعي بألبانها إلى المدينة فيوزعها على مستحقيها من مستحقي الصدقة.

فقال النبي ﷺ لأبي ذر : ألا تأمن عيينة بن حصن وذويه أن يغيروا عليك، فألح عليه فقال : لكأني بك قد قتل ابنك وأخذت زوجتك، وجئت تتوكأ على عصاك.

يقول أبو ذر عجباً لي ولرسول الله ﷺ، يقول : لكأني بك وأنا ألح عليه، فكان ما قال رسول ﷺ، فإني والله لفي منزلنا، ولقاح رسول ﷺ قد روحت وحلبت عتمتها

وغنما، فلما كان الليل أحدق بنا عيينة بن حصن في أربعين فارسا، فصاحوا بنا وهم قيـــام على رءوسنا، فأشرف لهم ابني فقتلوه، وكان معه ثلاثة نفر فنجـــوا وتنحيـــت عنـــهم، وشغلهم عني إطلاق عقل اللقاح، ثم صاحوا في أدبارها فكان آخر العهد بها.

وكان أول من علم بهم سلمة بن الأكوع ﷺ، فإنه غدا يريد الغابة متوشحاً قوسه، ومعه غلام لطلحة يقود فرس طلحة، فقابلهما أحد الذين نجوا في الغابة فأخبرهما الخـــبر، فقال سلمة : يا أفلح، اقعد على الفرس فأبلغ رسول الله ﷺ، ورجع ســـلمة يجـــري إلى المدينة فسبق الفرس، وأشرف على تل في ناحية سلع وصاح : الفـــزع الفـــزع، ثلاثـــاً، واصباحاه، ثلاثا يقصد الاستغاثة وإعلام أهل المدينة، وكان عالي الصوت فسمعوه، ثم عاد يشتد وراء المغيرين وكان عدّاءً يسبق فجعل يردهم بالأسهم ويقول إذا رمي واحدا منهم، خذها وأنا ابن الأكوع، واليوم يوم الرضّع، أي هلاك اللئام منهم، فإذا اتجـــهت خيولهـــم نحوه فر هارباً.

يقول سلمة : كنت ألحق الواحد منهم فأرميه بسهم في رحله فيعقره، فإذا رجع إليّ فارس منهم أتيت شجرة فجلست في أصلها، ثم أرميه فأعقره فيولي عني، فـــإذا دخلـــت الخيول في بعض مضايق الجبل علوت الجبل ورميتهم بالحجارة، و لم أزل أرميهم حتى ألقوا أكثر من ثلاثين رمحاً وأكثر من ثلاثين بردة كانوا يتقنعون بها، ولا يلقون من ذلك شيئاً إلا جمعته من طريق رسول الله ﷺ ووضعت عليه حجارة، وما زلت كذلك أتبعهم حتى مـــا خلق الله من بعير للنبي ﷺ إلا خلفته وراء ظهري وخلوا بينهم وبينه.

أما في المدينة فكان النبي ﷺ أول من سمع صرخة سلمة، فصاح : الفزع يا خيل الله اركبي، فكان أمرا من النبي ﷺ فتدافع الفرسان مثل أبي قتادة، والمقداد، وسعيد بن زيـــد وهو أميرهم حتى يدركهم، وكان شعارهم يومئذ : أمت.. أمت.

وكان محرز بن نضلة.. وكنيته الأخرم الأسدي أول فارس لحق بالمشركين فلما رآه سلمه وحده نزل إليه من فوق الجبل وأخذ بعنان فرسه وقال له : أحذر القـــوم حـــتى لا يقتطفوك، وتلبّث حتى يلحق رسول ﷺ والفرسان، فقال الأخرم : يا سلمة : إن كنـــت تؤمن بالله واليوم الآخر، وتعلم أن الجنة حق والنار حق، فلا تحل بيني وبين الشهادة فتركه سلمة وكان هو الشهيد الوحيد من المسلمين في هذه الغزوة.

يقول سلمة : ثم إن المشركين جلسوا يتغدون وجلست على قرن جبل فقال رجل منهم : من هذا ؟ قالوا : هذا الذي لقينا منه البرح حتى انتزع كل شئ في أيدينا، قـــال : فليقم إليه أربعة منكم، فتوجهوا إليّ فهددتهم والذي كرم وجه محمد ﷺ لا أطلب رجـــلاً منكم إلا أدركته، ولا يطلبني فيدركني، فقالوا : إنا نظن ذلك، فرجعوا.

وكان أبو قتادة قد اشترى فرساً فلقيه مسعدة بن عيينة بن حصن فساومه عليـــها

فقال أبو قتادة أما إني أسأل الله أن ألقاك وأنا عليها، فقال مسعدة : آمين.

ولما سمع المسلمون صريخ سلمة قام أبو قتادة فركب هذا الفرس فقال له النبي ﷺ : أمصن يا أبا قتادة، صحبك الله.

وأدرك أبو قتادة قاتل محرز بن نضلة، فقتله، ثم قتل عبد الرحمن بن عيينة وحبيب بن عيينة،وأصيب بسهم في جبهته فنزعه ولكنه لم ينزع إلا طرفه وبقي السهم في جبهته لم يشعر به، ثم طلع عليه فارس، وقال : لقد ألقانيك الله يا أبا قتادة فإذا هو مسعدة الفزاري الذي سأل الله أن يلقاه على هذه الفرس، وقال مسعدة -وكان هو فارس فزارة- إيما أحب إليك مجالدة أو مطاعنة أو مصارعة، قال أبو قتادة : ذاك إليك، فقال مسعدة بل صراع.

قال أبو قتادة : فنزل وعلق سيفه بشجرة، ونزلت وعلقت سيفي بشجرة وتواثبنا فرزقني الله الظفر عليه، فإذا أنا على صدره وإذا شئ مسّ رأسي، فإذا سيف مسعدة قد وصلت إليه في المعالجة، فضربت بيدي إلى سيفه وجردته، فلما رأي أن السيف وقع في يدي، قال : يا أبا قتادة، استحيني، قلت : لا والله، قال : فمن للصبية ؟ قلت : النار، ثم قتلته، وأدرجته في بردي، ثم أخذت ثيابه فلبستها، ثم استويت على فرسه، ولأن فرسي نفرت حيث تعالجنا، وذهبت خلف القوم فحملت على ابن أخيه فدققت صلبه، فانكشف من معه عن اللقاح، وكانوا قد أخذوها، فحبست اللقاح وجئت أحرسها.

وفي هذه الأثناء كان النبي ﷺ قد أقبل مع الناس، فوجدوا برد أبي قتادة مسجًّى، فاسترجع المسلمون وقالوا : إنا لله وإنا إليه راجعون، قتل أبو قتادة، فقال النبي ﷺ : ليس بأبي قتادة، ولكنه قتيل لأبي قتادة، ووضع عليه برده ليعرف أنه صاحبه فخرج عمر حتى كشف البرد عن وجه مسعدة أو حبيب، فقال : الله أكبر صدق الله ورسوله، يا رسول الله، غير أبي قتادة.

وأدرك النبي ﷺ أبا قتادة وهو يحرس الإبل بعد أن استنقذها فقال : أفلح وجهك يا أبا قتادة، قال : ووجهك يا رسول الله، قال : قتلت مسعدة ؟ قال نعم، قال : أبو قتادة سيد الفرسان، بارك الله فيك يا أبا قتادة، وفي ولدك وولد ولدك.

ثم قال النب ﷺ : ما هذا الذي بوجهك ؟ قلت اسهم أصابني، قال : ادن مني، فنزع السهم نزعاً رفيقاً، ثم بزق عليه ووضع عليه راحته وقال : اللهم بارك له في شعره وبشره، فو الذي أكرمه بالنبوة ما ضرب عليّ ساعة قط، ولا فاح ولا قرح.

وأعطاه فرس مسعدة وسلاحه وقال : بارك الله لك فيه.

وسار رسول الله ﷺ حتى نزل بالجبل من ذي قرد بناحية خيبر، وتلاحق به الناس،

وصلى صلاة الخوف، فلما أصبح الناس قال : خير فرسانتا أبو قتادة، وخير رجالتنا سلمة.

وأرسل إليه سعد بن عبادة من المدينة أحمالاً من تمر وعشر جزائر فقال اللهم سعدا وأل سعد، نعم المرء سعد بن عبادة، فقالت الأنصار : هو سيدنا وابن سيدنا، من بيت يطعمون في المحل ويحملون الكل ويحمون العشيرة، فقال ﷺ : خيار الناس في الإسلام خيارهم في الجاهلية إذا فقهوا في الدين.

وانفلتت المرأة من الوثاق ليلاً، وهي زوجة أبي ذر فأتت إبل الفزاريين فجعلت إذا دنت من البعير رغا، فتتركه حتى إذا انتهت إلى ناقة لم ترغ فقعدت على عجزها وزجرتها، وعلموا بها، فطلبوها فأعجزتهم، ونذرت لله إن نجاها أن تنحر الناقة وتأكل من كبدها وسنامها فقال النبي ﷺ بئس ما جزيتيها بعد أن حملك الله عليها، لأنذر في معصية ولا فيما لا تملكين فتبسّم رسول الله ﷺ وقال : بئسما جزيتها بعد أن حملك الله عليها، ونذر في معصية ولا فيما لا تمكين، إذ كانت هي ناقة النبي ﷺ أفلت بها المشركون وأخذوها في إبلهم، ثم قال : إنما هي العضباء ناقتي، ارجعي إلى أهلك على بركة الله تعالى.

نال أبو قتادة في هذه الغزوة وسام سيد الفرسان، وحصل على بركة دعاء النبي صل له ولولده وولد ولده، وكان من أثر هذا الدعاء لشعره وبشره، أنه مات في سن السبعين وكأنه ابن خمس عشرة سنة وضاءة وبهاء.

القائد المنتصر

إذا كان أبو قتادة هو الحارس الأمين اليقظ لقائده العظيم ﷺ حتى دعا له بأن يحفظه الله كما حفظ نبيه.

وإذا كان أبو قتادة مقاتلاً صنديداً حتى وصفه القائد بأنه خير فرسان المسلمين، ودعا له بأن يبارك الله في شعره وبشره، فإن أبا قتادة، قاد السرايا وانتصر وغنم، ووسع رقعة المسلمين. قالوا : بعث النبي ﷺ أبا قتادة ومعه خمسة عشر رجلاً إلى غطفان، وأمره أن يشن عليهم الغارة، فسار الليل وكمن النهار، فهجم على حاضر منهم عظيم، فأحاط بهم، فصرخ رجل منهم، يا خضرة، وقاتل منهم رجال، فقتلوا من أشرف لهم واستاقوا النعم، فكانت الإبل مائتي بعير، والغنم ألفي شاة، وسبوا سبياً كثيراً وجمعوا الغنائم، فأخرجوا الخمس فعزلوه، وقسموا ما بقي على أهل السرية، فأصاب كل واحد منهم اثنا عشر بعيرا، فعدل البعير بعشر من الغنم، وصارت في سهم أبي قتادة جارية وضيئة، فاستوهبها رسول الله ﷺ، فوهبها له، فوهبها رسول الله ﷺ لمحية بن جزء، وغابوا في هذه السرية خمس عشرة ليلة.

وفي أول رمضان من سنة ثمان كذلك أرسل النبي ﷺ أبا قتادة على رأس سرية كان

القصد منها التمويه على أهل مكة حتى ينشغلوا بأخبار هذه السرية عن زحف جيش المسلمين لفتح مكة.

قالوا : لما هم النبي ﷺ بغزو مكة، بعث أبا قتادة بن ربعي في ثمانية نفر سرية إلى بطن إضم، وهي فيما بين ذي خشب وذي المروة، وبينها وبين المدينة ثلاثة برد، ليظن ظان أن النبي ﷺ توجه إلى هذه الناحية، ولأن تذهب الأخبار بذلك، وكان في السرية محلم بن جثامة الليثي، فمرّ عامر بن الأضبط الأشجعي فسلم بتحية الإسلام، فأمسك القوم عنه، وحمل عليه محلم فقتله وسلبه بعيره ومتاعه وإناء لبن كان معه، فلما لحقوا بالنبي ﷺ نزل فيهم القرآن ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَبَيَّنُوا وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ** ﴾ (النساء ٩٤).

ثم بلغهم أن النبي ﷺ قد توجه إلى مكة فلحقوا به.

أما المقصود بالذم في الآية بأنه يبتغي عرض الحياة الدنيا فهو محلّم بن جثامه حيث كانت خصومة في الجاهلية بينه وبين عامر بن الأضبط، وأعتبر أن الفرصة قد واتته للانتقام من ابن الأضبط إرضاء لهوى دنيوي غافلاً عن أن الإسلام يَجُبّ ما قبله ويسقط كل إحن الجاهلية وأحقادها، ولذلك دعا النبي ﷺ على محلم، فمات ميتة قبيحة، ولكن الدرس في هذه القصة أننا لسنا مطالبين عن شق قلوب الناس لنعرف صدقهم أو كذبهم، وإنما من أظهر أنه مسلم حكمنا عليه بأنه مسلم، ولكن قلبه مثل قلوبنا موكولة إلى الله عز وجل.

الأريب الدقيق

هذا جانب من صفات أبي قتادة تكلم به بلفظه ونصه، ونحن نثبته بنصه لننبّه على أمور.

الأمر الأول : يختص بنا، فهو نص يشتمل على الأسلوب الجميل، والوصف الدقيق والمتعة الوجدانية والإيمانية، وتلك هي سمات الأدب الذي يحمل قيماً حقيقية عالية ينبغي أن نغرسها في نفوس النشء، وهو ما تفتقده مناهجنا التعليمية، التي لم تطور دراستها للأدب العربي وتاريخه منذ وضعها المستشرقون، وقد قصدوا أن يفصلوا بين العقيدة وباقي أنشطة الحياة، مع أن العقيدة ليست نشاطاً وإنما هي محور أنشطة الحياة ومنبعها وأساسها.

لقد انتزعت النصوص من سياقاتها، واختيرت على أسس ليست فنية ولا عقدية، وإنما على أسس استراتيجية تهدف إلى المباعدة بين الفروع والجذور، فإذا أمدت الفروع بشئ من الجذور فإنما هو شئ استبعدت منه عناصر النماء الشامل فتخرج الفروع تتنكر جذورها أو تتنكر لها، هزيلة الثمرة، قليلة المحصول، ويظهر مصداق هذا القول في هذا النص الذي سنثبته لك بعد قليل، وعليك أن تقارنه بما يسود صفحات كتب المناهج في

أقطارنا الإسلامية على امتداد رقعتها.

الأمر الثاني : ويختص بمجتمع الإسلام، وكيف يصوره الداعية ليعيشه الناس ويرونه رأي العين، فليس يكفي أن نقول إنه مجتمع متكافل مترابط، تفدي الرعيـــة فيـــه وليـــها بأنفسها، وتكلؤه بأعينها، وتأوي إليه في يسرها وعسرها كما يلوذ فصيل الناقة بأمه، وإنما ينبغي أن يعزز قوله بالأمثلة ينتقي منها ما يعضد قوله، ويشهد على صدقة.

الأمر الثالث : ويختص بوليّ الأمر الذي لم تحرص عليه الرعية إلا لأنها ترى حرصه عليها، حرص الوالد الشفيق على أبنائه، والولد البار على والديه، والأخ الرحيـــم علـــى إخوته، لا حرص الدعاية والادعاء، ولا حرص المقاعد والعروس والأســـرة، ولا حـــرص السطوة والافتراء، يسوؤه ما يسوؤهم فيبذل جهده لرفعه، ويحزنه ما يحزنهم فيجاهد لأزالة غشاوته، ويسره ما يسرهم فيسعى إليه، وكل ذلك في اطار قواعد ربانية تكفـــل عدالـــة الميزان، وتحكم ميزان العدالة، فهو يسهر حتى يناموا ويجوع حتى يشبعوا، ويخـــاف حـــتى يأمنوا، لا يميزه عنهم إلا سعة أفق، وقدرة على تحمل الأعباء والقيام بها، ولا يحجزهم عنه حاجب ولا بواب، ولا يمتنع عنهم إن أرادوه في ليل أو نهار.

الأمر الرابع : ويختص بوفاء الله عز وجل بوعده حين قال: ﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْـــلَ الْقُـــرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ﴾ (الأعراف ٩٦).

وليست هذه البركات وقفاً على جيل دون جيل، ولكنها وعد إذا تحققت شروطه تم الوفاء به، وبركات المولى عز وجل لا ينقطع مددها عن خلقه، ولكنها تـــبرز باســـم البركات إذا تم الإيمان والتقوى، وما أحرى جيل أبي قتادة بهما.

الأمر الخامس : ويختص بأبي قتادة، كم يحب قائده وولي أمره الذي أخذ بحجـــزه عن النار فسهر ليلته يحرسه ويسنده حتى لا يقطع عليه نومه، وكم يحب أصحابه ويجـــل كبراءهم ويدعو إلى الاقتداء بهم كما يبدو من ثنائه على أبي بكر وعمر، وكم كان مسلماً ملتزماً، وجندياً مطيعاً، بالإضافة إلى صفات كانت متوافرة فيهم وإن كانت بعيدة الشأن لأمثالنا، مثل الفصاحة ودقة الوصف، وحسن التصوير، وكم مـــن الكتـــاب والبلغـــاء يفتقدونها.

روي الإمام أحمد عن عبد الله بن رباح عن أبي قتادة قال : كنا مع رسول الله ﷺ في سفر فقال : إنكم إن لا تدركوا الماء غداً تعطشوا.

وانطلق سرعان الناس يريدون الماء، ولزمت رسول الله ﷺ، فمالت برسول الله ﷺ راحلته، فنعس رسول الله ﷺ، فدعمته فاندعم (أي أسندت رأسه فاستوى على راحلته) ثم مال فدعمته فاندعم، ثم مال حتى كاد أن ينجفل (يقع) فدعمته فانتبه، فقال : مـــن

الرحل ؟

قلت : أبو قتادة.

قال : منذ كم كان مسيرك ؟ (سهرك بجانبي).

قلت : منذ الليلة (طوال الليل).

قال : حفظك الله كما حفظت رسوله، ما أرانا إلا شققنا عليك.

ثم قال : لو عرسنا (يعني لو نزلنا فنمنا).

فمال إلى شجرة فنزل، فقال : انظر هل ترى أحد (من الناس حيث كانوا يبحثون عن الماء).

قلت : هذا راكب، هذان راكبان، حتى بلغ سبعة.

فقال : احفظوا علينا صلاتنا.

فنمنا فما أيقظنا إلا حر الشمس، فانتبهنا، فركب رسول الله ﷺ فسار وسرنا هنيهة، ثم نزل فقال : امعكم ماء ؟

قلت : معي ميضأة فيها شئ من ماء.

قال : ائت بها.

فأتيته بها فقال : مسوا منها، مسوا منها (توضأوا بدون اسراف)، فتوضأ القوم وبقيت جرعة، فقال : ازدهر بها يا أبا قتادة، فإنه سيكون لها نبأ (احتفظ بها).

ثم أذن بلال وصلوا الركعتين قبل الفجر، ثم صلوا الفجر، ثم ركب وركبنا، فقال بعضهم لبعض : فرطنا في صلاتنا (لأنهم صلوا الصبح بعد طلوع الشمس حين غلبهم النوم عن الصلاة).

فقال رسول الله ﷺ : ما تقولون ؟ إن كان أمر دنياكم فشأنكم، وإن كان أمر دينكم فإليّ.

قلنا : يا رسول الله، فرطنا في صلاتنا.

فقال : لا تفريط في النوم، إنما التفريط في اليقظة، فإن كان ذلك فصلوها.

ومن الغد وقتها. ان الله تعالى قبض أرواحكم حين شاء، وردها حين شاء فقضوا حوائجكم ثم قال : ظنوا بالناس (ما ظنكم أن باقي الناس).

قلنا : إنك قلت بالأمس إن لا تدركوا الماء غدا تعطشوا، فالناس بالماء (يبحثون عن الماء).

فلما أصبح الناس (الذين يبحثون عن الماء) وقد فقدوا نبيهم، فقال بعضهم لبعض إن رسول الله ﷺ بالماء، وفي القوم أبو بكر وعمر، فقالا : أيها الناس : إن رسول الله ﷺ لم يكن ليسبقكم إلى الماء ويخلفكم، وإن يطع الناس أبا بكر وعمر يرشدوا (قالها أبو قتادة ثلاثاً) فلما اشتدت الظهيرة، رفع لهم رسول الله ﷺ (رأوه) فقالوا : يا رسول الله، هلكنا عطشاً، تقطعت الأعناق.

فقال : لا هلك عليكم.

ثم قال : يا أبا قتادة، ائت بالميضأة.

فأتيته بها، فقال : احلل غمري – قدحه – فحللته، فأتيته به، فجعل يصب فيه ويسقي الناس، فازدحم عليه الناس. فقال : يا أيها الناس، أحسنوا الملأ (التجمهر) فكلكم سيصدر عن ري.

فشرب القوم حتى لم يبق غيري وغير رسول الله ﷺ، فصب لي، فقال اشرب يا أبا قتادة، فقلت : اشرب أنت يا رسول الله.

قال : ان ساقي القوم أخرهم.

فشربت، وشرب بعدي، وبقي في الميضأة نحوٌ مما كان فيها، وهم يومئذ ثلاثمائه.

قال عبد الله – راوي الحديث – فسمعني عمران بن حصين، وأنا أحدث هذا الحديث في المسجد الجامع فقال : من الرجل ؟

قلت : أنا عبد الله بن رباح الأنصاري.

فقال : القوم أعلم بحديثهم، انظر كيف تحدث، فإني أحد السبعة تلك الليلة، فلما فرغت قال : ما كنت أحسب أحدا يحفظ هذا الحديث غيري.

وفي بعض روايات الحديث أن أبا قتادة وصف نوم النبي ﷺ فقال : وكان رسول الله ﷺ إذا عرّس – نام – وعليه ليل توسد يمينه، وإذا عرّس الصبح، وضع رأسه على كفه اليمين وأقام ساعده.

* * *

ويكفينا موقف أخر لأبي قتادة، نرى فيه الفداء والشجاعة، ونرى فيه الفقه والعلم ونرى فيه ورع المسلمين وحرصهم على تحري الحلال في المطعم كما تحروه في العقيدة وفي العبادة وفي المعاملة، وقد ذكر هذا الموقف في عدة روايات أخرجها البخاري في صحيحه، نجمع بينهما في السطور التالية.

خرج أبو قتادة مع النبي ﷺ عام الحديبية، وكان النبي ﷺ يتوقع خيانة قريش

وغدرها، وبلغه أن هناك من يتربص به على ساحل البحر، فأرسل النبي ﷺ طائفة من رجاله الشجعان للقاء من يتربصون وكان أبو قتادة أحد هؤلاء الشجعان.

وأحرم أصحاب أبي قتادة للعمرة، وأخر أبو قتادة إحرامه حتى يقارب نهاية الميقات ليكون عنده حرية الحركة، وفي بعض الطريق أبصروا حماراً وحشياً، وهو يعتبر صيداً ثميناً في سفر مثل هذا السفر، فجعل بعضهم يضحك لبعض يتعجبون أن هذا الصيد الثمين لم يقابلهم إلا بعد أن أحرموا، والإحرام يمنع قتل الصيد، وقد أخذوا الأمر بتقبّل ورضا، فلو كان لهم فيه نصيب لكان الله قد قدره لهم، وما دام قد أخر ظهوره إلى ما بعد إحرامهم فهي حكمته ومن أجل ذلك ضحك بعضهم إلى بعض.

لم ينتبه أبو قتادة لوجود الصيد إلا حين رآهم يضحكون، فنظر حيث تنظر أعينهم فرآه، فحمل عليه بفرسه، وفي أثناء المطاردة سقط منه سوطه فطلب منهم أن يعينوه فرفضوا وقالوا لا نعينك، نحن محرمون، ولكن أبا قتادة ظفر بالصيد فطعنه وقتله، ثم أعد لهم الطعام فأكلوا وحملوا الباقي معهم.

فخشي أبو قتادة وأصحابه أن يكونوا تأخروا عن رسول الله ﷺ فسبقهم أبو قتادة على أن يرجع إليهم بالأمر.

يقول أبو قتادة : ثم لحقت بالنبي ﷺ، وخشينا أن نقتطع، أرفع فرسي شأوا وأسير عليه شأوا – يعني أجري به حيناً وأتمهل حيناً حين يتعب الفرس– فلقيت رجلاً من بني غفار في جوف الليل، فقلت : أين تركت رسول الله ﷺ، فقال تركته بتعن – اسم مكان – وهو قائل للسقيا – يعني أمر الناس أن يملأوا قربهم بالماء – تزوداً للطريق – فلحقت برسول الله ﷺ حتى أتيته، فقلت : يا رسول الله، إن أصحابك يقرؤون عليك السلام ورحمة الله، وإنهم قد خشوا أن يقتطعهم العدو دونك، فانظرهم – يعني انتظرهم – ففعل، فلما أتوا رسول الله ﷺ، قالوا : يا رسول الله، إنا كنا أحرمنا، وقد كان أبو قتادة لم يحرم بعد، فرأينا حمر وهو حسن، فحمل عليها أبو قتادة فعقر منها أتانا، فنزلنا، فأكلنا من لحمها، ثم قلنا : أنأكل لحم صيد ونحن محرمون ؟ فحملنا ما بقي من لحمها، قال : أمنكم أحد أمره أن يحمل عليها، أو أشار إليها، قالوا لا، قال : فكلوا ما بقي من لحمها.

غناه بين عينيه

منذ تبوأ الإسلام أبو قتادة، وقد جعل نفسه خالصاً لله ولرسوله، والعمل لدينه، فلم يسع في تجارة، و لم يترك لنفسه وقتاً يعمل فيه لنفسه، وهو يدرك أن العمل الحلال من الإيمان، ولكنه يدرك كذلك أن درجات العمل تتفاضل بأفضلية العمل من جهة، وبالإخلاص في القيام بتبعاته من جهة أخرى.

والعمل في الإسلام قيمة إيمانية إذ أنه مقرون بالإيمان، وقد حفل القرأن الكريم بالحديث عن الذين أمنوا وعملوا الصالحات، وعمل الصالحات يشتمل على الشعائر، وعلى الضرب في الأرض لاستخراج ما أوعها الله من أسرار وثروات، والتجارة بالقسط والصدق، وتعليم العمل النافع ومعالجة الأمراض، وعماة البلدان، وسياسة الرعية، ولكن الجهاد هو ذروة سنام الإسلام، وفي مرحلة التأسيس لدولة الإسلام يكون الجهاد خير الأعمال، وأعظمها أجراً، ومع النبي ﷺ فريضة واجبة.

وكان أبو قتادة محباً لدينه ونبيه، ويرى أن من أفضل الأعمال ملازمته وحراسته وصحبته، وكان يصيب من الغنائم ما يقيم أوده، و لم يكن راغباً في أكثر من ذلك حتى يتقوى على العبادة والنصرة والجهاد، وقد تعلم بحسب ابن آدم لقيمات يقمن صلبه فلا حاجة له في الثلث أو مادونه، وقد تعلم أن شر وعاء يملؤه الإنسان هو بطنه، و لم يكن محباً للشر ولا راغباً فيه، فكان يشعر بالغنى على خلو يده، وبالراحة لقلة شهواته، وقد جاء في الحديث " أقلل من الشهوات يسهل عليك الفقر " فلم يشعر إلا بالغنى بين عينيه، و لم يتطلع إلى خير مما هو عليه.

لكن وعد النبي ﷺ لا بد أن يصيبه منه ما قُدِّر له " من كانت الأخرة همه جمع الله شمله، وجعل غناه بين عينيه، وجاءته الدنيا وهي راغمة، ومن كانت الدنيا همه فرق الله شمله، وجعل فقره بين عينيه، و لم يأته من الدنيا إلا ما كتب له فيها "، فالعمل مطلوب لأنه واجب فعلى الإنسان أن يلتمس أسبابه ليقوم بواجبه، والرزق مقسوم في علم الرزاق فلا نتعجله ولا نشك في وصوله إلينا، وعلى الإنسان أن يلتمس أسباب أقرب الأعمال إلى رضاء الله عز وجل، وكل ميسر لما خلق له.

وقد رغمت الدنيا لأبي قتادة في حنين.

أخرج البخاري عن أبي قتادة ﷺ قال : خرجنا مع رسول الله ﷺ عام حنين، فلما التقينا كانت للمسلمين جولة (كان لبعضهم الهزام وخوف فرّوا بسببه وبقي النبي ﷺ صامداً ومعه جماعة)، فرأيت رجلاً من المشركين قد علا رجلاً من المسلمين، فضربته من ورائه على حبل عاتقه بالسيف، فقطعت درعه، وأقبل عليّ فضمني ضمة وجدت منها ريح الموت، ثم أدركه الموت فأرسلني.

فلحقت عمر بن الخطاب ﷺ فقلت : ما بال الناس (يتعجب من انهزامـــهم، و لم يكونوا من قبل كذلك)، فقال عمر : أمرُ الله، ثم رجعوا (وانتصر المسلمون)، وجلـــس رسول الله ﷺ فقال : من قتل قتيلا فله سلبه إذا كانت له عليه بينته، فقمت فقلت، مـــن يشهد له ؟ ثم جلست، وقال النبي ﷺ مثله، فقلت : من يشهد لي ؟ ثم جلســـت فقـــال رسول الله ﷺ مثله، فقمت فقلت من يشهد لي ؟ ثم جلست، فقال النبي ﷺ : مالك يـــا أبا قتادة ؟ فأخبرته، فقال رجل : صدق، وسلبه عندي، فأرضه عني (يريد أن يشاركه في السلب) فقال أبو بكر: لاها الله (والله) إذا يعمد إلى أسد من أسد الله، يقـــاتل عـــن الله ورسوله فيعطيك سلبه، فقال النبي ﷺ : صدق (أبوبكر) فأعطه، فأعطانيه، فابتعت بـــه مخرفاً (بستاناً) في بني سلمه، فإنه لأول مال تأثّلته في الإسلام (جمعته).

الراوية الفقيه

في سياق الحدث عن أبي قتادة تقدم أنه جعل عمله كله لله ورسوله، فكان عملـــه كله للدين، ومن عمل لشئ لا بد أن يكون عالماً به، ولا يتأتى العلم بشئ إلا من مصادره ومصدر العلم بالإسلام هو النبي ﷺ سواء كان ما يصدر عنه الوحي الذي يتلقـــاه عـــن جبريل ويودع دفتي المصحف، أو كانت أقواله ﷺ وأفعاله وتقريراته، وقد كان أبو قتادة قريباً من هذا المصدر، فأخذ منه ونهل، وروي عنه ونقل، فتعلم الناس من أبي قتادة، مـــن الاحاديث التي يرويها عن النبي ﷺ، ومن إقرار أبي قتادة لأمر يحدث أمامه فلم ينكـــره، فاعتبر إقراره لما يحدث أمامه دليل صحة لهذا الأمر، وسوف نثبت هنا متفرقات من مروياته وإقفراراته لعلها تعطي صورة عنه فقيهاً وراوية وأسوة ثقة لمن تعلموا منه وأخذوا عنه.

خطبة النبي ﷺ عن الأنصار

لا ينس، أبو قتادة الحارث بن ربعي ﷺ أنه أنصاري، وما ينبغي لـــه أن ينســـى، فالأنصارية ليست عرقاً فيكون عدم نسيانه انتصاراً لقبيلة أو شعب، وليست فئة اجتماعية فيكون تعصباً لوجاهة أو لمصالح فئوية، وليست فكرة أو مذهباً، فيكون حجراً على عقله ومنعاً له من الحركة ومثاقبة الأفكار والمقابسة بينهما.

الأنصارية قيمة دينية ترفع قدر صاحبها في مسيرة الإسلام، وتلقي عليـــه بالمقـــابل تبعات يكون بها جديراً بهذه التسمية التي مصدرها الله عز وجل وعقدها الكتاب العزيـــز ومقابلها الموضوعي الهجرة، وجزاؤها الجنة.

الأنصاري مسلم تبوأ الدار والإسلام فأصبح الإسلام له موطناً، وتبـــوأه الإســـلام فأصبح ذلك الأنصاري هو ثوب الإسلام الذي يلامس جسمه وهو الذي يسميه العـــرب الشعار، بينما يسمون الثوب الخارجي الذي يلبس فوق الشعار بالدثار، والشعار هو حماية

الجسد وستره ووعاؤه، والدثار هو مصدر الجمال ومناط الهيبة والتوقير، وقد شبه النبي ﷺ الأنصار بالشعار، وشبه المسلمين بالدثار، في خطبة يرويها ويعتز بها، ويرقي ويرتقي بها أبو قتادة الأنصاري.

أخرج الإمام أحمد عن أبي قتادة رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول على المنبر للأنصار : ألا إن الناس دثاري، والأنصار شعاري، لو سلك الناس وادياً، وسلك الأنصار شعبه، لاتبعت شعبه الأنصار، ولولا الهجرة لكنت امرأ من الأنصار، فمن ولي أمر الأنصار فليحسن إلى محسنهم، وليتجاوز عن مسيئهم، فمن أفزعهم فقد أفزع هذا الذي بين هذين -وأشار إلى نفسه -.

ولم يتوان النبي ﷺ عن إعلان حبه للأنصار وإيثاره لهم، وحضه على إكرامهم مثل ما رواه عبد الله بن كعب بن مالك الأنصاري أن بعض أصحاب النبي ﷺ أخبره أن النبي ﷺ خرج يوماً عاصباً رأسه، فقال في خطبته : أما بعد، يا معاشر المهاجرين، فإنكم قد أصبحتم تزيدون، وأصبحت الأنصار لا تزيد على هيئتها التي هي عليها اليوم، وإن الأنصار عيبتي التي أويت إليها فأكرموا كريمهم، وتجاوزوا عن مسيئهم.

على أننا قدمنا دعوى عن الأنصارية، ونقدم الأن من حياة أبي قتادة دليلاً عليها فإن ابن عمه وأحب الناس إليه كعب بن مالك قد تخلف بدون عذر ولا نفاق عن غزوة تبوك، ولم يكتم ذلك رسول الله ﷺ فأمر النبي ﷺ بمقاطعته هو واثنين بدريين معه هما هلال بن أميه، ومرارة بن الربيع، واستمرت المقاطعة خمسين يوماً حتى ضاقت بكعب نفسه، وضاقت به الدنيا، ثم تاب الله عليهم، فماذا كان من أبي قتادة الأنصاري لابن عمه ايام محنته، اقرأ معي تلك العبارات من رواية كعب لترى أن الأنصارية قيمة إيمانية وشأو رفيع في الاتباع والطاعة والتسليم وكمال اليقين، يقول كعب (.... فكنت اخرج فأشهد الصلاة مع المسلمين واطوف في الأسواق ولا يكلمني أحد، وأتى رسول الله ﷺ فأسلم عليه وهو في مجلسه بعد الصلاة، وأقول في نفسي : هل حرك شفتيه بردّ السلام أم لا، ثم أصلي قريباً منه فأسارقه النظر، فإذا أقبلت على صلاتي أقبل عليّ، فإذا التفت نحوه أعرض عني، حتى إذا طال ذلك علي من جفوة الناس مشيت حتى تسوّرت جدار حائط أبي قتادة - وهو ابن عمي وأحب الناس إليّ - فسلّمت عليه، فو الله ما ردّ عليّ السلام، فقلت : يا أبا قتادة، أنشدك بالله، هل تعلمني أحب الله ورسوله ؟ فسكت، فعدت إليه فنشدته، فسكت، فعدت إليه فنشدته، فقال : الله ورسوله أعلم، ففاضت عيناي وتوليت حتى تسوّرت الجدار.

من أداب الصلاة

أول ما يسأل عنه العبد صلاته، فإن صلحت صلح سائر عمله وفاز وربح، وإن فسدت فسد سائر عمله وخسر وأبعد، وهي القنطرة بين الإيمان والكفر، وهي معراج المسلم وأداة قربة من ربه، وعلامة الإيمان، والتكاسل عنها من علامات النفاق.

فكثرت أدابها، وأحيطت بالوقار والجلال.

عن أبي قتادة ﷺ قال : بينما نحن نصلي مع النبي ﷺ إذ سمع جلبه رجال خلفه، فلما قضي صلاته قال : ما شأنكم ؟ قالوا : أسرعنا إلى الصلاة، قال : فلا تفعلوا، وليصل أحدكم ما أدرك، وليقض ما فاته، أو ما سبقكم فأتموا.

ومن آداب الصلاة أن الرجل في بيته أو مكانه هو الإمام ولو صلى خلفه العلم والأقدم إسلاماً، والأكثر وجاهة في المجتمع.

عن أبي قتادة ﷺ عنه أن ابا سعيد مولى بني أسيد ﷺ عنه صنع طعاماً، ثم دعا أبا ذر وحذيفة وابن مسعود ﷺ عنهم، فحضرت الصلاة فتقدم أبو ذر ليصلي بهم، فقال له حذيفة : وراءك، رب البيت أحق بالإمامة فقال له أبو ذر : كذلك يا ابن مسعود ؟ قال : نعم، فتأخر أبو ذر، قال أبو سعيد : فقدموني وأنا مملوك فأقمت بهم.

وفي هذا الاطار أخرج البزار عن عبد الله بن حنظلة ﷺ قال : كنا في منزل قيس بن سعد بن عبادة ومعنا ناس من أصحاب النبي ﷺ، تقدم، فقال : ما كنت لأفعل، فقال عبد الله بن حنظلة : قال رسول الله ﷺ : الرجل أحق بصدر فراشه، وأحق بصدر دابته، وأحق أن يؤم في بيته، فأمر مولى له فتقدم فصلى.

والصلاة التي تقرب المؤمن من ربه تملأ قلبه بالرحمة، ولا عجب في يناجي الرحمن الرحيم ومن أحق بالرحمة من الأطفال الذين ليس فيهم إلا الخير، وقد أخرج البخاري عن أبي قتادة ﷺ قال : خرج علينا النبي ﷺ، وأمامة بنت أبي العاص بن الربيع - رضي الله عنها - على عاتقة، فصلى فإذا ركع وضع، وإذا رفع رفعها.

وفي هذا السياق روي ابن مسعود قال : كان رسول الله ﷺ يصلي فإذا سجد وثب الحسن والحسين على ظهره، فإذا أرادوا أن يمنعوهما أشار إليهم ان دعوهما، فإذا قضي الصلاة وضعهما في حجره، وقال : من أحبني فليحب هذين.

وعن أنس كان رسول الله ﷺ يسجد فيجئ الحسن أو الحسين فيركب ظهره فيطيل السجود، فيقال : يا نبي الله، أطلت السجود ؟ فيقول : ارتحلني ابني فكرهت أن أعجله.

فالطفل يتحرك في الصلاة كما يشاء حتى لو ركب ظهر الإمام، لأن المصلي يناجي

الرحمن عز وجل، ومن طاعته أن يرحم عبده من يرحمه الرب، وممن كالأطفال في رحمته بعباده كما جاء في الحديث " لولا شيوخ ركعّ، وأطفال رضع، وبهائم ركع، لصب عليكم العذاب صبا ".

إن أداب الصلاة وخشوعها، والإفادة منها تلزم المصلي الرشيد، ومن آدابها الصمت إذا قرأ الإمام، وقد روي أبو قتادة عن النبي ﷺ قوله : " تقرءون خلفي ؟ قالوا : نعم، قال : فلا تفعلوا إلا بأم الكتاب ".

وقد بلغ من فقه أبي قتادة في الصلاة أن الصحابة إذا أرادوا تعليم غيرهم صلاة النبي ﷺ، فإن هؤلاء المتعلمين يقبلون قولهم إذا كان أبو قتادة شاهداً على ذلك.

حدث عطاء قال : سمعت أبا حميد الساعدي وهو في عشرة من أصحاب النبي ﷺ – أحدهم أبو قتادة بن ربعي – – يقول : أنا أعلمكم بصلاة النبي ﷺ، قالوا له : ما كنت أقدمنا صحبة، ولا أكثرنا له تباعا، قال : بلى : قالوا : فاعرض، قال : كان إذا قام إلى الصلاة اعتدل قائماً ورفع يديه حتى حاذى بهما منكبيه، فإذا أراد أن يركع رفع يديه حتى حاذى بهما منكبيه، ثم قال: الله أكبر فركع، ثم أعتدل، فلم يصب رأسه و لم يقنعه ووضع يديه على ركبته، ثم قال : سمع الله لمن حمده، ثم رفع واعتدل حتى جعل كل عظم في موضعه معتدلاً، ثم هو ساجداً، وقال : الله اكبر، ثم جافي وفتح عضديه عن بطنه وفتح اصابع رجليه، ثم ثني رجله اليسرى وقعد عليهما واعتدل حتى رجع كل عظم في موضعه، ثم هوى ساجداً، وقال : الله اكبر، ثم ثنى رجليه وقعد عليها حتى يرجع كل عضو إلى موضعه ثم نهض فصنع في الركعة الثانية مثل ذلك، حتى إذا كانت الركعة التي نقضي فيها الصلاة أخر رجله اليسى وقعد على شقة متوركاً ثم سلمّ.

والملاحظة التي نؤكد عليها أن عطاء راوي الحديث ذكر أن من الحاضرين عشرة من أصحاب النبي ﷺ، ولكنه لم يذكر من أسمائهم إلا اسم أبي قتادة ليؤكد بها صحة رواية أبي حميد عن صفة صلاة النبي ﷺ.

ثم يصف أبو قتادة قراءة النبي ﷺ فيما يرويه عنه عبد الله بن أبي قتادة عن أبيه قال : كان رسول الله ﷺ يصلي بنا فيقرأ في الظهروالعصر في الركعتين الأولين بسورة الفاتحة وسورتين ويسمعنا الأية أحياناً، وكان يطول في الأولى من الظهر ويقصر في الثانية، وكذا في الصبح.

عن الجنائز

ينقل لنا أبو قتادة من هدي الجنائز. قال : كنا مع رسول الله ﷺ جلوساً في مجلس إذ مر بجنازة، فقال رسول الله ﷺ : مستريح ومستراح منه، فقلنا : يا رسول الله ﷺ، ما

المستريح ؟ قال : العبد المؤمن يستريح من نصب الدنيا وأذاها إلى رحمة الله، قلنـا : فمـا المستراح منه ؟ قال، العبد الفاجر يستريح منه العباد والبلاد والشجر والدواب.

ثم يبين لنا أبو قتادة بعض فضائل هذه الملة الأمة المرحومة، وكيف أن السنتها هـي أقلام الحق عز وجل فيقول : كان رسول الله ﷺ إذا دعى لجنازة سأل عنها، فـإن أثـنى عليها خير قام فصلى عليها، وإن أثنى عليها غير ذلك قال لأهلها : شأنكم بها، و لم يصـل عليها.

فصلاة النبي ﷺ تنور القبور المملوءة على اهلها ظلمة، وهو لا يهب هذا النور إلا لمن يستحقه، وإذا كانت الصلاة على الميت المسلم من حقوقه على إخوانه، فإن النبي ﷺ لم يحضر الصلاة على الميت الذي يُذكر بغير الخير إذ يقوم بهذا الواجب أي واحـد مـن المسلمين، وبذلك يكونون قد قضوا حق الميت أما منحة النور فإن النبي ﷺ يختص بها من يشهد الناس له بالتقوى والصلاح، وألسنة الخلق أقلام الحق، بالإضافة إلى ما في الصلاة من الدعاء، فقد روي أبو قتادة وأبو ابراهيم الأنصاريان أن النبي ﷺ، إذا صلى على الميت قال : اللهم اغفر لحينا وميتنا وشاهدنا وغائبنا وذكرنا وأنثانا وصغيرنا وكبيرنا.

وزاد في رواية أبي إبراهيم : اللهم من أحييته منا فأحيه على الإسلام، ومن توفيتـه منا، فتوفه على الإيمان.

وفي رواية لأبي هريرة : أنت خلقتها، وهديتها إلى الإسلام ,أنت قبضت روحـها تعلم سرها وعلانيتها، جئنا شفعاء فأغفر لها.

مانع أخركان يمنع النبي ﷺ من الصلاة على الميت، وهو الدين، فكان لا يصلـي عليه حتى يُقضي عنه دينه، وإذا كان عند النبي ﷺ ما يكفي فكان يسدد عـن الرجـل، وبعد أن فتح الله عليه أبواب الرزق كان يتحمل هو دين الميت بأكله، لأنه ولي المؤمنين.

من ذلك يجب على الداعي أن يؤكد للمسلمين أهمية سداد الديون وإبراء الذمة وأن الجهاد إذا كان يكفر كل الذنوب فإنه لا يكفر الدين لأنه من حقوق العباد.

فقد أخبر عبد الله بن أبي قتادة عن أبيه، أن رجلاً سأل النبي ﷺ فقال : أرأيت يـا رسول الله إن قتلت في سبيل الله صابراً محتسباً مقبلاً غير مدبر كفر الله به خطاياي ؟

فقال رسول الله ﷺ : إن قتلت في سبيل الله صابراً محتسباً مقبلاً غير مدبر كفر الله بـه خطاياك، ثم إن رسول الله ﷺ لبث ما شاء الله ثم سأله الرجل فقال : يا رسول الله، إن قتلت في سبيل الله مقبلاً غير مدبر، كفر الله عني خطاياي، فقال : إن قتلت في سبيل الله مقبلاً غـير مدبر كفر الله عنك خطاياك إلا الدين، كذلك قال لي جبريل عليه السلام، وكان الرجل يسأل بعد أن سمع النبي ﷺ يحدث عن الجهاد في سبيل الله والإيمان بالله من أفضل الأعمال، ولكنها

على ثقلها لا تكفر الدين إلا إذا عفى صاحبه، وفي الأخرة قل من يعفو.

وروي أبو قتادة أن رجلاً من المسلمين توفي، قال : فأتينا النبي ﷺ ليصلـي عليـه فقال : هل ترك من شئ ؟ قالوا : لا والله ما ترك من شئ، قال فهل ترك عليه من دين؟ قالوا : نعم ثمانية عشر درهما، قال : فهل ترك قضاء ؟ قالوا : لا والله ما ترك لها من شئ، قال : فصلوا أنتم عليه، فقال أبو قتادة : يا رسول الله، أرأيت أن قضيت عنه دينه، أتصلي عليه ؟ قال : إن قضيت عنه بالوفاء صليت عليه، فذهب أبو قتادة فقضى عن الرجل دينه وعاد، فقال النبي ﷺ : أوفيت ما عليه ؟ قال : نعم، قال فاخرجوه – يعني الميـت – ثم صلى عليه.

التـــاجر

كان الفارسي الأنصاري أبو قتادة يعرف أصول التجـارة وفروعـها وأرباحـها وصنوف أشكالها، وزاولها جميعاً، فكان الرابح في كل مجال يطرقه فيها، تعلم أن التجـارة بالنفس هي أغلى التجارات وأضمنها ربحا، فلم يبخل في عرضها في سوق الأرباح، ووقع عقد احتكار بينه وبين المشتري أن يضع نفسه حيث يريد لكي يبلغه ما يريـد ﴿ إِنَّ اللَّـهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ ﴾ (التوبـة ١١١)، وهل بعد خير فرساننا، وسيد الفرسان، وفارس رسول الله ﷺ مطمح لمتزيد أو مأرب لطالب الربح، والذي أقـر له بكل هذا الربح وطرح عليه هذه الألقاب رسول الله ﷺ وهو لا ينطق عن الهوى.

وتعلم أن تجارة العلم تعدل تجارة الجهاد، وأن مداد العلماء كدماء الشهداء فيوزن به يوم القيامة، ففتح الله قلبه وعقله لتلقي العلم النافع، وأوعى بصيرته وحافظته فنقله إلى غيره في روايات دقيقة، ونضر الله عبداً سمع مقالتي فوعاها فبلغها.

وأما تجارة المال – وعندها يضيع عقل الحليم وتتضاءل كلمة الحكيم، فقد وعاهـا عقلاً وعملاً ونقلاً وسلوكاً.

فالمال رزق من السماء يبسطه الله لمن يشاء، وهو مال الله يستخلف فيه عبده المسلم مدة حياته، وبالنسبة للمال فهناك عدة أمور.

– المال رزق من الله لعباده، وإذا كان العمل من الأسباب، فإن الرزق ليس متوقفاً على هذه الأسباب بدليل أن هناك من يعملون أكثر ورزقهم أقل وهناك من يعملون أقـل ورزقهم أكثر، وهناك من لا يعمل ويأتيه رزقه والله فضّل بعضكم على بعض في الرزق.

– المال فتنة، والله يبتلي به عباده بالمنـع أو الزيادة ليختبر شكرهم وصـبرهم ﴿ فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ ۞ وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَـدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ ﴾ (الفجر ١٥-١٦).

- محاولات الإنسان لرواج تجارته، وزيادة رزقه لن يزيده إلا بالقدر الذي شاء الله أن يبسطه، فاختيار الوسائل الحلال لترويج السلعة من الفوز في، الابتلاء وتوهم أن الوسائل الحرام تبارك في المال أو تزيده هو وهم خاطئ لأنه حتى إذا زاد فسوف يكون منزوع البركة فلا ينتفع به ما دام الله تعالى هو الرزاق، وهو صاحب الرزق فيجب أن ينفق الإنسان مال الله في فيما يرضي الله، عند ذلك يخلف عليه ويزيده، "**وما أنفقتم من شئ فهو يخلفه وهو خير الرازقين** ".

عن أبي قتادة قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : إياكم وكثرة الحلف في البيع، فإنه ينفق ثم يمحق.

وما دام المال مال الله، فلا يبخل به الوكيل على عيال الله من صدقة أو قرض حسن وما دام مستطيعاً فبإمكانه أن ينظر الموسر وأن يتجاوز عن المعسر.

عن محمد بن كعب القرظي أن أبا قتادة كان له دين على رجل، وكان يأتيه يتقاضاه فيختبئ منه، فجاءه ذات يوم فخرج صبي فسأله عنه فقال : هو في البيت يأكل خزيرة فناداه : يا فلان، أخرج فقد أخبرت إنك هنا، فخرج إليه فقال : ما يغيبك عن قال إني معسر وليس عندي، قال : الله إنك معسر، قال : نعم، فبكى أبو قتادة ثم قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : من نفّس عن غريمه أو محا عنه كان في ظل العرش يوم القيامة.

والصوم من التجارة الرابحة يمارسها أبو قتادة وينقل أخبارها، وروي أن النبي ﷺ سئل عن صوم عرفة وصوم عاشوراء. فقال : عن عرفة : أحتسب عند الله أن يكفر السنة الماضية والباقية، فقيل : يا رسول الله أرايت صوم عاشوراء ؟ قال : وأحتسب عند الله أن يكفر السنة.

وعن صوم الاثنين روي أبو قتادة أن النبي ﷺ سئل عن صوم يوم الاثنين، فقال : فيه ولدت، وفيه أُنزل علي.

واضح البصيرة حتى الممات

نقدم لهذا الموضوع بما رواه العلاء بن الفضل عن أمه قال : لما قتل عثمان رضي الله عنه فتشوا خزائنه، فوجدوا فيها صندوقاً مقفلاً ففتحوه، فوجدوا فيه ورقة مكتوباً فيها :

(هذه وصية عثمان : بسم الله الرحمن الرحيم، عثمان بن عفان يشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمداً عبده ورسوله، وأن الجنة حق، وأن النار حق وأن الله يبعث من في القبور ليوم لا ريب فيه، إن الله لا يخلف الميعاد، عليها يحيى ، وعليها يموت، وعليها يبعث أن شاء الله، ووجدوا في ظهرها هذا الشعر.

غنى النفس يغني النفس حتى يجلها   وإن عضها حتى يضر بها الفقر

وما عسرة فاصبر لها إن لقيتها بكائنة إلا سيتبعها يسر
ومن لم يقاس الدهر لم يعرف الأسى وفي غير الأيام ما وعد الدهر

وأخرج أبو أحمد عن شداد بن أوس ﷺ قال : لما اشتد الحصار بعثمان ﷺ يوم الدار أشرف على الناس فقال : يا عباد الله، قال فرأيت على بن أبي طالب خارجاً من منزله معتماً بعمامة النبي ﷺ متقلداً سيفه، أمامه الحسن وعبد الله بن عمر ﷺ في نفر من المهاجرين والأنصار، حتى حملوا على الناس وفر قوهم، ثم دخلوا على عثمان ﷺ فقال له على : السلام عليك يا أمير المؤمنين، إن رسول الله ﷺ لم يلحق هذا الأمر - لم يدرك انتصار الإسلام وقيام أمره - حتى ضرب بالمقبل المدبر وإني والله لا أرى القوم إلا قاتليك، فمرنا فلنقاتل.

فقال عثمان ﷺ : أنشد رجلاً رأي لله حقاً، وأقر أن لي عليه حقا، أن يهريق بسببي ملء حجمة من دم، أو يهريق دمٌ فيَّ.

فأعاد على عليه القول، فأجابه بمثل ما أجابه، فرأيت علياً خارجاً من الباب وهو يقول : اللهم إنك تعلم أنا بذلنا المجهود، ثم دخل المسجد، وحضرت الصلاة، فقالوا يا أبا الحسن، تقدم فصل بالناس، فقال : لا اصلي بكم والإمام محصور، ولكن أصلي وحدي، فصلى وحده وانصرف إلى منزله، فلحقه ابنه وقال : والله يا أبت قد اقتحموا عليه الدار، قال : إنا لله وإنا إليه راجعون، هم والله قاتلوه، قالوا : أين هو يا أبا الحسن ؟ قال : في الجنة - والله - زلفى، قالوا : وأين هم يا أبا الحسن ؟ قال : في النار - والله - ثلاثاً.

هذه الفتنة التي اشتد أوارها أواخر أيام عثمان ﷺ، وبقيت زمناً أسود كالحاً حتى أخذت في تخبطها الخليفة الرابع وكثيراً من كبار الصحابة، وتولى كبرها اليهود والسبئية والمنافقون، وما زالت مشتعلة في الحوارات والكتب يرتزق بها أناس، ويخوض فيها أناس ويتعالم بها آخرون، هذه الفتنة البغيضة ينبغي أن لا يخوض فيها المسلم إلا وهو متحصن بفرقان يعصمه من الزلل.

وفي سبيل تكوين هذا الفرقان على الداعي أن ينبه إلى أمور منها.

أولاً : أن النبي ﷺ حذر من سب أصحابه وقال : "لا تسبوا أصحابي فلو أنفق أحدكم ملء الأرض ذهباً ما بلغ مد أحدهم ولا نصفه"، فليحذر المسلم أن يطلق لسانه في انتقاص أحد منهم، خاصة وهو يعلم أن علياً وعثمان وطلحة والزبير من المبشرين بالجنة، وأن معاوية من كتاب النبي ﷺ، وأن عمرو بن العاص منذ أسلم وهو من المقربين إلى النبي ﷺ وقد أمّره على السرايا وأمنه على حمل رسائله، وأنه من القواد الكبار والفاتحين العظام.

ثانياً : أن السبق إلى الإسلام فضيلة عظيمة ولكن التأخير يجبه الإسلام ولا يحرم المسلم من وضعه في قدره اللائق به من الدعوة والجهاد بل إن المرتدين عندما هداهم الله مرة أخرى وعادوا إلى الإسلام فقد حسب لهم بلاؤهم، وقد ادعى طليحة النبوة وتزعم فريقاً من المرتدين، ثم هدى إلى الإسلام فرجع إليه وحسب له جهاده وبلاؤه.

ثالثاً : أن الصحابة ليسوا معصومين من الخطأ، ولكنه الخطأ الذي تذهبه الحسنات وليس الخطأ الذي يخرج من الملّة كشراء الدنيا بالدين، وأي رواية تشير إلى أن بعضهم يمكن أن يبيع دينه بدنياه يجب أن يرفضها المسلم فلا يقبلها ولا يردها، ولا ينقلها إلا في معرض التكذيب.

رابعاً : أن الصحابة رضوان الله عليهم قد يختلفون في الاجتهاد، وقد يتقاتلون بسبب ذلك، ولكن ذلك لا يرفع عنهم وصف الإيمان ﴿ وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا ﴾ (الحجرات ٩)، فهم مؤمنون وهم يتقاتلون، بل إنهم ما داموا قد اجتهدوا فبعضهم له أجران وهو المصيب، وبعضهم له أجر واحد وهو الذي لم يصادف اجتهاد الحق.

خامساً : بالنسبة لعثمان ﷺ ذي النورين المبشر بالجنة الذي تستحي منه الملائكة، فقد كانت قوته في الحق هي التي جعلته لا يأبه لترويج المروجين وإرجاف المرجفين، وكان يمكنه أن يقهرهم بالسيف، ولكنه فضل الشهادة على أن تقوم حرب بسببه أو أن يراق دم من أجله وهذا ما صرّح به لعلي ﷺ، بعد أن نصحه عليّ بحربهم واستعداده للدفاع عنه وقتال مناوئيه، فرفض ذلك بإباء حتى لا يكون سبباً في إراقة دم مسلم.

في هذا الجو الذي تلبدت سماؤه بالغيوم السوداء، حتى ضلت الأحلام، وتاهت العقول وغامت الرؤى، اعتزل بعض الصحابة هذه الفتنة ورعا وخوفاً على أنفسهم من انحياز قد يضر بدينهم، ووقف بعضهم مع الشرعية، وقد أخرج أبو عمر عن أبي هريرة ﷺ قال : إني لمحصور مع عثمان ﷺ في الدار، فرمي رجل منا، فقلت : يا أمير المؤمنين، طاب الضراب، قتلوا منا رجلاً، فقال : عزمت عليك يا أبا هريرة إلا رميت سيفك، فإنما تراد نفس، وسأقي المؤمنين بنفسي.

قال أبو هريرة : فرميت سيفي لا أدري أين هو حتى الساعة.

وكان أبو قتادة من أصحاب الشرعية الذين يضعون أنفسهم درعاً وفداء لها لولا أن منعهم عثمان ﷺ، فالتمسوا منه النصح وهم قد علموا أنه عازم على أن يستقبل الشهادة ولا يكون سبباً في تقاتل المسلمين.

عن أبي سلمة بن عبد الرحمن قال : دخل أبو قتادة ورجل آخر على عثمان ﷺ وهو محصور فاستأذناه في الحج فأذن لهم، فقالا له إن غلب هؤلاء القوم مع من نكون ؟ قال : عليكم بالجماعة، قال : فإن كانت الجماعة هي التي تغلب عليك مع من نكون ؟ قال : فالجماعة حيث كانت.

قال فخرجنا، فاستقبلنا الحسن بن علي ﷺ عند باب الدار داخلاً علـــى عثمـــان ﷺ فرجعنا لنسمع ما يقول : فسلم على عثمان ثم قال : يا أمير المؤمنين، مرني بما شئت، فقال : يا ابن أخي، أرجع وأجلس حتى يأتي الله بأمره.

فخرج وخرجنا عنه، فاستقبلنا ابن عمر -رضي الله عنهما- داخلاً إلى عثمــــان ﷺ، فرجعنا معه لنسمع ما يقول، فسلم على عثمان ﷺ، ثم قال : يا أمير المؤمنين، صحبتُ رسول الله ﷺ فسمعت وأطعت، وصحبتُ أبا بكر ﷺ فسمعت وأطعت، ثم صحبــت عمـــر ﷺ فسمعت وأطعت، ورأيت له حق الوالد وحق الخلافة، وها أنا طوع يديك يا أمير المؤمنــــين، فمرني بما شئت.

فقال عثمان ﷺ، جزاكم الله خيرا يا آل عمر – قالها مرتين – لا حاجة لي في إراقـــة الدم، لا حاجة لي في إراقة الدم.

واستجاب أبو قتادة لنصيحة إمامه الخليفة الثالث فعندما وافته الشهادة وأجمعت الأمـــة على أمير المؤمنين عليٌّ ﷺ، فإنه انحاز إليه، ولما حمل الخليفة السيف حمله معه، ومثلما كـــان فارس النبي ﷺ فإنه كان كذلك فارس خليفته، فشهد مواقع عليّ جميعها حتى وافته منيته وهو على بصيرة من أمره لم تختلط عليه الاحداث، ولم تشتبه أمامه الأمور، حتى لقي ربه وقد بارك الله له في شعره وبشره كما دعا له النبي ﷺ، فكان كأنه ابن خمس عشرة سنة شباباً ووضاءة وطهرا ونقاء، وقد حفظه الله من الفتنة بفضل بركة دعاء النبي ﷺ أن يحفظه.

وكبّر عليه أمير المؤمنين عليٌّ سبعاً وقيل ستا لأنه بدري.





عبد الله بن سهيل وأبوه

لعل من أجدر الأوصاف بعبد الله بن سهيل بن عمرو القرشي العامري أنه البرّ الصبور، وبتعبير أدق الصبور البارّ، وهما وصفان يتضاءلان أمام رتبة الشهيد التي ارتقى إليها في اليمامه، لكنهما صفتان صحبتاه منذ أن انتظم في كتيبة المؤمنين تحت لواء قائد الغر المحجلين ﷺ.

لقد تداخلت قصة عبد الله مع قصة أبيه سهيل، وتداخلت القصتان مع قصة الإسلام وهي أحسن القصص.

وقد اكتسب عبد الله صفتي الصبر والبر من تداخل هذه القصص الثلاث بحيث شكلت نسيجاً لا يمكن فصل لحمته عن سداه.

أبوه سهيل احد أشراف مكة ووجهائها، إذا تكلم سمع لقوله وإذا جلس ففي الصدر وإذا غاب افتقد مكانه، وإذا ألمّ خطب التمس رأيه وإذا كان الشرف في مكة ينال بشرف العشيرة مثل شرف بني هاشم أشرف عشائر العرب، أو يُنال بالقوة وشراسة المنافسة كشرف بني أمية، أو ينال بما توارثه العشيرة من الفروسية والبسالة كشرف بني مخزوم، فإن سهيلاً بلغ ما بلغ من الشرف بصفات خاصة به فطر عليها، منها سماحة خلق تسع جهل الجاهلين وطيش الطائشين وترد سهم المستفز إلى نحره، ومنها حبه الشديد لمكة وحرصه على رفعة شأنها، والتشدد في الحفاظ على أعرافها، ومنها رجاحة في عقله، وصفاء في ذهنه، ومعرفة دقيقة لقدره فلا يرضى بأقل مما يستحق، ولا يتطاول لما يعرف أنه لن يصل إليه.

أشق الأيام

تبدّت هذه الصفة الأخيرة في أحد يومين كانا أشق على رسول الله ﷺ، فقد سألته عائشة – رضي الله عنها – إن كان قد شهد يوماً أشق عليه من أحد، فقال : ما لقيت من عبد ياليل وأخيه أو وأخوته، وهم سادات ثقيف، فعندما خرج إليهم بالطائف وعرض

عليهم الإسلام قال أحدهم :محمد يمرط ثياب الكعبة، أي يقطعها، ولعله يقصد بهدم دين قريش وفي رواية هرّ يقطع ثياب الكعبة إن كان الله قد أرسلك.

وقال أخر : ما وجد الله أحداً يرسله غيرك.

وقال الثالث : والله لا أكلمك أبداً، لئن كنت رسول الله كما تقول لأنت أعظم خطراً من ذلك، وأجل قدراً من أن أرد عليك الكلام ولئن كنت تكذب على الله ما ينبغي لي أن أكلمك.

فقام النبي ﷺ وقد أيس من خير ثقيف، وقال لهم اكتموا عليّ وكره أن يبلغ قومه ذلك فيشتد أمرهم عليه، فقالوا له : اخرج من بلدنا والحق بمنجاتك من الأرض، وأغروا به - أي سلطوا عليه - سفهاءهم وعبيدهم يسبونه ويصيحون به حتى اجتمع عليه الناس وقعدوا له صفين على طريقه، فلما مرّ ﷺ بين الصفين جعل لا يرفع رجليه ولا يضعهما، وكان ﷺ إذا أزلقته الحجارة - أي وجد ألمها - قعد إلى الأرض، فيأخذون بعضديه فيقيمونه، فإذا مشي رجموه وهم يضحكون، وزيد بن حارثة يقيه بنفسه حتى لقد شج شجاجاً، فانطلق النبي ﷺ وهو مهموم على وجهه فلم يستفق إلا بمنطقة قرن الثعالب، وهي منطقة ميقات أهل نجد والحجاز تبعد عن مكة مسير يوم وليلة.

أربعون ليلة مرت على رسول الله ﷺ منذ خرج من مكة إلى الطائف إلى أن أراد دخولها مرة أخرى ووجدهم يمنعونه من دخولها، وقال له زيد بن حارثة : كيف تدخل عليهم وقد أخرجوك، واستنصرت عليهم فلم تنصر ؟ فقال : يا زيد : إن الله جاعل لما ترى فرجا ومخرجا، وإن الله ناصر دينه ومظهر نبيه.

وسار إلى حراء ثم بعث إلى الأخنس بن شريق ليدخل مكة في جواره فقال : أنا حليف، والحليف لا يجير، فأرسل إلى سهيل بن عمرو، فقال : إن بني عامر لا تجير على بني كعب، فبعث إلى المطعم بن عدي فأجاره حتى دخل مكة وطاف بالبيت وأوصله إلى بيته، ولم يغضب النبي ﷺ من سهيل بل كان يحمل له وداً سوف نعرف بعض مظاهره بعد إن شاء الله.

لكنني لا أحب أن نتجاوز هذه الليالي الأربعين من غير أن نتوقف أمامها مستشرفين ومتأملين، ونستميح قارئنا أن لا يعجل علينا فليس هذا موضع العجلة، بل هو موضع النظر والاعتبار، واستنفار مشاعر الامتنان والشكران لنبيٍّ شرع الصبر وعاش به، ودعا إلى الفداء وسلك سبيله، وعمل قبل أن يقول، وقدّم قبل أن يطلب.

أربعون ليلة أعقبت عنتا وشدة أنسياه ما وجد في مكة قبلها.

أربعون قاسى من نهارها هجيراً من أشعة الشمس ورمضاء من رمال الصحراء،

وألاما مبرحة من جراح في الجسم وجراح أشد في القلب، وهما يثقل على الصدر، وقاسى في ليلها وحدة وهواما، ومظنة وحوش وحشرات وفتاكين من البشر، وتحمل فيها جوعاً وعطشاً وإعياء لا يستطيع جسد أن يتحمل مثله، وبعيد يتجهمه، وعدو يملك أن يمنعه من دخول وطنه، ورؤية أهله، حتى يعطف الكافر عليه مثل شعبة وعتبة بني ربيعه فيرسلا إليه قطفاً من عنب بعد أن تحركت فطرة الرحمة في قلبيهما الغارقين في الضلال.

لكن هل هذا كل شئ ؟ إن أربعين يوماً وليلة في صحراء محرقة مهلكة وبين جراح وأحزان ليست بالشيء الهين، ولكنها ليست أعجب ما في الأمر، إن أعجب ما في الأمر أن نبي الصبر والفداء، وخير ولد أدم كافة لا تشغله جراحه وأحزانه، ولا يأبه للهجير والمخاطر، بل كان يشغله أمر واحد فقط هو أن لا يكون الله عز وجل عاضباً عليه، إنه إذا علم أن ربه ليس غاضباً عليه فلن يبالي ولن يخاف " أن لم يكن بك غضب عليّ فلا أبالي.. لك العتبى حتى ترضى، ولا حول ولا قوة إلا بك ".

ثم هو يقول بإيمان العبد الذي أسلم قياده لسيده " يا زيد، إن الله جاعل لما ترى فرجا ومخرجا " ثم يبلغ اليقين أوجه فيقول " إن الله ناصر نبيه ومظهر دينه ".

لا عجب بعد ذلك أن يتنزل عليه جبريل، وتحيط به ملائكة الرحمن تؤنسه وتمسح على جراحه وتقرئه سلام ربه الذي جعله على عينه، وتبشره برضاء ربه وتعلن أنها مكلفة بإيقاع أي عقاب يطلبه على أعدائه وشانئيه، ولكنه ما صنع هذه الصنعة الخاصة لينتصر لنفس، وما كانت حياته ولا موته ولا انتصاره إلا لربه، وكفاه عزاء وقوة أن يعلم أن ربه ليس غاضباً عليه.

أيكون عجيباً بعد ذلك أن يصبر أصحابه، وأن يبذلوا من أنفسهم وقوتهم، وأن يتحملوا مالا تستطيع الجبال أن تتحمله، وقد رأوا في سيدهم المثل ورأوا من سلوكه ما يصدق قوله.

إن سلوكاً إيمانياً في الداعية هو أقوى في الإرشاد والهداية من عشرات المواعظ، وعشرات المواعظ قد لا تؤدي إلى هداية إنسان واحد، ولكن سلوكاً واحدا قد يخرج عشرات البشر من ظلمات الغواية إلى إشراقه الإيمان.

هل بعدنا عن عبد الله بن سهيل ؟ بل هل اقتربنا منه ؟ فما عبد الله وغيره من خير القرون غير أحرف في كتاب اليقين الذي أجلى صفحاته وجلاها سيد الصابرين وإمام الموقنين ورحمة رب العالمين ﷺ، نقول بيقين – نسأل الله تمامه – إننا اقتربنا كثيراً من مكامن الأسوة والعظمة في عبد الله بن سهيل ﷺ.

كان عبد الله أحد السابقين إلى الإسلام، وكان يكتم إيمانه اتقاء من أذى المشركين

أولاً وحرصاً على أن لا يغضب أباه ثانياً، وكان يتحمل جهداً نفسياً كبيراً في سبيل كان، لا يعلم بإسلامه أحد، لكن النور لا تخطئه العين، وأشعته لا بد أن تنفذ فلا تخفى، فعرف أبوه بإسلامه ولكن رد عبد الله كان أسرع من رد فعل أبيه، فجاء على مكة صباح وقد غادرها عبد الله مهاجراً إلى الحبشة لينضم إلى الكتيبة التي سبقته إلى هناك كما سبقته قبل إلى الإسلام، ومنهم جعفر بن عم النبي ﷺ، ورقية ابنته صحبة زوجها عثمان ﷺ وغيرهم كثير.

وبالنسبة للمسلمين فإن الهجرة إلى الحبشة ليست هي الهجرة، وإنما كانت بمثابة دورة تدريبية عليها وذلك لخصوصية نفس الإنسان المكيّ.

إن العرب في جملتهم قوم مهاجرون فإذا تصفحت أنساب العرب في أي مكان في الجزيرة وغيرها فسوف تجدهم قد نزحوا من مكان إلى أخر، وسوف تجد في الطائف أصولاً يمنية وحجازية ونجدية، وسوف نجد مثل ذلك في كل حواضرهم بما فيها مكة، ولكنك لن تجد في أي قرية من هذه القرى من نزح إليها من مكه، مكة وحدها من بين هذه القرى هي أم القرى التي يلوذ بها بنوها ويهاجرون إليها، ويتخذون منها موطناً بديلاً هو أحب إليهم وأغلى عليهم من مواطن الأباء والأجداد.

من ضاقت به سبيل العيش يرتحل إلى مكة ففيها الأسواق والتجارة وخدمة الوافدين حجاجاً وعمّارا.

ومن جف قلبه من الخوف لهوان قومه أو غلبة غيرهم عليهم أو لجرم ارتكبه أوى إلى مكة ففيها حرم أمن والتمس له فيها حلفا.

ومن كبرت ثروته والتمس لها استثمارا أفضل قصد مكة والتحق بقوافلها التي لا تفتأ تقطع الجزيرة إلى الشمال صيفاً وإلى الجنوب شتاءً فثم الربح الوفير و التجارة الرائحة.

ومن غلب عليه نسكه يمم شطر البيت الحرام في مكة حيث مقام إبراهيم وحجر إسماعيل وتلك البناية التي يقسم العرب جميعاً برها مهما تعددت ألهتهم، واتخذوا من شركاء لله.

ولكن أي مكان أفضل من مكة يرتحل إليه أهلها، وأي قدس أطهر منها يطمحون إليه، وأي تراب أكرم يعيشون فوقه ثم يدفنون فيه.

لم تكن الهجرة إلى الحبشة أو غيرها مما يحتمله أهل مكة أو يتحملون غربته، ولكن وطأة القهر والجبروت ألجأتهم إلى مالا تشتهي نفوسهم ولا تتحمل مشاعرهم، فإذا ما نما إليهم في غربتهم نبأ يشتمّون منه أن قبضة الكفار قد خفت وأن أذاهم قلت حدته تراهم يسرعون بالعودة متلهفين كما يعود الطفل إلى حضن أمه بعد طول غياب وحرمان، وما

كانوا ليتركوها لولا أن دينهم أغلى عليهم منها، ونصرته أكبر حرمة وأشد تفضيلا.

بعد خروج المسلمين من الشعب ونقض الصحيفة، وانقسام المكيين حولهـا ظـن المهاجرون في الحبشة أن الحياة في مكة أصبحت محتملة فعادوا سراعاً ومنهم عبد الله بـن سهيل، لكن اكتشفوا أن المكيين وإن اختلفوا على أمر الصحيفة فما زالوا مجمعين علـى حرب المسلمين، عازمين على فتنتهم، فلم يكد عبد الله يعود حتى راوده أبوه على الكفـر فلم يستجب له فأمر بأن يوضع في القيود ولا يخرج من البيت وأن لا يقابل أحـدا مـن المسلمين حتى يرجع عما دخل فيه ويعود إلى دين آبائه وأجداده، وانتظر عبد الله أن تخف سطوة أبيه عنه ولكن طال انتظاره و لم يجد أبوه قيد شعرة أو أنملة عن وضع القيود في يد ابنه أو رجله إلا أن يعود إلى ما كان عليه، ويعلن نبذه للإسلام الذي هدى إليه، ولمـا لم يجد عبد الله مفراً فقد أظهر لأبيه أنه خضع له واستجاب لإرادته فخفف عنه قيـوده، وإن لم تخف رقابته عليه حتى لا يكون في الأمر خدعة. لم يكن حرص سهيل - فيما نـرى - على إرجاع ابنه عن الإسلام نابعاً من كراهيته للإسلام، ولا خوفه منه، ولا خشيته مـن شياع مكاسب تعطيها له أنساق الجاهلية ونظمها.

لم تكن عشيرة سهيل من أشرف العشائر، وقد تجلى ذلك في أنه لم يستطع أن يجير النبي ﷺ إبان رجوعه من الطائف، وقال لرسوله : إنه يعلم أن عامر لا تجير على كعـب، وتفهم النبي ﷺ موقفه، و لم يغضب منه، وبقي يحمل له الود.

إن كافراً مثل أبي جهل، أو مثل الوليد بن المغيرة ينطلق كل منهما في عدائه للإسلام من منطلق الحرص على المكاسب، والخوف من ضياع السيادة والشرف، حيث يسـوي الإسلام بين السيد والعبد، والشريف والوضيع، والقوي والوضيع، من حيـث المسئولية والحقوق والواجبات، لكنه وضع مقياساً للتفاضل يستطيع أن يبلغه كل من ينضوي تحت أي مسمى من تلك المسميات، وهذا المقياس هو التقوى، فإذا عمرت قلـب شريـف في النسب عظيم في الجاه، فهو من أفضل الناس وأكرمهم عند الله، وإذا ضيعـها الشريـف وكسبها المستضعف فهو الأكرم والأعز عند الله، وليس للشريف الذي ضيع دينه شـرف ولا قيمة بل هو عند الله أهون من الذر، ويحشر يوم القيامة في حجمـها يطـؤه النـاس بأقدامهم يوماً طوله خمسون ألف سنة حتى يفرغ للحساب رب العالمين: ﴿ سَنَفْرُغُ لَكُـمْ أَيُّهَا الثَّقَلانِ ﴾ (الرحمن ٣١).

و لم يكن سهيل منافساً على الرئاسة والزعامة في مكة يرى في بني هاشم عائقاً يحول بينه وبين تحقيق طموحه - مثل أبي جهل - فهو يستميت في مقاومة أشخاص بني هاشم، لأن محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم ﷺ إذا استطاع أن يقنع الناس بدعوته فقد تقلد الشرف الذي حسب أبو جهل أنه قاب قوسين منه، وتدبرّ في قوله للأخنـس بـن

شريق حين سأله عن رأيه فيما يسمع من محمد وهو يتسلل خلسة في الليل ليسمع القرآن الكريم، هو والأخنس وأبو سفيان وكل منهم يحسب أن أحدا لا يراه حتى يفاجأ كل منهم أنه أمام صاحبه، وأخيراً تعاهدوا على عدم العودة حتى لا يفتنوا بهذا البيان المعجز الذي له طلاوة وعليه حلاوة، فأخذ الأخنس عصاه وكلم أبا سفيان ثم ذهب إلى أبي جهل يستطلع رأيه فيما يسمع فخرجت كلمات عدو الله ترشح بالضغينة وتنـــز بــالحقد وتتدثــر بالمكابرة (وماذا سمعت، الأمر أننا تنافسنا نحن وبنو هاشم حملــوا فحملنــا، وأطعمــوا فأطعمنا، حتى تساوت الأقدام وصرنا كفرسي رهان قالوا منا نبي يأتيه الوحي من السماء، فأين منا ذلك النبي؟)

كل هؤلاء كانوا أعداء للنبي ﷺ ولدعوته : سهيل بن عمرو، وعتبة بــن ربيعــة، والأخنس بن شريق، وأبو سفيان بن حرب، وأبو جهل عمرو بن هشام، والمطعـــم بــن عدي، لكن منظور العداوة يختلف عند كل واحد منهم عن الآخر.

شيئان يجمعان بينهم.

الشيء الأول : أنهم عرب تأسرهم الكلمة، ويستولي على ألبابهم سحر البيان، و لم يسمعوا في لغتهم بياناً معجزا كالذي استمعوه من القرآن الكريم، وبتلاوة مــن تنــزل عليه، وأمر بتبليغه ﷺ، فهم على فصاحتهم – وكلــهم فصيــح خطيــب – كــانوا لا يستطيعون مقاومة سحر هذا البيان الإلهي، فيتسللون في جنح الظــلام لكــي يســتمتعوا بالإنصات له.

الشيء الثاني : أنهم كانوا أعداء له، وإن كان في الظاهر يبدو كأن العداوة واحــدة، إلا إنها كانت مختلفة في النوع والدرجة، ومواقفهم في مواجهة الدعوة تبين عمق الاختلاف بينهم.

فسهيل بن عمرو، والأخنس بن شريق، وغيرهما كثير من وجهاء مكــة لم تكــن عداوتهم للنبي ﷺ لا لدينه، وإنما هي عداوة الخروج على التقاليد المستقرة لأهــل مكــة، وهذا التقلي – في نظر هؤلاء – هي التي أعطت لمكة مكانتها المتميزة ين القرى، ووهبت لأهل مكة شرفاً على كل القبائل في الجزيرة.

وأبو سفيان رجل محب للزعامة والفخر، وهذه الدعوة أبعدته عن أن ينافس علــى هذه الزعامة، لكنه يمكن أن يتنازل عن هذه الزعامة إذا أعطي ما يعوضه عنها، وقد أقنعه يوم الفتح (من دخل دار أبي سفيان فهو آمن) فترك الجاهلية وعــاد إلى مكــة مبشــراً بالإسلام مخذلاً عن مقاومته، وكان ذلك مساهمة كبرى في أن لا يحارب النبي ﷺ في الحرم الآمن، مع أن الله عز وجل أحله له في هذا اليوم.

أما عتبة بني ربيعة فإن قدره الذي وضعه في بؤرة الزعامة في مكة وتحت عـين أبي جهل أدى إلى فقدانه رأيه وضياع عقله، وظل في ضياعه حتى أصابته قارعة الموت في بدر.

وأما المطعم بن عدي فقد كان رجلاً يحب مكارم الأخلاق فأسرع يجير النـبي ﷺ حين عاد من الطائف، ولكنه أبطأ عن الإسلام وكان أجله أسرع منه.

أما أبو فكان جاهلياً خالصاً يحمل الحقد للنبي ﷺ والعداوة لله تعالى، والخصومـة للإسلام، ولذلك حين دخل النبي ﷺ من الطائف، كان أبو جهل هو أول من تكلم فقال ساخراً، هذا نبيكم يا بني عبد مناف، فقال عتبة بن ربيعة، وما تنكر أن يكون منـا نـبي وملك ؟ فأتاهم النبي ﷺ وقال : أما أنت يا عتبة فما حميت لله وإنما حميت لنفسك، وأما أنت يا أبا جهل فو الله لا يأتي عليك غير بعيد حتى تضحك قليلاً وتبكي كثيراً، وأما أنتم يا معشر قريش فو الله لا يأتي عليكم غير كثير حتى تدخلوا فيما تنكرون، وأنتم كارهون.

وظل النبي ﷺ يذكر لمطعم بن عدي موقفه منه إذ أصبح فلبس سلاحه هو وابناؤه وبنو أخيه، فدخلوا المسجد حول النبي ﷺ حتى طاف بالكعبة وأوصلوه إلى بيته ليعلم أهل مكة أنه في جواره فلا يتعرضون له بأذى وكان أبو جهل هو الذي سأل المطعم : أمجير أم متابع ؟

فقال المطعم : بل مجير.

فقال أبو جهل : أجرنا من أجرت.

ولم يكن أبو جهل يملك إلا أن يقول ذلك وإلا ألّب عليه أهل مكة كلـهم إذ أن عهدهم أن من يجير منهم أحدا يلزم الجميع أن لا يتعرضوا له بأذى.

ظل النبي ﷺ يذكر هذه اليد لمطعم، ولذلك عندما رجع المسلمون من بدر ومعهم سبعون أسيرا من مقاتليها ووجهائها، قال النبي ﷺ : لو كان المطعم حيّا لتركت له هؤلاء النتنى.

وقال حسان بن ثابت يذكر موقف المطعم

فلو كان مجدٌ يخلـد الدهـر واحـدا	من الناس أبقى مجده اليوم مطعمـا
أجرت رسول الله منـهم فـأصبحوا	عبيدك مـا لـبى مُـهلٌ وأحرمـا
فلو سـئلت عنـه معـد بأسـرها	وقحطان أو بـاقي بقيـة جرهمـا
لقالوا هـو الموفي بخفـرة جـاره	وذمتـه يومـاً إذا مـا تذممـا
فما تطلع الشمـس المنـيرة فوقـهم	على مثلـه فيـهم أعـز وأعظمـا
وأبي إذا يـأبى وأعظـم شيمـة	وأنوم عن جار إذا الليـل أظلمـا

والمتأمل في قصيدة حسان يرى أنها تمثل الشعور الإسلامي في الاعتراف بـالجميل

وإن كان سابقاً، فقد قيلت في المدينة المنورة، وبعد هجرة النبي ﷺ، وهجرة أصحابه إليها، وإسلام أهل المدينة، وقد علت كلمة الله، وقويت شوكة المسلمين فأصبحوا لا يالون بالمطعم ولا بغيره، ولكنهم أرادوا أن يكافئوه على إجارته نبيهم ﷺ في يوم عسرة وشدة.

وإذا أردنا أن نضع سهيل بن عمر، هل نضعه في صف أبي جهل أم في صف المطعم بن عدي.

إن الفرق شاسع بين مشرب أبي جهل القاسي العنيد الذي رانت الحجب الكثيفة على قلبه، وطمست الغشاوة عينه، وختم الله قلبه المريض وزاده مرضا فأصبح مركزا للعداوة والبغضاء، وبين مشرب سهيل الذي يلين خلقه بالسهولة ويفيض قلبه بالإنسانية على رغم الغمرة التي ما زال فيها ولكنها لم تستطع أن تخفي ينبوع الخير فيه، ولذلك قصده النبي ﷺ بالجوار قبل المطعم ولكنه يعرف قدر الأحلاف في سلم التقاليد المكية، وعدم السماح لهم بأن يجيروا على الأصلاء.

كان سهيل بن عمرو رجلاً عصامياً بنى شرفه بأخلاقه لا بعشيرته، وبلغ ما بلغ من المكانة برجاحة عقله، وسداد رأيه لا بوراثة عن أبيه أو أمه، وهو حريص على أن تبقى له هذه المكانة، وأن يورث أبناءه ذلك الشرف، فعندما يأتي أكبر أبنائه وأقربهم إلى نفسه، ومن كان يعزم ويطمح أن يرث مقعده بين وجهاء مكة فيخرج على تقاليد قريش ويناصبها العداء، فإن هذه تحسب على سهيل قد تهدم كثيراً مما حُسب له.

إن سهيلا حريص على أن لا يضيع جهده سدى، وهو أشد حرصاً على أن ينتفع ابنه عبد الله بهذا الجهد، وهو يستميت في أنه يصل إلى ما يريد، ولو كان في ذلك إضرار بوله، وتعذيب له، وليس ذلك سهلاً على نفسه ومشاعره الرهيفة، والرهافة قد تنقلب إلى قسوة شرسة إذا كان الحب دافعها، وما أكثر حب سهيل لابنه عبد الله، وما أشد قسوته عليه، حتى ليكاد يصدق عليه المثل القائل ومن الحب ما قتل.

لكن عبد الله ﷺ لم يشأ أن يصل حب أبيه له محيط القتل، ونقول ونحن نعي ما نقول إنه لم يشأ، فعبد الله لم يكن جباناً، ولم تكن نفسه أعز عليه من دينه، فهو يبذلها رخيصة إن كان في بذلها نصرة للحق الذي يدين به، وقد فعل عندما كان في موته حياة لدينه، لكنه يضن بها إذا كان في الإباء عليها نصرة لدينه.

يعرف عبد الله ما يجول في تفكير أبيه، ويرى أنه ليس أمامه إلا خيار من ثلاثة، أما أولها فهو أن يبقى مصراً على إسلامه معلنا ذلك لأبيه ولن يسلم حينئذ من الأذى ولو وصل به إلى الموت، وهذا لي يريح قلب أبيه وإنما سيورثه حزناً عميقاً قد يؤدي به إلى العطب، وعبد الله لا يريد لأبيه العطب لأن ما يحمله له من الحب، وما يرجو من المثوبة على بره يأبى عليه أن يورده موارد الهلكة.

وأما ثانيها فهو أن يفرّ منه إلى المسلمين، ومن ثم يخرج من مكة هائماً على وجهه أو أن يعود إلى الحبشة حيث لم يؤمر المسلمون بعد الهجرة إلى المدينة.

وهذا الاختيار محفوف بالمخاطر، فقد يكون من عواقبه أن يظفر به بعض شياطين مكة فتقتلوه، وحينئذ يفقد المسلمون فردا منهم وهم في قلة من العدد وفقدان واحد منهم لمجرد هروبه يعتبر خسارة يربأ عبد الله أن يُمنى بها المسلمون.

بقي الخيار الثالث، ويتمثل في أن ينزل عبد الله على رأي أبيه فيعود إلى الكفر، وعندئذ يكون قد بّر به أعظم البر وأراح قلبه وأسعده، وحفظ له كرامته بين زعماء مكة، وأبقى له قدره فيهم، لكن هذا البر لا يؤدي به إلى رضوان الله بل إنه سيعرضه لسخطه ﴿ وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ (لقمان ١٥).

فالبر والمصاحبة بالمعروف مشروطان بشرط سبقهما، وبشرط أعقبهما، أما الشرط الذي تقدم فهو عدم طاعتهما في معصية الله عز وجل مهما بذلوا من الجهد في سبيل ذلك، وأما الشرط الذي أعقب فهو أتباع سبيل المنيبين إلى الله عز وجل.

إنها خيارات أحلاها مر، ولكنه ابتلاء من الله عز وجل لعبده الذي أخلص له وأناب إليه أن يحاول حل هذا المعادلة الصعبة فيبر أباه ويحسن صحبته ويتبع سبيل المؤمنين، وتبقى لأبيه مكانته التي ربما ينتفع بها الإسلام بعد وقد حدث كما سوف نرى ذلك.

وقد ألهم عبد الله حل المعادلة بالجمع بين خيارين، فقد أعلن لأبيه أنه رجع عن الإسلام، وقرر أن يكتم إسلامه كتماناً لا يستطيع أحد أن يكشفه، وكفاه أن الله عز وجل خبير به، عليم بالدوافع التي أدت به إلى هذا الخيار.

قطع عبد الله - فيما بدا منه - كل صلة بالمسلمين، وانتظم في مجلس أبيه ولداً باراً مطيعاً، يشير عليه، ويأتمر بأمره، ويقوم مقامه، وينهض بما هو مطلوب من الابن الكبير الأريب الذي يألفه أبوه ويألفه الآخرون، والذي يعده أبوه ليخلفه في مقامه.

اقر النبي ﷺ خيار التقية الذي سلكه عبد الله بن سهيل ما دامت نفسه الكبيرة تستطيع أن تتحمله، وصبره الجميل يمكنه أن يخفي إيمانه عن عين أبيه وعين المشركين التي ما تفتأ تترصده وتتلصص عليه لتنفذ إلى خبيئته.

وهذه هي التقية في صورتها الصادقة والتي تعني إظهار الكفر وإبطان الإسلام إذا كان ذلك لصالح الإسلام أو لصالح المسلم، وهي نقيض للنفاق الذي يدور معناه حول إضمار الكفر وإظهار الإسلام، أو إضمار الخلاف وإظهار الموافقة، وقد خلط الناس كثيراً بين التقية والنفاق، ولكن الذين خلطوا هم من الذين يدركون الفرق بينهما، ولكنهم

يخفون هذه المعرفة كنوع أخر من أنواع النفاق.

دامت تقية عبد الله بضع سنين، شرعت فيها الهجرة إلى المدينة المنورة، وهاجر إليها المسلمون الذين يعلنون إسلامهم، وهاجر النبي ﷺ، وبدأت المواجهة بين المسلمين والمشركين، وسرايا النبي ﷺ تترى وتصل أنباؤها مسامع عبد الله فرأى أنه قد ابر أباه بما يكفي وصحبه بالمعروف ما دامت الصحبة لم تؤثر على ديانته التي يحسبها له ربه، ولكن المسلمين يجاهدون ويتعرضون للموت، فوجب الجهاد على المسلم وما ينبغي لمسلم أن تغيب عنه هذه الفريضة أو أن يغيب عنها إنها نقطة التقاطع في معادلته، ومحل الصدق في إيمانه، فلا بد من وسيلة تلحقه بكتيبة المسلمين وإلا كان من القاعدين.

بينما يقلب عبد الله أمره في عقله، وبينما يؤلمه أشد الألم أن يكون في موقعة هذا والمسلمون يجاهدون جاء رسول أبي سفيان يخبرهم بجمع النبي ﷺ للقافلة في بدر، فكانت حمية الجاهلية التي دفعت بقريش إلى الخروج لملاقاة المسلمين في بدر أو الإقامة بها ليالي كنوع من استعراض القوة، يرهبون به المسلمين ويطلعون العرب جميعاً على قوتهم وفرار المسلمين من أمامهم، ولم يكن سهيل ممن يرغبون في مواجهة المسلمين ولكنه أحد أشراف مكة وما يكون له أن يختلف عن حمايتها وإظهار قوتها ليتعزز قدرهم في نفوس العرب.

خرج سهيل بأبنائه لمشاركة قومه في مواجهة المسلمين، وكان ابنه عبد الله صاحب مئونته، كأنما يقول لقريش هذا هو ابني المسئول عن إعالتنا وتدبير معاشنا، لقد أصبح سيداً، وعليكم أن تقروا له بالسيادة، لكن زهو سهيل لم يدم طويلاً إذ ما كاد عبد الله يرى جيش المسلمين حتى فر إليهم تاركاً أباه وقد دارت به الأرض حين رأي ابنه يهدم كل ما بناه من مجد، ووضح له مدى الخديعة التي تعرض لها من أعز أبنائه على نفسه، ولم يغن عنه ذبح عشر جمال لجيش الكفر إذ أن ما حصله من شرف بهذا الذبح أذهبه – في منطق الكفر – فرار ابنه إلى المسلمين، فأظهر غفلته وقله فطنته.

غضب سهيل غضباً شديداً حين أسفر عبد الله عن وجهه الكريم، وأظهر حقيقة إيمانه، وأنه لم يحد عنه منذ خالطت قلبه بشاشته وعبّر سهيل عن غضبه بقدر هائل من السباب والقول الساقط ثم بدعوته لابنه أن يبارزه، ثم بإصراره على أن يظفر به ليقدمه قرباناً للكفر والضلال، غير أن عبد الله كان يحجم من الرد على سباب أبيه، كما :كان يبتعد عنه في القتال حتى لا يصيبه أملا في هدايته، وبراً به، ومصاحبة بالمعروف ومصابرة لنفسه عليه، وكلها أعمال تثقل الميزان، وهذا ما يرنو إليه عند قيام الناس لرب العالمين.

وانجلى يوم بدر على أعز يوم للإسلام، وإن كان بعده يتدرج في مراقي العزة، فقد أنجز الله وعده وأعز جنده، ونصر عبده وأصحابه المؤمنين، وواری القليب شياطين مكة ومنهم أبو جهل وعتبة وشيبة ابنا ربيعة والوليد بن عتبة وأمية بن خلف، ووقع في الأسر ما

بقي من أشرافهم حيّاً ومنهم سهيل بن عمرو، ورفق النبي ﷺ بالأسرى فقبل منهم الفداء ولم يقتل منهم غير رجلين بلغا ذروة الضلال والعداوة هما عقبة بن أبي معيط والنضر بن الحارث الذي لم يشفع للنبي ﷺ عنده أواصر القرابة والدم فكان يشكك الناس في صدقه ويقص عليهم أساطير الفرس والروم ويسمي القرآن أساطير الأولين، ورثته أخته قتيلة بنت الحارث بشعر مؤثر قالت فيه

يا راكباً إن الأثيل مظنة ... من صبح خامسة وأنت موفق
أبلغ بها ميتاً بأن تحية ... ما إن تزال بها النجائب تخفق
مني إليك وعبرة مسفوكة ... جادت بواكفها وأخرى تخنق
هل يسمعني النضر إن ناديته ... أم كيف يسمع ميت لا ينفق؟
أمحمد يا خير ضنّ كريمة ... في قومها والفحل فحل معرق
ما كان ضرك لو مننت وربما ... منّ الفتى وهو المغيظ المحنق
أو كنت قابل فدية فلنفده ... بأعز ما يغلو به ما ينفق
فالنضر أقرب من أسرت قرابه ... وأحقهم إن كان عتق يعتق
ظلت سيوف بني أبيه تنوشه ... لله أرحام هناك تشقق
صبرا يقاد إلى المنية متعباً ... رسف المقيّد وهو عان موثق

ولما قدم المسلمون بالأسرى إلى المدينة، ورأتهم أم المؤمنين سودة بنت زمعه، وعجبت أن يكون فيهم سهيل بن عمرو فقالت له : أعطيتم بأيديكم كما تفعل النساء، ألا متم كراماً ؟ فقال لها النبي ﷺ يا سودة، أعلى الله ورسوله تحرضين ؟ فقالت : يا رسول الله، ما ملكت نفسي حين رأيت أبا يزيد (سهيل بن عمر) يرسف في قيوده أن قلت ما قلت.

وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه، يا رسول الله، دعني أنزع ثنيتي سهيل ابن عمرو فلا يقوم خطيبا عليك أبدا النبي ﷺ فقال النبي ﷺ : دعه يا عمر، فلعله أن يقوم مقاماً تحمده عليه، وكان له ذلك المقام على ما سوف نذكره في هذا الصفحات، وكانت قوله عمر رضي الله عنه لفصاحة سهيل وبراعته في الخطابة، وكانت بعض خطبه تناهض الإسلام، وقد سئل سعيد بن المسيب عن خطباء العرب في الجاهلية فذكر الأسود بن المطلب وسهيل بن عمرو.

وقدم مكرز بن حفص في فداء سهيل، ولما فاوض حتى بلغت الفدية قدرا وافق عليه سهيل أن وضعت رجل مكرز في قيود الأسر، وأخلي سبيل سهيل الذي دبّر في مكة قيمة الفدية ثم أداها وأخلى سراح ضامنه مكرز بن حفص.

كان سهيل قد خرج من مكة عزيزاً بأبنائه وثروته وفصاحته ووجاهته ولكنه رجع

إلى مكة أسيراً كاد يقتل أو تكسّر أسنانه، ما زالت آثار القيود تذكره بأسوء يوم مر عليه في حياته، فخسر أبنه وخضعت رأسه، وخرس لسانه، لكن عقله كان يمور بجدال هو أشد فصاحة وأكثر إقناعاً، إن ما رآه من المسلمين في بدر وهو يعرف الكثير منهم لم يشهده في حروب العرب وما أكثر خوضه لغمارها، إنهم يسمعون الكلمة من رسول الله ﷺ تبشر من يقاتل أهل مكة ويقتلونه بجنة فيها مالا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، فإذا هم يندفعون حريصين على الموت وكأنهم يرون هذه الجنة رأي العين.

والأعجب من الروح التي تدفع هؤلاء إلى الموت التماساً لبشري قائدهم فإن سهيلاً رأي بعينه رجالاً على خيل بلق يثبتون المسلمين ويكثرون عددهم ويقتلون من حزب سهيل ويأسرون، وكان قد سمع وهو أسير في أيدي المسلمين بأن هؤلاء هم الملائكة، أيكون محمد على حق؟ أيكون كلامه صدقاً وحقاً، وأن الله رب الكعبة يؤازره وهو الذي بالفعل نصره.

أما عبد الله إنسان العين وحبة القلب، فما أشجعه وأبّره، إنه الأسد الجصور إقداماً وقوة، ولكنه الابن الرحيم الذي رأى عقوق أبيه فقابل هذا العقوق بإحسان وتجاوز.

لقد خرج عبد الله عليه، وأخلف ظنه فيه، لكنه يراه في معسكره هذا أقرب إلى طبيعته، لقد تجلت قدراته وعاد إليه صفاؤه وسلامة النفس، ويشرق قلب سهيل بابتسامة حانية ودود، إنه بنى مجده بيده في مكة وعبد الله قادر على ان يبني مجده في المدينة.

* * *

يلفت النظر أن النبي ﷺ لم تبد منه كراهية لسهيل بن عمرو على عداوته للإسلام، وخطبه في مناهضته، وخروجه لقتاله، وإذا اشتاق لماء زمزم أرسل إليه فحمل سهيل على ركائبه وأرسل الماء وما يتبعه من طرف وهدايا للنبي ﷺ، وقد اطمأنت نفسه كثيراً في يوم الحديبية حين رأي سهيلاً يأتي لمفاوضته وقال لأصحابه : سُهل أمركم، ولكن يوم الحديبية يحتاج لوقفة أكبر من مجرد المرور عليه.

إلى الحديبية

الحديبية تصغير كلمة حدباء، والمحدثون يشددون الياء، وهي أسم لبئر أو شجرة، أو قرية قريبة من مكة أكثرها في الحرم، ولكن هذا الاسم له في الإسلام بهاء، ولأصحابه على الناس درجات، وليومه في تاريخ الإسلام مكان، فهو النصر والفتح، وهو الصبر والتسامح، وهو الثقة في وعد الله، والتوكل عليه، واللجوء إليه.

وسببها أن النبي ﷺ رأى في النوم أنه دخل مكة هو وأصحابه أمنين محلقين رءوسهم ومقصرين، أي أن بعضهم محلق وبعضهم مقصر، وأنه دخل البيت، وأخذ

مفتاحه، وطاف هو وأصحابه، واعتمرو أخبر أصحابه ففرحوا بالرؤيا، ثم أبدى لهم أنه يريد الخروج للعمرة، وأراد أن يستنفر أهل البوادي والأعراب ممن أسلم حتى إذا رأي المشركون كثرتهم كفوا عنه فاعتمر تصديقاً لرؤياه، ولكنهم تخاذلوا وأبطأ كثير منهم وتثاقلوا قائلين أنذهب إلى قوم قد غزوه في عقر داره بالمدينة وقتلوا أصحابه ؟ أنذهب لهؤلاء فنقاتلهم، فاعتلوا بأنهم مشغولون بأموالهم وأهليم، وليس لهم من يقوم بذلك عنهم،فأنزل الله يكذبهم في اعتذارهم ﴿ يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ ﴾ (الفتح ١١).

وساق معه سبعين بدنة للهدى فأشعرها وقلدها وولى عليها ذكوان بن جندب الذي غير اسمه بعد ذلك فسماه ناجية، على ما سوف يأتي بيانه وأشعر المسلمون هديهم كما فعل، فخرجوا نحو سبعمائه معتمر مجاهد بائع نفسه لله.

تعامل المتثاقلون مع الحدث من منطلق الواقع المادي الذي تتلخص مفرداته في العبادات التالية.

- عداوة مستحكمة بين المدينة ومكة، سببها الصراع الخالد بين الغواية والرشد، والظلمات والنور، وحزب الرحمن وحزب الشيطان.

- أدت هذه العداوة إلى حروب متتالية بينهما، وغارات متبادلة يتم فيها سلب وقتل، وثارات هنا وهناك.

- على الرغم من انتصارات المسلمين المتلاحقة في هذه الغزوات فلم تزل قريش وحلفاؤها - في نظر الماديين - هي القوة الضاربة في الجزيرة، وهي بحكم زعامتها الدينية - هي العدو الرئيسي للإسلام وأهله، بالإضافة إلى الخصومات الخاصة التي يحملها كثير من زعمائها للنبي ﷺ، وهي دوافع تحتم المواجهة إذا تراءت الفئتان، والتقى الحزبان.

- في ظل هذه الظروف فإن الخروج إلى مكة لن يترتب عليه - بالضرورة غير الحرب، وفي هذه الحالة فإن ميزات قريش لن تخفى على أي محترف للحروب حيث العدد والعدة والمنعة، وحماية البيت والممتلكات، واستنفار الأحلاف المجاورين وهم قوى لها الجزيرة كلها.

أما المسلمون فقد كان لهم حساب يختلف في النوع والدرجة، تتلخص مفرداته في العبارات التالية.

- ﴿ قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ... ﴾ (آل عمران ٣١).
- ﴿ مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ ﴾ (النساء ٨٠).
- ﴿ إلا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ ﴾ (التوبة ٤٠).
- ﴿ إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أقدامكم﴾ (محمد ٧).

- ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَى ۝ إِنْ هُوَ إِلا وَحْيٌ يُوحَى ﴾ (النجم ٣-٤).

فرح المسلمون حين أمروا بالخروج، ليس لأنهم سيطوفون حول الكعبة، فالكعبة في قلوبهم.. إن المسجد الحق في قلب المسلم.. وقد أخذ عثمان ﷺ إلى الكعبة ليطوف، فأبى.. على ما سوف نجده فيما بعد.

وليس لأنهم سيعتمرون، والعمرة من مكفرات الذنوب.

وليس لأنهم سيقاتلون أعداءهم، فالقتال في حد ذاته لم يكن هدفاً للمسلم وقد نُهوا أن يتمنوا لقاء العدو، ولكنهم أمروا أن يثبتوا إذا فرض القتال عليهم.

كان فرح المسلمين لأن النبي ﷺ أمرهم بالخروج، والاستجابة لأمره تدخل الفرح إلى قلوبهم لأنه لا يأمرهم إلا لما فيه صلاحهم.

أما أن تكون مواجهة أولاً تكون، أن يكونوا قليلاً وعدوهم كثير، أن تكون أسلحتهم سيوفاً في قرابها، أولاً تكون سيوف، فإن اليقين الذي في قلوبهم والثقة التي تملؤها تجعلهم يتركون ذلك لله وحده الذي رمي عنهم في بدر وخذّل عنهم بالرعب في أحد، وبعث جند الرياح تشتت الأحزاب في الخندق وما يوم الخندق منهم ببعيد.

قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه للنبي ﷺ، ألا تخشى يا رسول الله قريشا ولم تأخذ للحرب عدتها ؟ فأجابه بما أفاض جداول اليقين والأمن في النفوس : لست أحب أن أحمل السلاح معتمراً.

وثم رافد أخر لليقين يتجلى في أقدس صورة وأضوئها حين بلغ قريشا خبر خروج النبي ﷺ إليهم، وإن كانت عيونهم قد نقلوا إليهم أنه خرج للعمرة لكن دافع الشر عندهم أولها بأنها خديعة وأن الجيش لابد سيتبعه مستخفياً ليأخذ قريشا على غرة، وحيث إن الحرب خدعة ومكيدة فقد أرسلت قريش مائتي فارس تحت إمرة خالد بن الوليد يترصد للمسلمين فيأخذهم على غرة قبل وصول جيشهم، وتأهبت مكة لاستقبال المسلمين.

جاء بشر بن سفيان العتكي، وقد كان النبي ﷺ أرسله إلى مكة عيناً له، فاستقبله في عسفان قريباً من الحديبية، وقال : يا رسول الله هذه قريش قد سمعت بخروجك واستنفروا من أطاعهم من الأحابيش وأجلبت معهم ثقيفا، ومعهم النساء والصبيان، وقد لبسوا جلود النمر وقد نزلوا بذي طوى يعاهدون الله أن لا تدخلها عليهم عنوة.

ثم يضيف بشر، وقدموا خيولهم ومعهم خالد بن الوليد، فهم ينتظرونك خلف هذه الأكمة.

خرج خالد بأشد أسلحة الحرب فتكاً - حينئذ - واتخذ الموقع الاستراتيجي الذي يمكنه من الهجوم المباغت في ضربة وقائية قبل دخول المسلمين إلى محيط الحرم.

يواجه المسلمون قوة قريشا بالسيوف في قرابها، وبوعثاء السفر، وبغتة المفاجأة.

أليس ثم سلاح أخر ؟

بلى، ثم سلاح لا، حاملة لا يهن، ولا يحزن، وكيف يهن ويحزن من هو الأعلى ﴿ فَلا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ وَأَنْتُمُ الأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ وَلَنْ يَتِرَكُمْ أَعْمَالَكُمْ ﴾ (محمد ٣٥).

عندما أصبح المسلمون في مواجهة خالد، أمر النبي ﷺ بلالاً فأذن لصلاة الظهر، ثم صف المسلمين خلفه ودخل في دائرة القرب من الرقيب المجيب، هتف.. الله أكبر، ودخلوا في الصلاة، وركع وسجد، فقال المشركون : لقد أمكنكم محمد وأصحابه من ظهورهم، هلا شددتم عليهم ؟ فقال خالد أميرهم : تأخروا، وانطلق عائداً إلى مكة كأنما يفر من أحد يطارده.

شكاه جنده إلى سادتهم وكبرائهم الذين أضلوهم السبيل، فساءلوه عن إحجامه فقال : أكره أن أضرب أحد في ظهره وأنا قادر على قتله في صدره، وبعد أن أسلم ورد عنه أنه قال : عندما سمعت كلمة الله أكبر فقد انخلع قلبي، وملأه الخوف وهو الذمي ألف أن يخيف، وعندما سجدوا تمكن الرعب مني فلم أجد إلا الفرار سبيلا.

استخدم النبي ﷺ سلاح الصلاة، وهو سلاح لا يصدأ بريقه، ولا تنكسر حدته ولا تخطئ رميته، ولا يبلى جديده، وهو سلاح مكن الله المسلمين منه وأمرهم باستعماله ﴿ وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلا عَلَى الْخَاشِعِينَ ۞ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلاقُو رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴾ (البقرة ٤٥-٤٦).

قد ينبري من يقول : كأنك تقلل من شأن القوة المادية ؟

وأنبرى له فأقول : ولم لا ؟ لكنني أكمل أجابتي فأقول :

إن القوة المادية سلاح، والصلاة سلاح، والصبر سلاح، ونصر الله في إصلاح النفس سلاح، والزلفى إلى الله تعالى بفعل الطاعات واجتناب المحرمات سلاح، ومنا شدة الله نصرة سلاح، واليقين بأن الله حسب المؤمن ونعم الوكيل سلاح، فكم تكون نسبة سلاح واحد بين مجموع أسلحة شتى ؟

وقد ينبري هذا المجادل أو غيره فيقول : هذا الكلام يدعو إلى نبذ القوة المادية التي تعارف الناس على أنها تحقق النصر.

وهذا منطق غير سليم فقد أمر الله تعالى بإعداد القوة حين قال ﴿ وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ ﴾ (الأنفال ٦٠) وتنكير القوة يعني تعددها فكل ما هو قوة للمسلم يجب عليه أن يعده مادية أو روحية، فكيف ننبذ عنصرا من عناصر القوة أمرنا الله تعالى بإعداده لمواجهة العدو.

إن الخلل يأتي من قصر القوة على عنصر واحد، ويكون الخلل أشد إذا كان هـــذا العنصر هو أدناها حيث جاء الأمر به مع غيره في آية واحدة،بينما حفلت آيات القـــرآن الكريم بالحث على الأوامر الأخرى أو العناصر الأخرى مما يعطيها مكانة أفضل.

وفي مواجهة قوة خالد، فإن النبي ﷺ قد استنجد بكل عناصر القوة بما فيها الخوف مع الحذر فأعطى كل عنصر قيمته.

ثم اتجه النبي ﷺ إلى الناس فقال : اشيروا عليّ أيها الناس، أتريدون أن نؤم البيـــت فمن صدنا عنه قاتلناه، فقال أبو بكر ﷺ، يا رسول الله، خرجت عامداً لهـــذا البيـــت لا تريد قتل أحد ولا حرباً، فتوجه له فمن صدنا عنه قاتلناه.

وتكلم أصحابه مثل ذلك، قال : امضوا على اسم الله.

ثم قال : يا ويح قريش نهكتهم الحرب، ماذا عليهم لو خلوا بيني وبين سائر العرب، فإن هم أصابوني كان ذلك الذي أرادوا، وإن أظهرني اللله عليـــهم دخلـــوا في الإســـلام وافرين، فما تظن قريش فوا الله لا أزال أجاهد على الذي بعثني الله به حتى يظهره الله أو تنحر هذا السالفة، يعني أو أقتل في سبيل ذلك.

ثم قال : هل من رجل يخرج بنا على طريق غير طريقهم التي هم بها ؟

فقال ناجية : أنا يا رسول الله، فسلك بهم طريقاً وعراً، فلما خرجوا منه – قد شق عليهم ذلك – وأفضوا إلى أرض سهلة، قال رسول الله ﷺ : قولوا نستغفر الله ونتـــوب إليه، فقالوا فقال والله إنها – الاستغفار – للحطة التي عرضت على بـــني اســـرائيل فلـــم يقولوها.

ثم إن خالدا لم يشعر بهم إلا وقد نزلوا بذلك المحل، فانطلق نذيراً لقيش ثم أمر النبي ﷺ أن يسلكوا طريقاً تخرجهم على مهبط الحديبية من أسفل مكة، فسلكوا ذلك الطريق، فلما كانوا بالثنية التي تهبط بهم إلى مكة بركت ناقة النبي ﷺ، فحاول المسلمون أن يجعلوها تقوم فتمادت في ما هي فيه، فقالوا : خلأت القصواء، أي حرنت وعاندت، فقال النـــبي ﷺ : ما خلأت، وما هو لها بخلق، ولكن حبسها حابس الفيل، وعلـــم النـــبي ﷺ أن الله يمنعه من دخول مكة عنوة في هذا العام، ثم قال : والذي نفسي بيده لا تدعني قريش اليوم إلى خطة يسألون فيها صلة الرحم إلا أعطيتهم إياها، ولا يدعونني إلى خطة فيها تعظيـــم لحرمات الله إلا أعطيتهم إياها، ثم زجر ناقته فقامت، فرجع عوده على بدئه، ثم قال للناس : انزلوا هاهنا.

ولما نزل النبي ﷺ بأقصى الحديبية، كان الماء في أبارها قليلاً فكان الناس يتريضونه تريضاً فلم يلبثوا أن نزحوه، فاشتكى الناس إلى رسول الله ﷺ قلة الماء، وكان الحر شديدا

وأخذ منهم العطش، فنـــزع من كنانته سهماً ودفعه لناجية بن جندب سائق بدنه، فغرزه في أحد أبارها، فجاش الماء وعلا الرواء، فاندفع إليه الناس فرووا ورويت إبلـــهم، حـــتى بركت حول الماء.

وانطلق إلى الماء بعض المنافقين وفيهم ابن سلول، فقال له أوس بـــن خـــولي ﷺ، ويحك يا أبا الحباب، ما أن لك تبصّر ما أنت عليه ؟ أبعد ذلك شيء ؟ فقال : إني رأيـــت مثل هذا، فقال له أوس : قبحك الله وقبح رأيك، ثم أقبل إلى رسول الله ﷺ فسأله النبي : أين رأيت مثل ذلك ؟ قال : ما رأيت مثله قط، قال : فلم قلت ما قلت ؟ فقال يا رسول الله : استغفر لي، فقال ابنه عبد الله ﷺ يا رسول الله، استغفر له، فاستغفر له.

وفي رواية أن سهيل بن عمرو سمع أبا سفيان يقول : قد بلغنا أنه ظـــهر بالحديبيـــة قليب فيه ماء، فقم بنا ننظر إلى ما فعل محمد، فأشرفا على القليب والماء ينبع مـــن تحـــت السهم، فقال أبو سفيان، ما رأينا كاليوم قط، وهذا من سحر محمد قليل.

ولما أطمأن رسول الله ﷺ بالحديبية أتاه بديل بن ورقاء الخزاعي في جماعة من قومه، وكانت خزاعة مسلمها وكافرها لا يخفون عن النـــبي ﷺ شيئاً مما يدور في مكة، ويخبرونه به حتى وهو في المدينة، وكانت قريش ربما تفطن لذلك، وأخبرهم النبي ﷺ أنـــه لا يـــر حرباً، وإنما جاء زائرا للبيت معظماً لحرمته، فانطلق بديل إلى قريش فقال : إنا جئناكم من عند هذا الرجل، وسمعناه يقول قولاً فإن شئتم أن نعرضه عليكم فعلنا.

فقال سفهاؤهم : لا حاجة لنا أن تخبرونا عنه بشيء، وقال ذوو الرأي منهم : هات ما سمعته، فحدثهم بما قال، فأغلظوا القول لبديل، وقالوا : إن كان جاء ولا يد قتالاً، فـــو الله لا يدخلها علينا عنوة، أيريد محمد أن يدخلها علينا عنوة، وبيننا وبينه من الحرب مـــا بيننا، والله لا كان هذا أبدا ومنا عين تطرف.

ثم بعثت قريش مكرز بن حفص فلما رآه النبي ﷺ قال : هذا الرجل غادر فـــاجر فسمع ثم عاد إلى قريش، فبعثوا بعده الحليس بن علقمة سيد الأحابيش [٣]، فلما رآه النـــبي ﷺ قال : هذا من قوم يتألهون، أي يعظمون الله، ابعثوا الهدي في وجهه حتى يراه، فلمـــا رأى الهدي يسيل عليه بقلائده من عرض الوادي، ووجد الناس يلبون، لم يصل إلى النـــبي ﷺ اعظاماً لما رأي، ورجع إلى قريش فقال لهم : إني رأيت مالا يحل منعه، ورأيت الهدي في قلائده، قد أكل أوباره من الحبس عن محله، والرجال قد شعثوا وقملوا، فقالوا : أجلس

---

[٣]) الاحابيش هم أفخاذ ثلاثة من خزيمة وكنانة تعاهدوا مع قريش أن يكونوا يدا واحدة على من عاداهم ما سج ليـــل ووضح نهار وما سار حيش فسموا الأحابيش

فإنما أنت أعرابي لا علم لك، فما رأيت من محمد مكيدة، فعند ذلك غضب الحليس وقال : يا معشر قريش، والله ما على هذا حالفناكم، ولا على هذا عاقدناكم، أيصد عن بيت الله من جاء معظماً، والذي نفس الحليس بيده لتخلّن بيننا وبين محمد وما جاء له أو لأنفرن بالأحابيش نفرة رجل واحد، فقالوا له : مه، اكفف عنا يا حليس حتى نأخذ لأنفسنا ما نرضى به.

ثم أن عروة بن مسعود الثقفي، سمع قريشاً تعنف بديل بن ورقاء الخزاعي وتعنف الحليس، فأتى إليهم وقال : ألستم كالوالد لي، قالوا : نعم قال : ألست لكم بالولد : قالوا : بلى، قال : فهل تتهمونني ؟ قالوا : ما أنت عندنا بمتهم، قال : فإني ذاهب لهذا الرجل

فخرج حتى أتى رسول الله ﷺ فجلس بين يديه ثم قال : يا محمد، جمعت أوباش الناس ثم جئت بهم إلي بيضتك أصلك وعشيرتك لتفضها بهم، إنها قريش، قد خرجت معها العوذ المطافيل (أي النياق التي يمتليء ضرعها باللبن، ومعها أبناؤها ليتزودوا منها فلا يرجعون خوف الجوع، وقيل معناها، إن قريشا خرجت لك حتى بناتها وأطفالها لتستميت في حربك ومدافعتك) وقد لبسوا جلود النمر يعاهدون الله أن لا تدخلها عليهم عنوة، وايم الله لكأني بهؤلاء قد انكشفوا عنك، والله لا أرى وجوها بينهم (عظماء) وإني أرى أسرابا من الناس خليقا أن يفروا ويدعوك.

فقال أبو بكر : أمصص بظر اللات، أنحن ننكشف عنه ؟ قال عروة : من هذا يا محمد ؟ قال : هذا ابن أبي قحافة، فقال : أما والله لولا يد لك كانت عندي لكافأتك عليها، وكان عروة قد استعان العرب في حمل دية فأعانوه بالواحد من الإبل أو الاثنين، وأعانه أبو بكر بعشرة إبل شواب.

ثم جعل عروة بن مسعود يتناول لحية النبي ﷺ وهو يكلمه، -وهذه عادة العرب أن الرجل يتناول لحية من يكلمه ليلاطفه - والمغيرة بن شعبة واقف على رأس النبي في الحديد وعليه المغفر، فجعل يقرع يد عروة بنعل سيفه إذا تناول لحية النبي ﷺ، ويقول له : اكفف يدك عن مس لحيته قبل أن لا تصل إليك، فإنه لا ينبغي لمشرك أن يفعل ذلك، فيقول عروة للمغيرة: ويحك ما أفظعك وأغلظك، فلما أكثر عليه غضب وقال : ويحك، ما أفظعك وأغلظك، ليت شعري من هذا الذي أذاني من بين أصحابك، والله إني لا أحسب فيكم ألأم منه ولا أشر منزلة.

فتبسم النبي ﷺ وقال : هذا ابن أخيك المغيرة بن شعبة، -لأن عروة كان عم والد المغيرة -فقال : أي غدر، وهل غسلت غدرتك، والله ما غسلت عنك غدرتك في عكاظ إلا بالأمس، لقد أورثتنا العداوة من ثقيف إلي أخر الدهر.

****

وسبب ذلك أن وفدا من بني مالك من ثقيف عدهم ثلاثة عشر، خرجوا إلي مصر بهدايا إلي المقوقس، وطلب المغيرة من عمه عروة أن يصحبهم فنصحه بعـــدم مرافقتـــهم، ولكنه لم يستمع لنصح عمه وخرج معهم، وعندما سألهم المقوقس عنه قالوا : إنه ليس منا، ولكن من الأحلاف فلم يكرمه مثل إكرامه لهم، فخشى المغيرة أن يخبروا ثقيفـــا بـــإكرام الملك لهم وازدرائه به فعندما نزلوا موضعا في الطريق عصب رأسه وأدعى المرض، فعرضوا عليه الخمر فقال رأسي تصدع ولكن أسقيكم، فسقاهم وأكثر لهم حتى همـــدوا فوثـــب عليهم فقتلهم جميعا وأخذ كل ما معهم ثم انطلق إلي المدينة فأسلم، وقال للنبي ﷺهـــذه أسلاب كفار جئت بها إليك لتخمسهم، فقال له : قبلت إسلامك، ولا أخذ من أموالهـــم شيئا فإنها غدر، والغدر لا خير فيه.

بلغ خبر المغيرة بني مالك في ثقيف، فاختصموا مع رهط المغيرة، وشرعت المحاربـــة بينهم لولا أن تدخل عروة، ودفع ديات القتلي من ماله وأطفأ نار الحرب.

رجع عروة إلي قريش فقال لهم : يا معشر قريش إني جئت كســـرى في ملكـــه، وقيصر في ملكه، والنجاشي في ملكه، والله ما رأيت ملكا قط في ملكه مثـــل محمـــد في أصحابه، إذا تكلم خفضوا أصواتهم عنده، ولا يحدون النظر إليه تعظيما لـــه، وإذا توضـــأ ابتدروا وضوءه، ولا يسقط من شعره شيء إلا أخذوه، ولقد رأيت قومـــا لا يســـلمونه بشيء أبدا، فروا رأيكم، فإنه عرض عليكم رشدا فاقبلوا ما عرض عليكـــم فـــإني لكـــم ناصح، مع أني أخاف أن لا تنصروا عليه.

فقالت له قريش : لا تتكلم بهذا يا أبا يعفور، ولكن نرده في عامنا هذا، ويرجـــع إلي قابل، فقال : ما أراكم إلا ستصيبكم قارعة، ثم انصرف هو ومن معه إلي الطائف.

وكان عروة معظما في الجاهلية وهي الذي نزل فيه (وقالوا لولا نزل هذا القـــرآن علي رجل من القريتين عظيم) يعنون الوليد بن المغيرة، وعروة بن مسعود.

وهو الذي شبه به النبي ﷺ عيسى بن مريم.

وهو الذي ذهب بإسلامه بعد ذلك إلي قومه ثقيف فقتلـــوه فشبهـــه النـــبي ﷺ بصاحب يس، يعني حبيب النجار، الذي قتله قومه لإيمانه فقال : يا ليت قومي يعلمون، بما غفر لي ربي وجعلني من المكرمين. وكانت قريش تعظم عروة، ولذلك لم يسبوه كما سبوا من قبله، و لم يسفهوا رأيه وإن لم يأخذوا به، وساءه ذلك منهم فأخذ من معه وعـــاد إلي الطائف معتزلا قريشا.

رسل النبي ﷺ إلى قريش

وأرسل النبي خراس بن أمية الخزاعي وحمله علي بعير له ليبلغ أشرافهم عنه ما جاء

له، فعقروا جمل النبي ﷺ، وكادوا يقتلونه، فمنعه الأحابيش، وخلوا سبيله حتى أتى النبي ﷺ وأخبره بما لقي في قريش.

ثم دعا النبي ﷺ عمر بن الخطاب ليبعثه إلي قريش، فأشار عليه أن يبعث عثمان لأن له من يمنعه في مكة، فأمر النبي ﷺ عثمان أن يذهب إلي أبي سفيان وأشراف مكة يخبرهم أنه لم يأت لحرب، وأنه لم يأت إلا زائرا للبيت ومعظما لحرمته، ثم أمره أن يأتي رجالا مسلمين بمكة ونساء مسلمات، ويدخل عليهم، ويبشرهم بالفتح، ويخبرهم أن الله وشيك أن يظهر دينه بمكة حتى لا يستخفي أحد بعد ذلك فيها بالإيمان.

خرج عثمان إلي مكة فلقيه ابان بن سعيد بن العاص فأجاره وجاء به إلي أشراف قريش فبلغهم رسالة النبي ﷺ، وهم يقولون: إن محمدا لا يدخلها علينا عنوة أبدا، فلما فرغ عثمان من تبليغ الرسالة قالوا له : إن شئت أن تطوف بالبيت، فقال : ما كنت لأفعل حتى يطوف رسول الله ﷺ. وقال بعض المسلمين: قد خلص عثمان إلي البيت فطاف به دوننا، فقال رسول الله ﷺ : ما أظنه طاف بالبيت ونحن محصورون، قالوا : وما يمنعه يا رسول الله وقد خلص إليه، قال : ذلك ظني به أنه لا يطوف بالكعبة حتى نطوف، لو مكث كذا وكذا سنة ما طاف به حتى أطوف.

فلما رجع عثمان وحدثوه في ذلك قال : بئسما ظننتم بي، دعتني قريش إلي أن أطوف بالبيت فأبيت، والذي نفسي بيده لو مكثت بها معتمرا سنة كاملة، ورسول الله ﷺ مقيم بالحديبية ما طفت حتى يطوف رسول الله ﷺ.

ثم إن قريشا بقصد الكيد للمسلمين بعثت إلي ابن سلول : إن أحببت أن تدخل فتطوف بالبيت فأفعل، فقال هل أبنه عبد الله رضى الله عنه : يا أبت : اذكر الله ولا تفضحنا في كل موطن، تطوف و لم يطف رسول الله ﷺ ، فامتنع أن يستجيب لهم.

احتبست قريش عثمان بن عفان رضى الله عنه ثلاثة أيام ثم أشاعت أنه قتل في اختبار لقوة المسلمين، ولتعرف أين يختبئ الجيش الذي يزعمون أن النبي ﷺ قد أصطحبه معه لحربهم.

لما بلغ النبي ﷺ هذه الإشاعة جس تحت شجرة وبعث عمر بن الخطاب فدعا الناس، فلما اجتمعوا قال لهم: لا نبرح حتى نناجز القوم، وان الله قد أمرني بالبيعة، فبايعه الناس علي الموت، وأنه إما الفتح وإما الشهادة، ولما فرغ الناس من بيعتهم قال النبي ﷺ :

اللهم إن عثمان ذهب في حاجة الله وحاجة رسوله، فأنا أبايع عنه، وضرب يمينه في شماله ـــ ثم قال للناس: أنتم خير أهل الأرض.

قدوم سهيل

علمت قريش بأمر البيعة فخافوا فأرسلوا خمسين رجلا منهم عليهم مكرز بن حفص ليعرفوا القوة التي وراء هذه البيعة والجيش الذي ربما يكون كامنا، فحاصرهم محمد بن سلمة قائد حرس رسول الله ﷺ، وأخذهم إلي رسول الله ﷺ إلا مكرزا فأنه هرب، وجاء جمع من المشركين ليطلقوا أسراهم ورموا المسلمين بالنبل والحجارة فأسر المسلمون منهم أثنى عشر رجلا حبسوا مع الآخرين وشعر المشركون بقوة المسلمين فأستقر رأيهم علي الصلح.

وكان عشرة من المسلمين قد استأذنوا رسول الله ﷺ لزيارة أهليهم فحبسهم المشركون، ثم أرسلوا سهيل بن عمرو في جمع من قريش فلما رآه النبي ﷺ قال لأصحابه: سهل أمركم.

قال سهيل: يا محمد إن الذي كان من حبس عثمان وأصحابك، وما كان من قتال من قاتلك لم يكن من رأي ذوى رأينا، بل كنا كارهين له حين بلغنا، ولم نعلم به وكان من سفهائنا، فأبعث إلينا بأصحابنا الذين أسرت أولا وثانيا.

فقال رسول الله ﷺ : إني غير مرسلهم حتى ترسلوا أصحابي فقالوا : نفعل، فبعث سهيل إلي قريش فبعثوا عثمان وأصحابه العشرة، فذهب أصحابهم.

ثم أقبل سهيل فجثا علي ركبتيه بين يدي النبي ﷺ، والمسلمون حوله جلوس، وتكلم فأطال، ثم تراجعا، فقال النبي ﷺ، تخلوا بيننا وبين البيت فنطوف به.

قال سهيل : والله لا تتحدث العرب بنا أنا أخذنا ضغطة بالضم، أي بالشدة والإكراه، ولكن ذلك من العام القابل.

ثم التأم الأمر علي نبذ الحرب لمدة عشر سنين، ولكل قبيلة أن تدخل في حلف المسلمين أو المشركين، وأن من ذهب إلى المدينة مسلما يرده المسلمون، ومن عاد من المدينة إلي مكة كافرا قبله المشركون.

عند ذلك وثب عمر بن الخطاب فأتى أبا بكر وقال له: يا أبا بكر أليس هو برسول الله ؟ قال : بلي، قال عمر : ألسنا بالمسلمين؟ قال ابو بكر : بلي، قال : أوليسوا بالمشركين؟ قال : بلي، قال : فعلام نعطى الدنية في ديننا، فقال أبو بكر : أيها الرجل، إنه رسول الله، وليس يعصى أمره، وهو ناصره، استمسك بغرزه حتى تموت، فإنني أشهد أنه رسول الله.

ثم أتى عمر رسول الله ﷺ فقال له مثل ما قال لأبي بكر، فقال له : أنا عبد الله ورسوله، لن أخالف أمره ولن يضيعني.

ولقي عمر من تلك الشروط أمرا عظيما، وجعل يرد علي رسول الله ﷺ الكــــلام حتى قال له أبو عبيدة :ألا تسمع يا أبن الخطاب؟ رسول الله يقول ما يقول، نعوذ بالله من الشيطان الرجيم، حتى قال له النبي ﷺ :يا عمر، إني رضيت وتأبي ؟ فكان عمر رضى الله عنه يقول:ما زلت أصوم وأتصدق وأصلي وأعتق مخافة كلامي الذي تكلمت بـــه حــين رجوت أن يكون هذا خيرا.

واختلفوا فيمن يكتب الرسالة فحين أمر النبي ﷺ أوس بن خولة أن يكتب اعترض سهيل فقال: ليكتب أبن عمك علي أو عثمان بن عفان، فأمر عليا كرم الله وجهه، فقال : اكتب، باسم الله الرحمن الرحيم، فقال سهيل : لا أعرف هذا -الرحمن الرحيم -ولكن اكتب باسمك اللهم.

ثم قال: هذا ما صالح عليه محمد رسول الله سهيل بن عمرو، فقال ســـهيل : لـــو شهدت أنك رسول الله لم أقاتلك و لم أصدك عن البيت، أفترغب عن أسمك وأسم أبيـــك محمد بن عبد الله، فقال رسول الله ﷺلعلي : أمحه فقال علي : والله لا أمحوك أبدا، فقـــال النبي ﷺ، أرنه ثم محاه بيده الشريفة وقال : أنا والله رسول الله وإن كذبتموني، وأنا محمد بن عبد الله.

ثم اختلفوا فيمن يكون عنده الكتاب فبينما تمسك به النـــبي ﷺ أراد ســـهيل أن يأخذه ثم اصطلحوا علي أن يكتبوا نسخة ثانية منه.

مفاجأة أبي جندل

كتب العهد وانتهت المفاوضات علي أن يعود المسلمون في العام القابل و لم ينتـــه الجدل حولها، فكيف نقبل أن من يسلم من المشركين نرده ومن يرتد من المسلمين يقبلونه، فقال النبي ﷺ :إن من ذهب منا إليهم فأبعده الله، ومن جاءنا منهم فرددناه سيجعل الله له فرجا ومخرجا.

ولعلها المرة الأولي التي يلتقي فيها سهيل بأبنه عبد الله في غير ميدان المعركـــة ودار بينهما تعاتب وتجادل سهل علي حدته واختلاف الرأي فيه، فسهيل يتهم أبنه بــــالعقوق والخروج علي قومه، وما هذا كان العهد به بعد أن أحبه أبوه وقدمه، وولاه علي مالــــه، وأعده ليخلفه في زعامة قومه ليكون وجها في مكة يسمع له، ويشار في الملمات، ويحافظ علي مكاسب عشيرته، وعبد الله يعتب علي أبيه تشدده في المفاوضات، ومطالبـــه الـــتي أوجدت قلوب المسلمين عليه، وبدلت فرحتهم أسى، ورضاهم غضبا، وسعادتهم شقاوة، و لم يعدم عبد الله من يدعم قوله من المسلمين، كما لم يعدم سهيل مــــن يـــؤازره مـــن المشركين، وعلت أصواتهم، وضاعت بهجة اللقاء في ضجيج العتاب حتى أخرج الناس من لجاجهم ضجة أكبر، وزحام أشد، فإذا بابي جندل بن سهيل أخي عبد الله يبرز من بـــين

الجموع يرسف في الحديد، ويجر قيوده الثقيلة وهو متوشح سيفه.

كان سهيل قد أحس بإسلام أبنه أبي جندل، وما كاد يفرح بشبابه ويراه خلفـــا لعبد الله الذي فر منه إلي المسلمين، فأخذ منه الغضب كل مأخذ، وعزم علي أن لا يمكنه مما تمكن منه أخوه، فأذاه أذى شديدا، وأوثقه بالحديد وحبسه، وأبقاه تحت عينيه، ولكن أبا جندل أقتنص فرصة غياب أبيه في مفاوضات الصلح فأفلت يذود عن نفسه بالســـيف حتى بلغ المسلمين فرمى بنفسه بين أظهرهم، فجعل المسلمون يرحبون به ويهنئونه، والتزمه أخوه عبد الله وعانقه وبكى من الفرح.

أما سهيل فقد وجم ساعة من هول المفاجأة لكنه فاء إلي نفسه، فقام إلي ابنه وقد انتفخت أوداجه من الغضب، وأخذ غصنا من شجرة به شوك فمازال يضرب وجهه بـــه ضربا شديدا حتى رق له المسلمون وبكوا، وأخذ بتلابيبه وقال: يا محمد، هـــذا أول مـــا أقاضيك عليه، أن ترده علي، فقال النبي ﷺ :إنا لم نفض الكتاب بعد، فقال سهيل: بلي، لقد لجت القضية بيني وبينك، أي تم العقد، وأخذ أبو جندل يصيح بأعلى صوته: يا معشر المسلمين، أرد إلي المشركين يفتنوني عن ديني ؟ ألا ترون ما لقيت؟ وأظـــهر لهـــم أثـــار التعذيب علي جسده فزاد الناس ذلك هما وغما.

فطلب النبي ﷺ من سهيل أن يجير أبنه فلا يعذبه، فقال : ما أنا بمجير ذلك لـــك، قال: بلي فأفعل، قال: ما أنا بفاعل، قال مكرز وحويطب من رجال سهيل : قد أجرنـــاه لك لا نعذبه.

فقال النبي ﷺ: يا أبا جندل، اصبر واحتسب، فإن الله جاعل لك ومن معك مـــن المستضعفين فرجا ومخرجا، إنا قد عقدنا بيننا وبين القوم صلحا وأعطيناهم علـــي ذلـــك، وأعطونا عهد الله ألا نغدر بهم. وقال حويطب لمكرز: ما رأيت قوما قط أشد حبـــا لمـــن دخل معهم من أصحاب محمد، أما إني أقول لك : لا نأخذ من محمد نصفا بعد اليوم حتى يدخلها عنوة، قال مكرز: وأنا أرى ذلك.

واقترب عمر من أبي جندل حيث كان أبوه يدفعه من جنبه ليسرع في سيره عائدا إلي مكة.

وقال عمر لأبي جندل : أصبر يا أبا جندل، فإنما هم المشركون، وإنما دم أحدهـــم كدم كلب، وأنت معك سيفك، يا أبا جندل، إن دم الكافر عند الله كدم الكلب، ويقرب إليه قائم سيفه

-يدعوه ليقتل أباه الذي فتنه عن دينه - يا أبا جندل، إن الرجل يقتل أباه في الله، والله لو أدركنا أباءنا لقتلناهم في الله.

فقال له أبو جندل: ما لك لا تقتله أنت؟.

فقال عمر : إن رسول الله ﷺ نهانا عن قتله.

قال أبو جندل : ما أنت أحق بطاعه رسول الله ﷺ منى.

قال عمر: وددت أن يأخذ السيف فيضرب أباه فضنّ الرجل بأبيه.

قال أبو بكر الصديق يذكر صلح الحديبية : ما كان فتح في الإسلام أعظم من فتح الحديبية، ولكن الناس يومئذ قصر رأيهم عما كان بين محمد وربه، والعباد يعجلون، والله لا يعجل كعجلة العباد حتى يبلغ الأمور ما أراد، لقد نظرت إلي سهيل بن عمرو في حجة الوداع قائما عند المنحر يقرب إلي رسول الله ﷺ بدنه، ورسول الله ﷺ ينحرها بيده ودعا الحلاق فحلق رأسه، وأنظر إلي سهيل يلتقط من شعره، وأراه يضعه علي عينيه، وأذكر إباءه أن يقر يوم الحديبية بأن يكتب بسم الله الرحمن الرحيم، ويأبى أن يكتب محمد رسول الله، فحمدت الله الذي هداه للإسلام.

الفتح والإسلام

ذكرنا في أول هذا الحديث أننا لا نستطيع الفصل بين قصة عبد الله بن سهيل، وقصة ابيه سهيل بن عمرو العامرى، وقصة الإسلام، وذلك لأن هذه القصص تشكل نسيجا لا تنفصل لحمته عن سداه.

قابلنا هذا النسيج المتماسك في بدر، كما قابلناه في الحديبية، وها هو ذا يقابلنا اكثر قشابة ونصاعة في فتح مكة.

بمقتضى صلح الحديبية عاد أبو جندل مع أبيه، ولكنه غافله وفر إلي المدينة بعد أن قتل أحد رجلين طارداه حتى تمكنا منه، فخادعهما وقتل أحدهما وفر الأخر، و لم يقبله النبي ﷺ في المدينة وفاء بشروط الصلح فجمع حوله من كانوا مثله، وأقام علي طريق تجارة قريش يروع قوافلها وينهل منها ويقتل، مثلما كان يعمل أبو بصير في موقع أخر، حتى انطلق أبو سفيان بنفسه إلي المدينة يطلب منه قبول من يسلم من أهل مكة تأمينا لطرق تجارتهم التي أمست مخوفة بسببهم.

ومن نتائج الصلح كذلك أن دخلت خزاعة في حلف المسلمين، ودخلت بكر في حلف المشركين، وهما قبيلتان متجاورتان متعاديتان، وقد همد الخلاف بينهما حتى انتهت عمرة القضاء في العام التالي، و لم يمر عام حتى أغرت قريش بكرا بمهاجمة خزاعة فغافلتها وهجمت عليها وقتلت منها، وكادت تنال منها الكثير لولا أن تدخل سهيل بن عمرو فمنع خزاعة من بكر.

ولما علم النبي ﷺ أن قريشا هي التي حرضت بكرا ورضيت بما تفعل، فقد قرر أن

بفتح مكة، ولكنه أخفي الأمر، وأعد أهبة كبيرة حتى تفاجأ مكة فتستسلم بدون قتـــال، لأنه يكره أن يقاتل عند المسجد الحرام.

وعندما دخل المسلمون مكة خشي مشركوها علي أنفسهم، إذ أنهم لو تمكنوا من المسلمين ما تركوهم أحياء، فلا بد أن يكون لهم نفس الجزاء الذي كان يمكن أن يكـــون منهم.

يقول سهيل: لما دخل رسول الله ﷺ مكة وظهر اقتحمت بيتي، وأغلقت علـــي بابي، وأرسلت إلي أبني عبد الله، أن اطلب لي جوارا من محمد فإني لا أمن أن أقتل، فذهب عبد الله، فقال: يا رسول الله، هذا أبي تؤمنه، قال : نعم، هو أمن بأمان الله فليظهر.

ثم قال النبي ﷺ لمن حوله: من لقي منكم سهيلا فلا يشد إليه النظر، فليخـــرج، فلعمري إن سهيلا له عقل وشرف، وما مثل سهيل جهل الإسلام، وقدره الـــذي كـــان يوضع فيه من قبل لم يكن له بنافع.

فخرج عبد الله إلي أبيه فأخبره بمقالة النبي ﷺ، فقال سهيل: كان والله برا صغـــيرا وكبيرا.

ثم حشر الناس عند الكعبة وخرج عليهم ﷺ، فوضع يده علي عضـــادتي البـــاب فقال: ماذا تقولون؟ وما تظنون أني فاعل بكم، فقال سهيل :إن نقول أو نظن إلا خـــيرا، أخ كريم وابن أخ كريم، وقد قدرت، فقال:أقول كما يقول يوسف لأخوته، لا تـــثريب عليكم اليوم، يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين، أذهبوا فأنتم الطلقاء، فخرجـــوا كأنما نشروا من قبورهم.

وظل سهيل علي شركه حتى خرج النبي ﷺ إلي حنين وخرج معه سهيل وكـــان معه عكرمة بن أبي جهل وكان قد أسلم، ولما انكشف الناس قال سهيل له: لا يختبرهمـــا محمد وأصحابه -كأنه يقصد لن ينتصر مع هوزان وثقيف، فقال له عكرمة: إن هذا ليس بقول :إنما الأمر بيد الله وليس إلي محمد من الأمر شيء، إن أديل عليه اليوم فإن له العاقبة غدا.

قال سهيل: والله إن عهدك بخلافه لحديث، قال: يا أبا يزيد: إنا كنا والله نوضع في غير شيء، وعقولنا عقولنا، نعبد حجرا لا ينفع ولا يضر، فأسلم سهيل بالجعرانه، وأعطاه رسول الله ﷺ يومئذ من غنائم حنين مائة من الإبل.

لقد كان فتح مكة فتحا لقلوب الناس إلي الإسلام، بل كان الفتح منذ الحديبيـــة حيث أسلم خلال عامين منذ الحديبية إلي الفتح مقدار ما أسلم منذ بدء الدعوة إلي يـــوم الصلح، ثم كان الفتح كسرا لكل الإغلاق علي القلوب، وتحطيما لكل العوائـــق، ومحـــوا

للظلمات التي كانت تحول بين الناس وبين الإسلام.

كان عبد الله بن الزبعري وأبو سفيان بن الحارث من شعراء مكة المجيدين، الذين ما فتئوا يهجون النبي ﷺ والمسلمين، وقد رد عليهما حسان بن ثابت كما رد علي غيرهما وكان مما رد به علي أبي سفيان قوله:

عفت ذات الأصابع فالجواء ... إلي عذراء منزلها خلاء
ديار من بني الحسحاس قفر ... تعفيها الروامس والسماء
وكانت لا يزال بها أنيس ... خلال مروجها نعم وشاء
فدع هذا ولكن من بطيف ... يؤرقني إذا ذهب العشاء
لشعثاء التي قد تيمته ... فليس لقلبه منها شفاء
كأن ربيئة من بيت رأس ... يكون مزاجها عسل وماء
إذا ما الأشربات ذكرن يوما ... فهن لطيب الراح الفداء
نوليها الملامة أن ألمنا ... إذا ما كان مغث أو لحاء
ونشربها فتتركنا ملوكا ... وأسدا ما ينهنها اللقاء
عدمنا خيلنا إن لم تروها ... تثير النقع موعدها كداء
ينازعن الأعنة مصغيات ... علي أكتافها الأسل الظماء
تظل جيادنا متمطرات ... يلطمهن بالخمر النساء
فإما تعرضوا عنا اعتمرنا ... وكان الفتح وانكشف الغطاء
وإلا فاصبروا لجلاد يوم ... يعز الله فيه من يشاء
وجبريل رسول الله فينا ... وروح القدس ليس له كفاء
وقال الله قد أرسلت عبدا ... يقول الحق إن نفع البلاء
شهدت به وقومي صدقوه ... فقلتم لا نقوم ولا نشاء
وقال الله قد سيرت جندا ... هم الأنصار عرضتها اللقاء
لنا في كل يوم من معد ... سباب أو قتال أو هجاء
فنحكم بالقوا في من هجانا ... ونضرب حين تختلط الدماء
ألا أبلغ أبا سفيان عني ... مغلغلة فقد برح الخفاء
بأن سيوفنا تركتك عبدا ... وعبد الدار سادتها الإماء
هجوت محمدا فأجبت عنه ... وعند الله في ذاك الجزاء
أتهجوه ولست له بكفء ... فشركما لخيركما الفداء
هجوت مباركا برا حنيفا ... امين الله شيمته الوفاء
أمن يهجو رسول الله منكم ... ويمدحه وينصره سواء

فإن أبي ووالدي وعرضي ... لعرض محمد منكم وقاء
لساني صارم لا عيب فيه ... وبحري لا تكدره الدلاء

وهجا حسان عبد الله بن الزبعرى وقد فر إلي نجران ببيت واحد ما زاد عليه حين قال:

لا تعد من رجلا أحلك بغضه ... نجران في عيش أحذ لئيم

فلما بلغ ذلك ابن الزبعرى خرج إلي رسول الله ﷺ مسلما وقال حين أسلم:

يا رسول المليك إن لساني ... راتق ما فتقت إذ أنا بور
إذ أبارى الشيطان في سنن الغيّ ... ومن ماله ميله مثبور
امن اللحم والعظام لربي ... ثم قلبي الشهيد أنت النذير
إني عنك زاجر ثم حيا ... من لؤي وكلهم غرور

وقال عبد الله حين أسلم:

منع الرقاد بلابل وهموم ... والليل معتلج الرواق بهيم
مما أتاني أن أحمد لامني ... فيها فبت كأنني محموم
ياخير من حملت علي أوصالها ... عيرانة سرح اليدين غشوم
إني لمعتذر إليك من الذي ... أسديت إذ أنا في الضلال أهيم
أيام تأمرني بأغوي خطة ... سهم وتأمرني بها مخزوم
وأمد أسباب الردى ويقودني ... أمر الغواة وأمرهم مشئوم
فاليوم أمن بالنبي محمد ... قلبي ومخطئ هذه محروم
مضت العداوة وانقضت أسبابها ... ودعت أواصر بيننا وحلوم
فاغفر فدى لك والدي كلاهما ... زللي، فإنك راحم مرحوم
وعليك من علم المليك علامة ... نور أغر وخاتم مختوم
أعطاك بعد محبة برهانه ... شرفا وبرهان الإله عظيم
ولقد شهدت بأن دينك صادق ... حق وأنك في المعاد جسيم
والله يشهد أن أحمد مصطفي ... مستقبل في الصالحين كريم
قرم علا بنيانه من هاشم ... فرع تمكن في الذرى وأروم

حسن الخاتمة

كان عبد الله بن سهيل درعا من دروع الإسلام في المدينة، وكان أبوه ركنا متينا قويا للإسلام في مكة، يدعو إليه، ويصف محاسنه، ويتخلق بأخلاقه، ويكثر من الصلاة والصيام والصدقة، إذ انسجمت فطرته مع الإسلام، وزادت مكانته عند النبي ﷺ، وهو ذو مكانة عنده حتى في أيام جاهليته لخلاله الحميدة التي لم يستطع الكفر أن يحجبها، حتى استحق أن يمدحه أميه بن أبي الصمت المتعبد الحنيف، قال أمية هذا في سهل بن عمرو:

أبا يزيد، رأيت سيبك واسعا ... وسجال كفك يستهل ويمطر

وافتخر به عبد الله بن قيس الرقيات وقد منع خزاعة من عدوان بكر بعد صلح الحديبية فقال فيه:

منهم ذو الندى سهيل بن عمرو ... عصبة الناس حين جب الوفاء

حاط أخواله خزاعة لما ... كثرتهم بمكة الأحياء

ثم كان المقام المحمود الذي أخبر به النبي ﷺ عمر بن الخطاب رضى الله عنه حين عرض خلع ثنيتي سهيل يوم بدر فقال له : دعه فعسى أن يقوم مقاما محمودا تحمده، وقد حل موعد تصديق النبوءة حين بلغ الناس نبأ موت النبي ﷺ، وكان علي مكة عتاب بن اسيد فضج الناس في المسجد، وخرج عتاب حتى دخل شعبا من شعاب مكة، فأتاه سهيل، فقال: قم فتكلم في الناس، فقال عتاب: لا أطيق الكلام مع موت النبي ﷺ، فخرجا فأتيا المسجد الحرام، وأبو سفيان يتحدث وكأن الإسلام سيموت بموت النبي ﷺ، فقام سهيل خطيبا فحمد الله وأثنى عليه وقال : والله إني أعلم أن هذا الدين سيمتد امتداد الشمس في طلوعها إلي غروبها، فلا يغرنكم هذا من أنفسكم ويعني أبا سفيان - فإنه ليعلم من هذا الأمر ما أعلم، ولكنه قد جثم علي صدره حسد بني هاشم، ثم قال في خطبته مثل ما جاء في خطبة أبي بكر في المدينة لا ينخرم عنها حرف واحد.

وهو الذي كان في مقدمة مستقبلي أبي بكر في عمرته بعد أن صار خليفة المسلمين فعزاه وبكى معه، وقال أبو قحافة لابنه الصديق وهو يشير إلي سهيل ومن معه: يا عتيق، هؤلاء الملأ فأحسن صحبتهم، فقال أبو بكر: يا أبت لا حول ولا قوة إلا بالله، لقد طوقت عظيما من الأمر، لا قوة لي به، ولا يدان إلا بإذن الله تعالي.

وكان من أول أعمال الصديق العظيمة نهوضه في شدة وحزم لمواجهة المرتدين، وكان مصدر قوته حسن ظنه بالله تعالي، وكمال يقينه بوعد الله بأن تكون كلمته العليا وكلمة الذين كفروا السفلي، وبأنه متم نوره ولو كره الكافرون والمشركون، ﴿ هُوَ الَّذِي

أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا ﴾ (الفتح ٢٨).

لم يأبه الصديق العظيم لكثرة عدد المرتدين، و لم تزعجه حمية الجاهلية فيهم و لم يهن عزمه لتباعد ديارهم، ولا للأحلاف التي عقدوها فيما بينهم، وكان معه جند يسكنه هاجسان اثنان: هاجس لله، وهو نصره، والذود عن دينه، وتحقيق فريضة الجهاد وهي أعلي سنام الإسلام.

هاجس لأنفسهم، وهو وفاؤهم لبيعتهم مع الله عز وجل، فهم يقدمون له أنفسهم وأموالهم، ويرغبون في الشهادة ليستبشروا ببيعتهم الذي بايعوه به في جنة لا يزول نعيمها، ولا يموت من يدخلها، ولا يحزن ساكنها.

وكان عبد الله بن سهيل من هؤلاء وفي بعهده من الله، فأوفي الله له، ومن أوفي بعهده من الله. خرج في بعث اليمامة وأدركته الشهادة في يوم جوائا، وكان راغبا فيها وحريصا عليها، فهذا حسن الخاتمة لعبد الله، ولقد سبق أباه إلي الله لأنه أقدم منه في الإسلام، وأدخر الله أباه حتى يلتقي بحسن الخاتمة علي الصورة التي سوف تقابلنا إن شاء الله في هذه الصفحات، وكان الأمل في الله أول خطواته إليها، فلقد حج الصديق رضى الله عنه فذهب إلي سهيل يعزيه في ابنه فقال : بلغني أن رسول الله ﷺ قال: إن الشهيد ليشفع لسبعين من أهله، فأرجو أن يبدأ بي.

مع الحارث بن هشام

وكان الحارث أخا شقيقا لأبي جهل، غير أنه لم يظهر عداوة للإسلام مثل ما أظهر أخوه، وكان بينه وبين سهيل بن عمرو خلة دامت في الجاهلية وفي الإسلام وفي الجنة إن شاء الله تعالي.

عرف عنه قلة الحديث، وهو في هذه يختلف عن سهيل الذي كان خطيبا فصيحا، ولكنه يشابهه في الشرف، وقرى الضيف وإطعام الطعام، ويشاركه العداوة الرسمية للإسلام، وأعني بها التزامه بما عليه أكثر أهل مكة من صدودهم عن الإسلام لأنه خرج من الأعراف التي كان عليها آباؤهم وورثوها عنهم، وإن لم يبد حرصا علي انتصار هذه الأعراف علي الإسلام، كما كان أخوه أبو جهل في أحقاده وضغائنه.

خرج مع المشركين إلي بدر، وحين أحتدم القتال فرّ إلي مكة لعدم إيمانه بقضية يحارب لها، وهو المشهور بالشجاعة والإقدام فكان فراره مثلا يتندر به الناس عليه حتى قال فيه حسان بن ثابت:

إن كنت كاذبة بما حدثتني	فنجوت منجى الحارث بن هشام
ترك الأحبة أن يقاتل دونهم	ونجا برأس طمرة ولجام

واعتذر الحارث من فراره بما زعم الأصمعي أنه لم يسمع بأحسن من هذا الإعتذار، وهو قوله:

الله يعلم ما تركت قتالهم	حتى رموا فرسي بأشقر مزبد
ووجدت ريح الموت من تلقائهم	في مأزق والخيل لم تتبدد
فعلمت أني إن أقاتل دونهم	أقتل ولا يبكي عدوى مشهدي
فصدفت عنهم والأحبة دونهم	طمعا لهم لعقاب يوم مرصد

وفي يوم فتح مكة لجأ الحارث بن هشام إلي أم هانيء بنت أبي طالب يستجير بها، فأمنته، ودخل أخوها علي ابن أبي طالب فوجد الحارث فرفع سيفه ليقتله، فوقفت بينهما، وأراد علي أن يغلبها فيقتله، فدخل النبي ﷺ منزلها ذلك الوقت، فقالت: يا رسول الله، ألا ترى إلي ابن أمي يريد قتل رجل أجرته، فقال رسول الله ﷺ، قد أجرنا من أجرت، وأمّنا من أمّنت، فأمنه.

والأمان يعني أن لا يقتله وأن يبقى علي شركه إذا شاء، إذ أن الكافر إذا أسلم فالإسلام أمان له.

وكانت ليلة الفتح بالنسبة للمسلمين ليلة تهليل وتكبير وطواف، فقال أبو سفيان لهند بنت عتبة زوجته: أترى هذا من الله؟ قالت : نعم هذا من الله.

ثم أصبح الصبح، وخرج أبو سفيان، فرأي رسول الله ﷺ يمشي والناس يزدحمون حوله يطئون عقبه، فقال في نفسه: لو أعود إلي قتال هذا الرجل، فضرب رسول الله ﷺ ظهره وقال: إذا يخزيك الله، ثم قال له: قلت لهند: هذا من الله ؟ فقالت لك: نعم هذا من الله، فقال أبو سفيان: أشهد أنك عبد الله ورسوله، والذي يحلف به ما سمع قولي هذا أحد من الناس غير هند.

ثم إن أبا سفيان -وكان اسلم بمر الظهران- جلس بفناء الكعبة مع بعض المشركين ومنهم ابنٌ لسعيد ابن العاص وعتاب بن أسيد والحارث بن هشام، وحانت الظهر، فأمر النبي ﷺ بلالا أن يؤذن ليغيظ به قريشا، فلما علا الكعبة وأخذ في الأذان، قال ابن سعيد بن العاص للحارث بن هشام : لقد أكرم الله سعيدا إذ قبضه قبل أن يسمع هذا الأسود علي ظهر الكعبة، وقال رجل من قريش: ألا ترى إلي هذا العبد أين صعد، فقال الحارث : دعه، فإن يكن الله يكرهه فسيغيره.

فقال عتاب بن أسيد: لقد أكرم الله اسيدا أن يكون سمع هذا فسمع منه ما يغيظه، فقال الحارث بن هشام: أما والله لو أعلم أنه محق لأتبعته، فقال أبو سفيان : لا أقول شيئا،

لو تكلمت لأخبرت عن هذه الحصا، فخرج عليهم رسول الله ﷺ فقال: قد علمت الذي قلتم، فقال الحارث وعتاب : نشهد أنك رسول الله، ما أطلع علي هذا أحد كان معنا فنقول اخبرك.

وذكر الحارث عند رسول الله ﷺ، وفعله في الجاهلية من قرى الضيف وإطعام الطعام، فقال :إن الحارث لسرى، وإن كان أبوه لسريا، ولوددت أن الله هداه إلي الإسلام.

وتحقق فيه رجاء النبي ﷺ، فخرج معه إلي حنين مسلما، وأعطاه مائة من الأبل مع المؤلفة قلوبهم.

قال الحارث للنبيﷺ : يا رسول الله، أخبرني بأمر اعتصم به، فقال: أملك عليك هذا، واشار إلي لسانه، قال الحارث :فرأيت ان ذلك يسير، ثم قال عبد الرحمن بن الحارث:فرأيت أن ذلك يسير، وكنت رجلا قليل الكلام فلم أفطن له، فلما رمته فإذا هو شيء لا أشد منه.

وكما كان الشعراء يشيدون بشرف سهيل ومجده، فكذلك كانوا يفعلون مع الحارث بن هشام، منها ما يقوله الشاعر:

أحسبت أن أباك يوم تسبني ... في المجد كان الحارث بن هشام

أولي قريش بالمكارم كلها ... في الجاهلية كان والإسلام

هذا التشابه في الصفات والأخلاق، وفي الوجاهة والشرف، وفي الذكر والسيرة، وفي ثناء النبي ﷺ وثناء الناس، وتلك الخلة التي جمعتهما في الجاهلية وفي الإسلام كان لها الدور القوى في نقلة غيرت مجرى حياة سهيل والحارث، فهما راغبان في الوجاهة والمجد، وحيثما يوجد المجد فهما عنده، وهما من صانعيه.

النقلة إلي الله

جاء الحارث بن هشام وسهيل بن عمرو إلي عمر بن الخطاب، فجلسا عنده وهو بينهما يكرمهما ويحييهما، فجعل المهاجرون الأولون يأتون عمر، فيقول: ها هنا يا سهيل، ها هنا يا حارث، فينحيهما من أجلهم حتى صارا في أخر الناس، فلما خرجا من عند عمر

قال الحارث لسهيل: ألم تر ما صنع بنا ؟ فقال سهيل: أيها الرجل، لا لوم عليه، ينبغي أن نرجع باللوم علي أنفسنا، دعى القوم فأسرعوا، ودعينا فأبطأنا.

فلما قام من عنده من الناس أتياه، فقالا له : يا أمير المؤمنين قد رأينا ما فعلته اليوم، وعلمنا أننا أتينا من قبل أنفسنا، فهل من شيء نستدرك به ما فاتنا من الفضل، فقال لهما: لا أعلمه إلا من هذا الوجه، وأشار لهما إلي جهة الروم حيث الجهاد.

وأخرج الحاكم من طريق ابن المبارك عن الحسن البصرى يقول: حضر أناس باب عمر وفيهم سهيل بن عمرو والحارث بن هشام وأبو سفيان بن حرب، والشيوخ من قريش، فخرج آذنه يأذن لأهل بدر كصهيب وبلال وعمار رضى الله عنهم، وقال: وكان والله بدريا وكان يحبهم، وكان قد اوصى بهم، فقال أبو سفيان : ما رأيت كاليوم قط، يأذن لهذه العبيد، ونحن جلوس لا يلتفت إلينا، فقال له سهيل: ويا له من رجل ما كان أعقله -إني والله قد أرى الذي في وجوهكم، فإن كنتم غضابا فأغضبوا على أنفسكم، دعي القوم ودعيتم، فأسرعوا وأبطأتم أما والله ما سبقوكم إليه، فانظروا هذا الجهاد فألزموه، عسى الله عز وجل أن يرزقكم الجهاد والشهادة، ثم نفض ثوبه فقام فلحق بالشام.

قال الحسن: صدق والله، لا يجعل الله عبدا أسرع إليه كعبد أبطأ عنه.

وقال سهيل: سمعت رسول الله ﷺ يقول: مقام أحدكم في سبيل الله ساعة خير من عمله عمره في أهله، قال سهيل : فإنما أرابط حتى أموت ولا أرجع إلى مكة.

حمل سهيل معه كل أهله، وحمل الحارث معه كل أهله، حتى لا يشغل أحدهم عن الجهاد قلق على صغير ولا خوف على كبير، فكان يوما من أيام مكة.

يقول ابن المبارك خرج الحارث بن هشام من مكة، فجزع أهل مكة جزعا شديدا فلم يبق أحد يطعم إلا خرج معه يشيعه، فقال: إنما النقلة إلى الله، وما كنت لأوثر أحدا عليكم، فبكى أهل مكة بكاء شديدا حتى إذا كان بأعلى البطيء أو حيث شاء الله من ذلك، وقف، ووقف الناس حوله يبكون فلما رأي جزع الناس قال: يا أيها الناس، إني والله ما خرجت رغبة بنفسي عن أنفسكم، ولا اختيار بلد على بلدكم ولكن كان هذا الأمر، فخرجت فيه رجال من قريش، والله ما كانوا من ذوى أسنانها ولا من بيوتاتها، فأصبحنا والله، ولو أن جبال مكة ذهب فأنفقناها في سبيل الله ما أدركنا يوما من أيامهم، والله لئن فاتونا به في الدنيا لنلتمس أن نشاركهم به في الآخرة، فاتقى الله امرؤ فعل.

ما كان لسهيل ولا للحارث أن يرضيا بغير مكة دارا لهما، فهي أحب البلاد إليهما، وقبلهما ما كان رسول الله ﷺ ليتخذ غيرها دارا لولا أن أهلها أخرجوه ببغيهم وضلالهم، فأرتضى غيرها ليقيم صرح المجد للإسلام، وليعطى المثل لمن يرى نصر الله غاية، ويرى الجنة دارا هي خير من كل دار سكنها او تعلق بها، وباب الجنة يوجد حث يوجد الجهاد، إنما النقله إلى الله.

حسن الخاتمة

حين بلغ سهيل والحارث أرض الشام كان جيش المسلمين يعد نفسه في مواجهة

الروم في اليرموك، وكان خالد بن الوليد قد أتى من العراق بمدد كبير، ولكن جيش الروم كان أضعاف جيوش المسلمين، فقال رجل من نصارى عرب الشام لخالد ما أكثر الـــروم وأقل المسلمين!، فقال خالد مغضبا: ويلك: أتخوفني بالروم؟ بل ما اقـــل الـــروم واكـــثر المسلمين !، إنما تكثر الجنود بالنصر، وتقلّ بالخذلان، لا بعدد الرجال.

ثم وحد خالد جيوش المسلمين في جيش واحد وجعلــه أربعـــة أقســـام القلـــب والمؤخرة، والميمنة والميسرة، وقسم كل قسم إلي كراديس، كل كردوس ألف رجل عليهم أمير، وكان سهيل احد أمراء الكراديس، ولما تقارب الجيشان ذهب أبو عبيدة ليدعو قائد الروم كما أمر رسول الله ﷺ بقوله: لا تقاتلوهم حتى تدعوهم، واصطحب معه يزيد بن ابي سفيان، وضرار بن الأزور والحارث بن هشام وأبا جندل بن سهيل بن عمرو، ونادوا علي الروم، إنما نريد أميركم وكان اسمه(تذارق)، فأذن لهم بالدخول عليه في خيمة مـــن حرير، فقالوا: لا نستحل دخولها، فأمر لهم ببسط من الحرير، فقالوا: ولا نجلس علي هذه، فجلس معهم حيث أحبوا، فدعوه فلم يستجب فخرجوا من عنده.

ولما لم يبق من مسافة بين الجيشين إلا نقطة التماس، طلب قائد الروم ما هـــان أن يبرز إليه خالد بن الوليد بين الصفين، وقال له: لقد علمنا أن ما أخرجكم من بلادكـــم الجهد والجوع، فهلموا إلي أن أعطى كل رجل منكم عشرة دنانـــير وكســـوة وطعامـــا، وترجعون إلي بلادكم، فإذا كان العام المقبل بعثنا لكم بمثلها.

قال خالد: إنه لم يخرجنا من بلادنا ما ذكرت، غير أنا قوم نشرب الدماء، وأنـــه بلغنا أنه لادم أطيب من دم الروم، فجئنا لذلك.

فقال أصحاب ما هان: هذا والله ما كنا نحدث به عن العرب.

لقد تعامل خالد مع الروم بالإسلام، ولكن الروم تعاملوا معه بمنطق الجاهلية.

ذهب بنفسه-وهو القائد- معرضا نفسه للخطر، ليدعوهم إلي الإسلام، ثم يتركهم علي حكم بلادهم ويرحل مادامو مسلمين.

ثم دعاهم إلي تفكيك قواتهم العسكرية ودفع الجزية، وعلي المسلمين أن يدافعـــوا عنهم من أي عدوان.

إذ أن تفكيك هذه القوة هي الأصل، لأنها تستخدم لقهر عامة الناس حتى لا يعبدوا غير حكامهم، فإذا تفككت أتيح لكل إنسان حرية الرأي وحرية الاعتقاد، وفي هذا الوقت يحيى من حيّ عن بينة، ويهلك من هلك عن بينة.

من أراد الإسلام لن يمنعه من تحقيق إرادته سطوة حاكم، ولا قوة سلطان.

ومن رغب أن يبقى في الضلال لن تكون الدعوة قد بلغته ولزمته الحجـــة، ولـــن

يكرهه أحد على الإسلام.

لم يخرج المسلمون من أجل دنيا ينازعون الناس عليها، فهم ما خرجوا إلا من بعد أن باعوها بالآخرة التي ما فتئوا يتعجلونها.

و لم يخرجوا بحثا عن الغنى، فقد أصبحت الآخرة همهم فجعل الله تعالي غناهم بين أعينهم، وجمع شملهم، وجاءتهم الدنيا وهى راغمة.

ولو كان المسلمون خرجوا ابتغاء عشرات الدنانير وبعض الطعام والكسوة كما توهم قائد الروم لكان يكفيهم أن يغيروا علي الأطراف كما كانوا يفعلون في جاهليتهم فيحققون ما يهدفون، ويحصلون علي ما يريدون، وما أستدعى الأمر أن يواجهوا بقلة عتادهم سلطان الروم كله، ولو أرادوا ذلك ما ذهبوا إلي قائدهم يكشفون أوراقهم، ويضيعون علي أنفسهم مباغتة الحرب وخدعها.

إنها رسالة لم يستوعبها الروم، رسالة تقول لهم إن الناس غير الناس والهدف غير الهدف الذي كان يألفه الروم فيهم.

ولكي تزداد الرسالة وضوحا وبيانا ينفي مظنة الجهالة، ويفتح عمى العيون، فبعد أن فشلت المفاوضات أولا وثانيا، وتمخضت عن خيار الحرب، فقد وقف أبو عبيدة يخطب في كتائب الإيمان والرحمة يقول لهم: عباد الله، انصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم، يا معاشر المسلمين، اصبروا فإن الصبر منجاة من الكفر، ومرضاة للرب، ومدحضة للعار، ولا تبرحوا مصافكم، ولا تخطوا إليهم خطوة، ولا تبدءوهم بالقتال، واشرعوا الرماح، واستتروا بالدرق، والزموا الصمت إلا من ذكر الله.

وقال عمرو بن العاص: يا أيها المسلمون غضوا الأبصار، واجثوا علي الركب، اشرعوا الرماح، فإذا حملوا عليكم فأمهلوهم حتى إذا ركبوا أطراف الأسنة فثبوا وثبة الأسد، فوا لذي يرضى بالصدق ويثيب عليه، ويمقت الكذب ويجزى الإحسان إحسانا، لقد سمعت أن المسلمين سيفتحونها كفرا كفرا، وقصرا قصرا، فلا يهولنكم جموعهم ولا عددهم، فإنكم لو صدقتم الشد لتطايروا تطاير أولاد الحجل.

وتكلم معاذ وسهيل وأبو سفيان بمثل تلك المعاني التي هي في مجملها تجعل الحرب آخر الدواء، وأن المسلمين لا يبدءون بقتال، ولكنهم لا يجبنون إذا فرض عليهم، وأن ثقتهم بانتصار الإسلام تعادل ثقتهم في حسن الجزاء للشهداء، ومن ثم يرغبون في الشهادة، ويوقنون بالعلو لهذا الدين، والتمكين لأهله.

وحمل الروم حملة من لا بديل له إلا الانتصار، وبكل ما لديهم من ضغينة وحرص علي إطفاء نور الله، وتقهقر المسلمون أمامهم، فقال عكرمة بن أبي جهل رضى الله عنه

قال: قاتلت رسول الله ﷺ في مواطن وأفر منكم اليوم، ثم نادى: من يبايع علي المـــوت فكان عمه الحارث بن هشام وسهيل مع أربعمائة من المسلمين وفرسانهم فحملـــوا حملـــة تبعهم علي إثرها كل من تراجع أمام الروم فانكشف الروم وتبعهم المسلمون يعملون فيهم ما معهم من سلاح.

واستشهد في هذا اليوم من أيام اليرموك عكرمة، وقيل عمه الحارث وسهيل بن عمرو، وإن كانت رواية اخرى تقول إنهما ما زالا في الجهاد حتى ماتا في طـــاعون عمـــواس، لكـــن المرجح أن كل أهليهما ماتا في الجهاد في بلاد الشام ومنهم أبو جندل بن سهيل، وعتبـــة بـــن سهيل، و لم يعد من أبناء سهيل إلا فاضته ابنة عتبة بن سهيل و لم يبق من ولد الحارث إلا أبنه عبد الرحمن، فأرسلوهما إلي عمر بن الخطاب رضى الله عنه خليفة المسلمين، فقـــال: زوجـــوا الشريد الشريدة، وإذ أقر الله أعين المتصافين بالإسلام معا، والنقلة إلي الله معا، والجهاد معـــــا، والموت معا، فقد أقر أعينهما مرة أخرى بأن يلتقي أبناؤهما في زواج الشريدين ونشر الله تعالي منهما خلقا كثيرا.

المراجـــــــــع

أحكام القرآن	الجصاص
إحياء علوم الدين	أبوحامد الغزالي
أسد الغابة	ابن الأثير
الإصابة في تمييز الصحابة	ابن حجر العسقلاني
أصول الدعوة	د. عبدالكريم زيدان
إمتاع الأسماع	المقريزي
الاستيعاب	أبوعمر بن عبدالبر
البداية والنهاية	ابن كثير
التاريخ الإسلامي	محمود شاكر
تاريخ الأمم والملوك	ابن جرير الطبري
تفسير القرآن العظيم	ابن كثير
تفسير سورة النور	محمد كامل الدقيس
الجامع لأحكام القرآن الكريم	تفسير القرطبي
الجوهرة	في نسب النبي ﷺ وأصحابه العشرة، محمد بن أبي بكر البري
حلية الأولياء	أبونعيم الأصبهاني
حياة الصحابة	محمد يوسف الكاندهلوي
زاد المعاد	إبن قيم الجوزية
السيرة الحلبية	على بن برهان الدين الحلبي
السيرة النبوية	ابن كثير
السيرة النبوية	ابن هشام
الشمائل المحمدية	البيهقي
صحيح البخاري	محمد بن إسماعيل البخاري

صحيح مسلم	أبوالحجاج مسلم النيسابوري
صفة الصفوة	ابن الجوزي
الطبقات الكبرى	محمد بن سعد
عظماء حول الرسول	خالد عبدالرحمن العك
العوائق	أحمد محمد الراشد
الفتح الرباني	شرح مسند الإمام أحمد الشيباني
في ظلال القرآن	سيد قطب
الكامل في التاريخ	ابن الأثير
المراح من المزاح	
الموافقات	الشاطبي

فهرس الأعلام

فهرس المحتويات

رقم الايداع : ١٠٤٣٧ / ٩٧
الترقيم الدولي : I.S.B.N. 977-19-4226-3